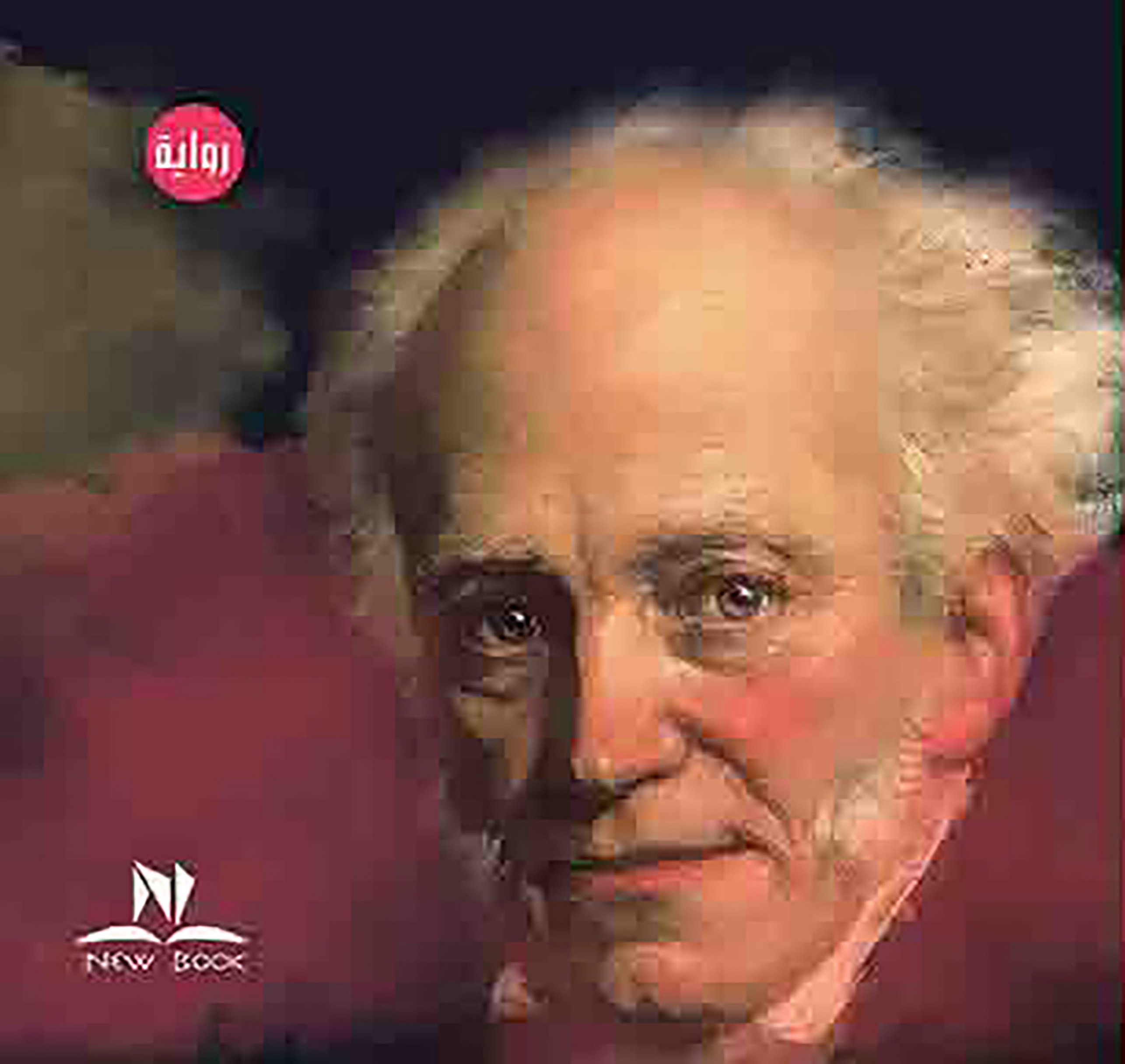
أحمد معوض

أضواء على شوبنهاور



مكتبة الرافدين للكتب
الالكترونية
https://t.me/ahn1972

أضواء على شوبنهاور

١

فهرسة أثناء النشر/ إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية، إدارة الشئون الفنية

معوض، أحمد
أضواء على شوبنهاور
نيوبوك للنشر والتوزيع
١٤ × ٢١ سم
تدمك: ٩٧٨٩٧٧٩٩٦٠٠٩٨
رقم الإيداع: ٢٠١٩/١٥٤٤٦
١ ـ القصص العربية
٢ ـ العنوان

دار النشـــــــر: نيوبوك للنشر والتوزيع
عنوان الكتاب: أضواء على شوبنهاور
الكاتب: أحمد معوض
رقم الطبعة: الأولى
تاريخ الطبع: ٢٠٢٠

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة للناشر



ويحظر طبـع، أو تصويـر، أو ترجمـة، أو إعـادة تنضيـد للكتـاب كامـلاً أو جزئيًـا، أو تسـجيله عـلى أشرطـة كاسـيت، أو إدخالـه عـلى الكمبيوتـر، أو برمجتـه عـلى أسـطوانات ضوئيـة، إلا بموافقـة النـاشر الخطيـة الموثقـة

نيوبوك للنشر والتوزيع
٦ عمارات الدفاع الوطنى ـ حدائق القبة ـ القاهرة
تليفون: ٠١٠٩٢٦٧٣٢٧٤
newbooknb@gmail.com

أحمد معوض

أضواء على شوبنهاور



المحتويات

المجلد الثالث: نحن وشوبنهاور

هـذا الكتاب

يحتفـل العالـم فـى هـذه الأيـام بمـرور مائـة عـام علـى وفـاة الفيلسـوف شـوبنهاور، فيشـترك الفلاسـفة ورجـال الفكـر جميعًـا ـ سـواء منهـم مـن كان فـى ألمانيـا أو فـى غيرهـا مـن دول العالـم ـ فـى ذكـره والإفاضـة عـن الأثـر الـذى خلفـه فـى الفلسـفة مـن بعـده.

وشـوبنهاور فيلسـوف شـهد النـاس ـ وفـى مقدمتهـم أعـز النـاس إليـه ـ ينصرفـون عنـه، ثـم شـهد ـ فـى أواخـر حياتـه ـ النـاس يقبلون عليـه ويضعونه فـى المكانـة اللائقـة بـه ويكرمونـه ويقدرونـه حـق قـدره. ولـم يغيـر هـذا الإدبـار أو ذلـك الإقبـال شـيئًا مـن نظرتـه إلـى الحيـاة، ولـم ينـزع عـن خيالـه مـا عانـاه منـذ صبـاه مـن تصرفـات كادت تـودى بـه كمفكـر وتنتقـل بـه إلـى عالـم آخـر بعيـد عـن عالـم الفكـر والتأمـل.

وراح الصـراع الـذى مـر بـه فـى حياتـه ـ وخاصـة الحلقـات الأولـى منهـا ـ يتحكـم فيمـا يكتـب ويشـكل كتاباتـه، بـل يضـع أعماله فـى القوالـب الأخيرة التـى ظهـرت فيهـا للناس.

ولا أريـد أن أتعـرض فـى هـذه الكلمـة للعالـم الذى عـاش فيه شـوبنهاور، والأيـام التـى مـر بهـا، والأعمـال التـى خلفهـا لنـا ـ حتـى لا يفقـد القـارئ لـذة متابعـة الأحـداث، وتتبع أفكاره الفلسـفية.

وطبيعـى أن أعتمـد فـى كل مـا كتبتـه هنـا علـى أعمـال الفيلسـوف العظيـم ذاتـه، وكلهـا فـى متنـاول العـارف باللغـة الألمانيـة. كمـا اعتمـدت علـى طائفـة مـن الكتـب التـى تحدثـت عنـه ـ سـواء مـا كتـب منهـا باللغـة الألمانيـة أو باللغـات العالميـة الأخـرى. وعمـدت فـى كل ذلـك إلـى النقـل مـن المصـادر الأصليـة الموثـوق فيهـا.

كذلـك عمـدت إلى التبسـيط فى عرض أفكار شـوبنهاور الفلسـفية محاولًا الابتعـاد ـ قـدر الإمـكان عـن الألفـاظ الهيوليـة التـى يسـتعملها المتحدثـون فـى الفلسـفة، إيمانًـا منـى بـأن تبسـيط الفلسـفة ـ رغـم مـا فـى ذلـك مـن جهـد مضـنٍ شـاقٍ ـ يجتـذب الكثيريـن، ممـن يخشـون مجـرد الاقتـراب مـن الكتـب التـى تتصـف بالفلسـفية.

وفـى سـبيل ذلـك عمـدت إلـى إجـراء تجربة عمليـة، إذ جمعـت ثلة ممن اختلفـت ثقافتهـم فـى درجتهـا ونوعهـا، وجعلـت أقـرأ عليهـم أصـول الكتاب قبـل إرسـالها إلـى المطبعـة. ولكـم كان سـرورى كبيـرًا عندمـا ألفيتهـم جميعًا يتتبعـون مـا كتبـت فـى شـغف. وتأكـد لى أن مـا جاء فـى هذا الكتـاب واضح كل الوضـوح لـدى فتيـة ممـن لـم يتمـوا المرحلـة الإعداديـة مـن التعليـم، ولـدى الشـباب فـى المرحلـة الثانويـة مـن التعليـم. واعتبـره أصدقائـى مـن رجـال الفكـر وزملائـى مـن الخريجيـن وطلبـة الجامعـات والمعاهـد العليـا، نصـرًا كبيـرًا للفكـرة التـى أنـادى بهـا مـن ضـرورة تبسـيط الفلسـفة.

والآن، أقـدم هـذا الكتـاب وكلـى ثقـة فـى أنـه سيشـق طريقـه فـى نجاح ـ علـى الرغـم مـن أنـه يعـرض لفيلسـوف متشـائم.. لـم يجـد السـبيل إلـى النجـاح إلا فـى أواخـر أيامـه، قبيـل أن ينسـدل السـتار علـى مسـرحية حياته.



وأود ـ فى ختام هذه الكلمة ـ أن أشكر كل من عاوننى على إخراج هذا الكتاب، وفى مقدمتهم زوجتى التى كان لها فضل كبير فى إعداد الكتاب، إذ سهرت الليالى تعمل معى بل تشاركنى العمل فى كل المراحل التى مر بها الكتاب. ولن أجد للإعراب عن تقديرى لجهودها إلا أن أهدى إليها كتابى عن «شوبنهاور» ـ ولو أنه كان عدو النساء الأول.

حدائق القبة فى ٢٥ أكتوبر ١٩٦٠

المجلد الأول

من المهد إلى اللحد

أيام شوبنهاور

لماذا سادت فى أوروبا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر روح التشاؤم؟

ولماذا تملك النفوس ذلك اليأس القاتل؟

ولماذا ارتفعت أصوات اعتبرت ممثلة لذلك العصر؟

ولماذا ارتفعت أصوات شعراء متشائمين: بيرون Byron فى إنجلترا، ودى موسيه De Musset فى فرنسا، وهاينه Heine فى ألمانيا وليوباردى Leopardi فى إيطاليا، وبوشكين Pushkin وليرمونتوف Lermontof فى روسيا؟

ولماذا ارتفعت أصوات مجموعة الموسيقيين المتشائمين أمثال شوبيرت Schubert وشومان Schumann وشوبان Chopin، بل وبيتهوفن Beethoven الذى صار متشائمًا فى أواخر أيامه وإن حاول أن يقنع نفسه بأنه متفائل؟

بل قبل هؤلاء جميعًا؛ لماذا ارتفع صوت ذلك الفيلسوف العميق فى تشاؤمه.. آرتور شوبنهاور؟

لقد ظهرت مجموعته الأحزان الكبرى «العالم ـ إرادة وتخيل»

فـى سـنة ١٨١٨، وكان ذلـك فـى عصـر الحلـف «المقـدس». وانتهـت معركـة واترلـو Waterloo، وماتـت الثـورة. وأخـذ «ابـن الثـورة» يحتضـر فـوق صخرة فـى وسـط بحـر بعيـد، فجـاء مرجـع بعـض تأليـه الإرادة عنـد شـوبنهاور مـن ذلـك الطيـف الحـى الرائـع ـ الـذى يمثـل الإرادة ـ وقـد تجسـد فـى بونابـرت Bonaparte ذلـك الكورسـيكى الصغيـر؛ كمـا جـاء بعـض يأسـه مـن الحيـاة مـن بعـد جزيـرة سـانت هيلانـه St. Helena إذ هزمـت الإرادة أخيـرًا، وبقـى المـوت المظلـم هـو المنتصـر الوحيـد فـى جميـع الحـروب. وأعيـدت أسـرة بوربـون Bourbons إلـى العـرش، وعـاد البارونـات Baron الإقطاعيـون يطالبـون بأراضهـم؛ وتبنـت مثاليـة الكزنـدر Alexander المسـالمة، عصبـة تعمـل علـى وقـف التقـدم فـى كل مـكان. وانتهـى بذلـك العصـر الثـورى المجيـد حتـى أن جيتـه Goethe قـال «أحمـد اللـه علـى أنـى لسـت صغيـرًا فـى عالـم منتـه تمامًـا كهـذا».

ورقـدت أوروبـا كلهـا فـى خضـوع واسـتكانة. وهلـك ملاييـن الرجـال الأقويـاء، وأهملـت ملاييـن الأفدنـة مـن الأراضـى أو تركـت بـورا. وكان لا بـد مـن أن تبـدأ الحيـاة مـرة أخـرى فـى كل مـكان مـن القـارة الأوروبيـة مـن القـاع حتـى يمكـن أن تسـترد فـى بـطء وفـى جهـد شـىء مـن ذلـك الاقتصاد الـذى يكفـل الحضـارة بعـد أن كانـت الحـرب قـد ابتلعته كلـه. وعندمـا جاب شـوبنهاور أنحـاء فرنسـا والنمسـا فـى سـنة ١٨٠٤، أدهشـته فوضـى القـرى وقذارتهـا وفقـر الفلاحيـن المدقـع واضطـراب المـدن وشـقاءها ـ ذلـك أن مـرور جيـوش نابليـون والجيـوش المعاديـة لنابليـون قـد تركـت آثـار الدمـار علـى وجـه كل بلـد فـى أوروبـا.

كانـت موسـكو رمـادًا. أمـا فـى إنجلتـرا المزهـوة بانتصارهـا فـى هـذا الصـراع، فقـد أفلـس الفلاحـون فيهـا بسـبب انخفـاض سـعر القمـح، وأخـذ

عمـال الصناعـة يتذوقـون أهـوال خطـط المصانـع المتفككة التـى تعمل دون رقابـة. وزاد تسـريح الجيـوش مـن عـدد العاطليـن. وكتـب تومـاس كارليـل Thomas Carlyle يقـول: «سـمعت أبـى يقـول إنـه لاحـظ أنـه عندمـا ارتفـع ثمـن الأربعـة عشـر رطـلًا مـن طحيـن الشـوفان فبلـغ عشـرة شـلنات، كان العمـال يذهبـون فـرادى إلـى جـدول مـاء فيشـربون بـدلًا مـن أن يأكلـوا، ولا يهتـم كل منهـم إلا بـأن يخفـى شـقاءه عـن الآخريـن».

ولـم تبـد الحيـاة قـط مـن قبـل تافهـة وغيـر ذى معنـى هكـذا. نعـم، ماتـت الثـورة وبموتهـا بـدت الحيـاة وكأنهـا الـروح فاضـت بهـا نفـس أوروبـا؛ وتقهقـرت الجنـة الجديـدة، جنـة المدينـة الفاضلـة، التـى حـل رواؤهـا محـل شـفق الآلهـة؛ وأصبحـت مسـتقبلًا مظلمًـا لا تسـتطيع أن تـراه إلا العيـون الفتيـة، أمـا العيـون المعمـرة فقـد طـال متابعتهـا السـراب، وانصرفـت عنـه الآن بعـد أن اعتبرتـه سـخرية مـن آمـال البشـر؛ فالصغـار وحدهم هـم الذين يسـتطيعون أن يعيشـوا فـى المسـتقبل، أمـا الشـيوخ فـلا يسـتطيعون أن يعيشـوا إلا فـى الماضـي، وأغلـب النـاس كانـوا مضطريـن لأن يعيشـوا فـى الحاضـر ـ وليـس الحاضـر إلا خرابًـا.

لكـم حـارب آلاف الأبطـال والمؤمنـون فـى سـبيل الثـورة، ولكـم اتجهـت قلـوب الشـباب فـى كل مـكان فـى أنحـاء أوروبـا نحـو الجمهوريـة الفتيـة، وعاشـت فـى ضوئهـا وعلـى الأمـل فيهـا ـ حتـى أن بيتهوفـن مـزق إهـداء سـيمفونيته البطوليـة إلـى الرجـل الـذى لـم يعـد ابـن الثـورة بـل أصبـح صهـر الرجعيـة.

ولكـم حـارب الكثيـرون ـ حتـى فـى ذلـك الوقـت ـ مـن أجـل الأمـل الكبيـر، وآمنـوا ـ بشـىء مـن الشـك العاطفـى ـ حتـى النهايـة! والآن



حلـت النهايـة نفسـها: واترلـو وسـانت هيلانـه وفيينـا؛ وعـلا عـرش فرنسـا الطريحـة أحـد أفـراد أسـرة بوربـون ـ لـم يتعلـم شـيئًا ولـم ينـس شـيئًا.

كان كل ذلـك هـو السجل المجيـد لجيـل كان له مـن الأمانـى والجهود ما لـم يعـرف تاريـخ البشـرية لهـا مثيـلًا مـن قبـل. ولكـم كانـت هـذه المأسـاة مهزلـة لأولئـك الذيـن اختلطـت ضحكاتهـم مريـرة بالدموع !

وحـاول الكثيـر مـن الفقـراء خـلال تلـك الأيـام إبعـاد الخيـالات والأوهـام عـن نفوسـهم، وتخليـص ذاتهـم مـن الشـقاء الـذى حـل بهـا؛ وذلـك بالاتجـاه وجهـة دينيـة. ولكـن نسـبة كبيـرة مـن أهـل الطبقـة العليـا اهتـزت نفوسـهم هـزًا عنيفًـا، ففقـدوا إيمانهـم؛ وخاصـة عندمـا ألقـوا ببصرهـم مـن حولهـم، فـإذا بهـم لا يـرون إلا عالمًـا خربًـا؛ ولـم يجـدوا مـا يخفـف مـن أثـر ذلـك مـن احتمـال مشـاهدتهم حيـاة أوسـع، يمكـن أن يوجد فـى جمالهـا وعدالتها النهائيـة حـل لهـذه الشـرور. وكان مـن الصعـب علـى البعـض أن يعتقـد أن هـذه الدنيـا ـ التـى رآهـا النـاس فـى سـنة ١٨١٨ ـ كانـت بيـن يـدى إلـه ذكى خيـر، فانتصـر الشـيطان ويئـس كل عالـم. وإذا كان فولتيـر Voltaire قـد بـذر بـذور الدوامـة، فقـد كان علـى شـوبنهاور أن يحصـد هـذه البـذور.

وكانـت هـذه أول مـرة أثيـرت فيهـا فـى إصـرار تـام مشـكلة الشـر بهـذه القـوة لتواجـه كلًا مــن الفلسـفة والعقيـدة. وارتفعـت علامـات الاسـتفهام صامتـة مـن كل قبـر عسـكرى ابتـداء مـن بولونيـا Boulogne حتـى موسـكو Moscow والأهـرام نحـو النجـوم غيـر العابئـة.

يـا إلهـى ! كـم يطـول هـذا؟ ولمـاذا؟ هـل كانـت هـذه الكارثـة التـى تكاد تكـون عالميـة انتقامًـا مـن عصـر الإلحـاد المتشـح بـزى العقـل مـن لـدن



إلـه عـادل؟ أكانـت دعـوة للعقـل النـادم لينحنـى أمـام الفضائـل القديمـة: فضائـل الإيمـان والأمـل والإحسـان؟

علـى هـذا النحـو فكر شـليجل Schlegel ونوفاليس Novalis وشـاتوبريان Chateaubriand ودى موسـيه وسـوتى Southey ووردزورث Wordsworth وجوجـول Gogol! ومـن ثـم أقبلـوا علـى العقيـدة القديمـة، فـكان مثلهـم فـى ذلـك كمثـل الصبـى المدلـل تسـعده العـودة لبيتـه بعـد الضـلال. نعـم، هـذا مـا دفعهـم للرجـوع إلـى حظيـرة الإيمـان.

ولـم ينهـج الجميـع هـذا المنهـج، إذ أن عددًا كبيـرًا غيرهم فكـر فى الأمر بطريقـة أخـرى؛ إذ هيـئ لـه أن فوضـى أوروبـا إنمـا هـى انعـكاس لفوضـى الكـون؛ وأنـه ليـس هنـاك نظـام إلهـى قـط، ولا أمـل فـى السـماء. وأن اللـه ـ إذا كان هنـاك إلـه ـ إنمـا هـو أعمـى، وأن الشـر يخيـم علـى وجـه الأرض. وعلـى هـذا النحـو فكـر كل مـن بايـرون وهاينـه وليرمـو نتـوف وليوبـاردى وفيلسـوفنا شـوبنهاور.

* * *

حياة شوبنهاور

اعتمدنا فى الحديث عن حياة شوبنهاور على ما كتبه الفيلسوف ذاته عن سيرته، وتتمثل فى:

- مجموعة الرسائل المتبادلة بينه وبين أمه من جهة، وبينه وبين أصدقائه وعظماء عصره من جهة أخرى.

- الرسالة التى بعث بها إلى عميد كلية الفلسفة فى جامعة فيينا فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٨١٣.

- أحداث حياته كما سجلها فى Curriculum Vitae ضمن رسالته المؤرخة فى ٣١ ديسمبر سنة ١٨١٩ إلى عميد كلية الفلسفة فى جامعة برلين.

- موضوع Biographische الذى وضع بنفسه فيه مخططًا لسيرته Skizze وذلك فى ٩ أبريل سنة ١٨٥١ ليستعين به يوحنا إدوارد إردمان Joh. Ed.Erdmann فى كتابه الذى وضعه عن تاريخ الفلسفة تحت عنوان Versuche einer wissenschaftlichen Darstellung Geschichte der neueren philosohpie «ومحاولة علمية لتوضيح تاريخ الفلسفة الحديثة».



ـ المذكـرات التـى كتبهـا عـن نفسـه Notizen über mein Leben «مذكـرات عـن حياتـي» وقدمهـا فـى ٢٨ مايـو سـنة ١٩٥١ لتكـون تحـت تصـرف هيئـة تحرير دائرة ماير للمعـارف Meyers Konversationslexikon.

وثمـة عمـل يقـال إن شـوبنهاور كتبـه عن حياتـه تحت اسـم Eis Exutov علـى غـرار مـا كتبـه مـارك أوريـل Marc Aurèle تحـت نفـس العنـوان؛ إلا أن هـذا العمـل لـم نـر منـه اثـرًا.

كذلـك اعتمدنـا علـى الأعمـال والحكايـات التـى كتبهـا عنـه أصدقـاؤه ومعاصـروه، وفـى مقدمـة هـؤلاء الكاتـب الروائـى فيلهلـم يـوردان Wilhelm Jordan وصديقــه الوفــى فيلهلــم جفيــز Wilhelm Gwinner وصديقــه فراونشـتيت J.Frauenstâdt الـذى ترك شـوبنهاور لـه كل مخطوطاته العلمية وكل أعمالـه وكل مخطوطـات «كانـت»، وتـرك لـه جميـع حقـوق نشـرها بعد أن تخلـى الناشـرون عـن هـذه الحقـوق رسـميًا فـى عقودهـم.

وقـد نشـر جفينـر عملـه الأول عـن شـوبنهاور فـى ليبتسـيج فـى سـنة ١٨٦٢ تحـت عنـوان:

Arthur Schopenhauer ـ aus personlichen Umgang dargestellt.

آرتـور شـوبنهاور ـ موصوفًـا مـن الاتصـالات الشـخصية. ثم نشـر بعد ذلك عملـه الثانـى عنـه فـى برليـن فى سـنة ١٨٦٣ تحـت عنوان:

Arthur Schopenhauer ـ Von ihm ـ Ueber ihm. Ein Wort der Verteidigung von Ernst Otto Linder und Memorbilien, Briefe und Nachlassstücke von Julius Frauenstadt



آرتـور شـوبنهاور ـ منـه ـ عنـه. كلمـة دفـاع عنـه مـن أرنسـت أوتولينـدر، ذكرياتـه وخطاباتـه ومخلفاتـه بقلـم يوليـوس فراونشـتيت.

وفـى ١٨٦٤ نشـر يوليـوس فراونشـتيت فـى ليبتسـيج مـا خـرج بـه مـن مخطوطاتـه تحـت عنـوان:

Aus Arthur Schopenhauer handschriftem Nachlass.

Abhandlungen, Anmerkungen, Aphorismen und Fragmente.

«مـن المخطوطـات التـى خلفهـا آرتـور شـوبنهاور. رسـائل وتعليقـات وأقـوال وشـذرات».

ونشـر يوليـوس فراونشـتيت أيضًـا مجموعـة أعمـال شـوبنهاور Arthur Shopenhauers samtliche Werke. وقـدم لهـا بكلمـة عـن «صـورة حيـاة» شـوبنهاور Lebensbild وقـد رجعنـا إلـى الطبعـة الثانيـة منهـا المنشـورة فى ليبتسـيج فـى سـنة ١٩٢٢.

ومـن الكتـب التـى رجعنـا إليهـا أيضًـا، والتـى كتبهـا معاصـروه ـ ذلـك الكتـاب الـذى وضعـه جريزبـاخ E.Griesbach ونشـره فـى برلين سـنة ١٨٦٧ تحـت عنـوان Schopenhauer ـ Geschichte seines Lebens «شـوبنهاور، قصـة حياتـه». وقـد نشـر جريزبـاح فـى سـنة ١٩٠٥ كتابـه الثانـى عـن شـوبنهاور الـذى طبعـه فـى برليـن أيضًـا تحـت عنـوان:

ـ Schopenhauer ـ Neue Beitrage zur Geschichte seines Leben «شـوبنهاور ـ فاضـل جديـد مـن قصـة حياتـه».

وجـاء فيشـر فأخـرج كتابًـا شـاملًا عـن «حيـاة شـوبنهاور وأعمالـه



وتعاليمـه» shopenhauers Leben, Werke und Lehre وصـدرت الطبعـة الأولـى منـه فـى ١٨٩٣، إلا إنـى لـم أعثـر إلا علـى الطبعـة الرابعـة التـى صـدرت فـى هايدلبـرج فـى سـنة ١٩٣٤ ومذيلـة بكلمـة مـن هــ. جلوكنـر H. Glockner

وقـد نشـر أرتـور هيبشـر A. Hübscher بالاشـتراك مـع ج. جبهـارت G. Gebhardt ـ Der Briefwechsel Arthur Schopenhauers الخطابـات المتبادلـة مـع ارتـور شـوبنهاور ضمـن مجموعـة أعمـال شـوبنهاور Arthur Schopenhauer samtliche werke التـى أصدرهـا ب. دويسـن P.Deussen فـى ثلاثـة مجلدات: الأول منه نشـره ج. جبهـارت G.Gebhardt فى مينشـين فـى سـنة ١٩٢٩. والمجلديـن الثانـى والثالـث لأوتوهيبشـر نفسـه، وطبعـت فـى مينشـين فـى سـنتى ١٩٣٣و١٩٣٨.

وفـى سـنة ١٩٣٣ صـدر فـى هيدلبـرج كتـاب هيبشـر «محادثـات أرتـور شـوبنهاور» Arthur Shopenhauers Gesprache، وذلـك فـى الكتـاب العشـرين لجمعيـة شـوبنهاور Schopenhauer Gesellschaft.

وفـى سـنة ١٩٣٧ نشـر هيبشـر أيضًـا «صـورة حيـاة» Lebensbildضمـن مجموعـة أعمـال Arthur Schopenhauers samtliche Werke شـوبنهاور التـى نشـرها هيبشـر بنفسـه.

وفـى سـنة ١٩٣٧ صـدر كتـاب لشـنيدر W. Schneider عـن شـوبنهاور Schopenhauer.

ولـم أر تحليـلًا لشـوبنهاور وفلسـفته فـى الوضـوح والبسـاطة التـى كتـب بهـا ويـل ديورانـت Will Durant الفصـل الـذى اختـص بـه



الفيلسـوف الألمانـى الكبيـر فـى عملـه الخالـد «قصـة الفلسـفة» The Story of philosophy عـن حيـاة وآراء كبـار الفلاسـفة. وقـد اعتمـدت علـى طبعـة ١٩٥٣ ممـا كتبـه ديورانـت فـى كثيـر مـن أبـواب المجلـد الثانـى مـن هـذا الكتاب.

ولـم أجـد فـى المكتبـة العربيـة عـن هـذا الفيلسـوف إلا كتابًـا وأحـدًا نشـره الأسـتاذ الدكتـور عبـد الرحمـن بـدوى فـى أواسـط سـنة ١٩٤٢، وطبعـه للمـرة الثانيـة فـى سـنة ١٩٤٥ وجعـل عنوانـه اسـم الفيلسـوف مجـردًا «شـوبنهور». وذلـك ضمـن سلسـلة الفلاسـفة مـن مجموعتـه «خلاصـة الفكـر الأوروبـي. وقـد عـرض الدكتـور بـدوى فـى كتابـه آراء الفيلسـوف بطريقـة غيـر تلـك التـى يراهـا القـارئ فـى هـذا الكتـاب ممـا يجعلنـى أوصـى القارئ بالاطـلاع أيضًـا علـى كتـاب الدكتـور عبـد الرحمـن بـدوى.

قصة حياة شوبنهاور

نشـأ آرتـور شـوبنهاور Arthur Schopenhauer فـى مدينـة دانتسـيج Dantzig حيـث ولـد فيهـا فـى اليـوم الثانـى والعشـرين مـن شـهر فبرايـر لسـنة ١٧٨٨م. وكاد أن يولـد إنجليزيًـا لـولا أن عـادت أمـه إلـى موطنهـا قبيـل مولـده.

وكان أبوه هاينريش فلوريس Heinrich Floris Schopenhauer شوبنهاور تاجـرًا ثريًـا ومستشـارًا بالبـلاط الملكـى البولنـدي، وإن كان لم يسـمع قط لأحد بـأن يناديـه بهـذه الصفـة، إذ تميز باسـتقلال الشـخصية وحب الحريـة المتأصل فـى نفسـه. وكان الأب رجـلًا عنيفًـا شـديد القسـوة غليـظ القلـب، إلا أنـه لـم تكـن تشـوبه شـائبة البتـة بـل اتصـف بالاسـتقامة والإيمـان القـوى. وكانـت لـه عـدة مواهـب رائعـة فـى النواحـى التجارية.

أمـا أمـه فكانـت تسـمى عنـد مولدهـا يوحنـا هنريـت تروزينـر Johanna Henriette Trosiener وكان أبوهـا قاضيًـا فـى مدينـة دانتسـيج، وقـد تم زواجها مـن هاينريـش فلوريـس شـوبنهاور فـى سـنة ١٧٥٨. ورزق الزوجـان بطفلهمـا الأول آرتـور فـى العـام الثالـث مـن زواجهمـا؛ وبعـد عشـر سـنين أنجبـا آديـل أختًـا لآرتـور، وبقـى لهمـا هـذا الثنائـى مـن الأطفـال فحسـب.

ولـم تكـن الأم سـعيدة فـى زواجهـا إذ كان زوجهـا ـ علـى الرغـم مـن

كثرة رحلاته ينهمك فى تجارته ويكرس نفسه لها مبتعدًا عن المجتمع الذى كانت هى ترنو إليه وترى أنها خلقت له. ودخلت سجل التاريخ بفضل ذلك العدد الضخم من مؤلفاته الأدبية التى اشتهرت بها، وخاصة فى فن القصة الطويلة، حيث ارتفعت إلى الصف الأول من كتاب عصرها، وإذا كانت فى حياتها الخاصة تشبه زوجها فى كونها حادة المزاج.

ويقرر شوبنهاور فى كتاباته عن نفسه أنه ورث الشخصية والإرادة عن أبيه، وورث العقل عن أمه.

ويقول إنه يدين لأبيه بالكثير مما تعجز عن إحصائه الكلمات؛ فقد اختار والده له السلك التجاري، ورأى ذلك أحسن ما يمكن أن يقدمه لابنه الأعز الأوحد. ولكن هذا الاتجاه لم يكن مناسبًا لروحه، إذ أنه كان قد بدأ مبكرًا الإلمام بالمعارف العامة، فضلًا عن أنه وجد من الحرية وفسحة الوقت وغير ذلك من الأسباب ما هيأ له بلوغ مرامه والهدف الوحيد الذى ولد من أجله ـ ألا وهو التزود بالعلم والثقافة. وعندما ازداد نضجًا، أتيحت له عدة فرص لم يكن له فضل فيها ـ فى الوقت الذى لم يستطع غيره التمتع بها اللهم إلا القليل بين أقرانه ـ ألا وهى الحياة الخالية تمامًا من المتاعب عامة ومتاعب البحث عن لقمة العيش خاصة، الأمر الذى ساعده على متابعة دراساته عدة أعوام لم يكن مضطرًا فيها إلى البحث عن مصدر مالى، بل كرس كل جهوده للدرس والتحصيل؛ كما استطاع أن يقضى وقته كله فى البحث والتأمل اللذين كانا من أشق ما يعرض للباحث. وأخيرًا سمحت له بتدوين كل ما بحث وفكر فيه، دون أن يصرف انتباهه عنها أو أن يزعجه شىء قط.

ويقـرر شـوبنهاور أنـه فـى «كل هـذا مديـن بـه لأبـي، إذ لـم يهـيء لنـا إمبراطـور قـط هـذه السعة مـن الوقـت. ومـن ثـم فإنـى أحمـل فـى قلبـى مـا حييـت كل هـذه الأفضـال التـى تجـل عـن البيـان، وتلـك الرحمـة التـى اتصـف بهـا خيـر أب. ولسـوف تبقـى ذكـراه خالـدة مقدسـة علـى الـدوام».

وعندمـا أخضـع ملـك بروسـيا مدينـة دانتسـيج لسـيطرته فـى سـنة ١٧٩٣ لـم يسـتطع أبـوه تأييـد سـقوط الجمهوريـة القديمـة، إذ لـم يكـن قلبـه أكثـر تعطشًـا للحريـة منـه لوطنـه؛ فقبـل أن تحتـل القـوات البروسـية المدينـة ببضـع سـاعات بارحهـا هـو وزوجتـه وطفلـه الـذى كان فـى الخامسـة مـن عمـره. وقضـى ليلـة فـى بيتـه الريفـى ورحـل فـى نهـار اليـوم التالـى بالقطار السـريع إلـى هامبـورج. صحيـح أنـه خسـر الكثيـر مـن أملاكـه، ولكنه اشـترى نفسـه وأسـرته وأنقذهمـا مـن مصيـر دانتسـيج. وعـلاوة علـى خسـارته هذه. فقـد أضـر بـه تغييـره مـكان عملـه للغايـة، وتضاعـف ضـرره عندمـا اضطـر إلـى بيـع أملاكـه فـى هـذه الظـروف غيـر المواتيـة بأبخـس الأثمـان، مـع دفـع عشـر ثمنهـا إلـى الضرائـب مقابـل إعفائـه مـن التزاماتـه قبـل المدينـة.

وكان ذلـك الغـلام الصغيـر هو آرتـور شـوبنهاور الذى كان عليـه أن يعيش فـى ذلـك الوقـت طفولـة تعسـة.. بـلا وطـن. ومنـذ ذلـك الوقـت لـم يفكـر فـى توطـن بلـد جديـد، بـل آثـر أن يسـير علـى نهـج أبيـه عندمـا أقـام فـى هامبـورج حتـى نهايـة حياتـه وهـو لا يريـد أن يدرج اسـمه ضمـن المواطنين بـل ظـل يعيـش دانتسـيجيًا ـ طبقًـا لقانـون الأجانـب هنـاك.

أمـا آرتـور، فقـد كان فـى ذلـك الوقـت ولـده ووارثـه الوحيـد إذ لـم تولـد أختـه إلا بعـد خمـس سـنوات. ومـن ثـم، كان يهتـم بـه اهتمامًـا فائقًـا، بـل قـرر أن يجعـل مـن ابنـه هـذا تاجـرًا قديـرًا ورجـل مجتمـع ذا طبـاع لطيفـة.



وهـذا يسـتلزم بالضـرورة أن يجيـد الفتـى اللغـة الفرنسـية. ومـن ثـم قـرر الأب أن يصطحـب معـه ابنـه آرتـور فـى رحلتـه التـى قـام بهـا للتسـلية فـى سـنة ١٧٩٧ إلـى فرنسـا وإنجلتـرا.

وكان الفتـى فـى ذلـك الوقـت فـى التاسـعة مـن عمـره، فـراح يتلقـى علومـه فـى إحـدى المـدارس الخاصـة، وبعـد أن قضـت العائلـة الصغيـرة فتـرة فـى باريـس Paris انتقلـت إلـى الهافـر Havre حيـث بقـى الولـد وحـده ليتعلـم اللغـة الفرنسـية ويتأثـر بـآداب الفرنسـيين وعاداتهـم.. أو فـى كلمـة واحـدة بغيـة أن يصبـح فرنسـيًا. وقـد تركـه أبـوه مـع صديـق العائلـة جريجـواردى بليـر يميـر Gregoire de Blesimaire الـذى كان يعمـل فـى التجـارة؛ فأحسـن ذلـك الرجـل ضيافـة الفتـى، وعاملـه علـى أنـه ابنـه الثانـى الـذى كان فـى مثـل سـنه. وأحضـر أسـاتذة خاصيـن لتولـى أمـر تعليمهمـا، فكانـوا يأتـون إليهمـا ليعلموهمـا كل ألـوان المعرفـة بالقـدر الـذى يتلائم مع سـنهما الصغيـرة؛ بـل علموهمـا المبـادئ الأوليـة فـى اللغـة اللاتينيـة علـى نحـو تيسـر لشـوبنهاور الصغيـر معـه فهـم أصولهـا، حتـى إذا مـا وجـد كلمـة لاتينيـة لا يجـد نفسـه فـى حيـرة أمامهـا.

ويذكـر شـوبنهاور أيامـه التـى قضاهـا فـى الهافـر، فيقـول «لقـد عشـت فـى هـذه المدينـة اللطيفـة التـى تقـع عند مصـب نهر السـين، وعلى شـاطئ البحـر ـ أمتـع أيـام طفولتـي».

وبعـد أن قضـى آرتـور مـا يزيـد علـى العاميـن فـى الهافـر ـ وقبـل أن يتـم الثانيـة عشـرة مـن عمـره ـ عـاد وحـده بالسـفينة إلـى همبـورج. ولشـد مـا ابتهـج أبـوه الطيـب بعودتـه، وزادت فرحـة الأب عندمـا سـمع ابنـه يتكلـم بالفرنسـية كمـا يتكلـم الفرنسـيون ـ وإن كان قـد آسـف بعـض الشـيء

عندما ألفى ابنه قد نسى الألمانية إلى حد أنهم لم يكونوا يستطيعون فهم كلامه إلا بصعوبة بالغة.

ولما استقر بآرتور المقام فى هامبورج، الحقه أبوه بمعهد خاص كان يرأسه الدكتور رونجه D.Rungeالذى كان رئيس تحرير إحدى الصحف التربوية فى نفس الوقت. وكان هذا المعهد يفتح أبوابه فحسب لأبناء الأثرياء الذين كانوا يعدون الطبقة العليا فى المدينة. وهكذا تعلم شوبنهاور الصغير ـ تحت رئاسة هذا الرجل الذائع الصيت وبتوجيه من المدرسين الآخرين الذين كانوا يعملون فى نفس المعهد ـ كل ما ينفع رجل الأعمال ويلائم الرجل المثقف. ولكن اللغة اللاتينية ـ التى كان آرثر ـ قد تلقى فيها دروسًا من قبل ـ لم يخصص لها أكثر من درس واحد أسبوعيًا؛ وحتى ذلك الدرس لم يكن جادًا إلا فى ظاهره.

وبقى آرتور فى هذه المدرسة قرابة أربعة أعوام، بدأت الرغبة فى أواخرها تستبد به قوية فى أن يتجه إلى الثقافة والعلوم، فطلب إلى أبيه فى حماس أن يدعه ينفذ رغبته هذه، وألا يدعه يصبح تاجرًا. ولكن الأب كان يشمئز من هذا الاتجاه؛ إذ كان يرى أن مصلحة ابنه فى أن ينصرف إلى التجارة، بالرغم من أن الدكتور رونجه أبدى أنه لا طاقة لأرتور بالأعمال التجارية، ونصح بأن يكون بعيدًا عن الاشتغال بها.

وبدأ رأى الأب الحازم يتعرض للهزات إلى حد أنه مال إلى الموافقة على أن يبعثه إلى إحدى المدارس الثانوية ـ ذلك أنه كان يضع مصلحة ابنه قبل كل شىء عداها، فلها الأولوية دومًا عنده. ولكن كان يضايقه فى هذا الاتجاه ما كان راسخًا فى الأذهان من

ارتبـاط قـوى بيـن الفقـر وبيـن مهـن الثقافـة، إلـى حـد لا يجـوز معـه الفصل بيـن الواحـدة والأخـرى. ولـذا كان يعتقـد اعتقـادًا جازمًـا أنـه يتحتـم الحيلولة دون هـذا الحـدث الخطيـر فـى الوقـت المناسـب. وهكـذا اسـتقر رأيـه علـى أن يجعـل مـن ابنـه أحـد رجـال الديـن القانونييـن فـى هامبـورج، وشـغل هـذا الأمـر تفكيـره فتـرة طويلـة؛ إذ أنـه فـى الوقـت الـذى أراد أن يعـد ابنـه لذلـك التطـور فـى حياتـه، كان لا يـزال يفكـر فـى الثمـن الغالـى الـذى كان عليـه أن يدفعـه فـى مقابـل ذلـك التغييـر فـى خطـة حيـاة ابنـه الأوحـد. وكان هـذا سـببًا كافيًـا لتأخيـر القـرار النهائـى.

وفـى هـذه الفتـرة عـاود الأب الأمـل مـن جديـد فـى أن يصـرف ابنـه عـن فكرتـه دون أن يلجـأ إلـى الضغـط عليـه، وخاصـة أنـه كان يقـدر تمامًـا حريـة الفـرد. وانتهـى تفكيـره ـ بعـد مجهـود مضـن شـاق ـ إلى طريقـة ماكرة اختارهـا لتنفيـذ إرادتـه: ذلـك أنـه كان يعلـم علم اليقيـن أن ابنه مغـرم برؤية العالـم، وأنـه يتـوق إلـى رؤيـة الهافـر كـى يلتقـى بأصدقائـه الأعـزاء هنـاك. ومـن ثـم، قـال الأب لآرتـور أنـه سـيقوم هـو وزوجتـه برحلـة تسـلية أخـرى فـى عـدة بـلاد مـن بـلاد أوروبـا، وأن آرتـور يسـتطيع أن يشـاركهما فـى هـذه الرحلـة الباهـرة التـى يـرى فيهـا الهافـر مـرة أخـرى، شـريطة أن يعـد أبيـه بـأن يتجـه بعـد ذلـك إلـى التجـارة. أمـا إذا أصـر علـى نقيـض ذلـك ـ بانتهـاج منهـج المثقفيـن ـ فيجـب أن يبقـى فـى هامبـورج كـى يزيـد معلوماتـه فـى اللغـة اللاتينيـة. وتـرك الأمـر لابنـه ليختـار أيهمـا شـاء.

ولـم يسـتطع قلـب الفتـى ـ الـذى كان لا يـزال فـى السادسـة عشـرة مـن عمـره ـ أن يقـاوم مثـل هـذا الإغـراء؛ فمـا كان مـن آرتـور إلا أن قطـع علـى نفسـه الوعـد الـذى طلبـه منـه أبـوه. وسـافرت الأسـرة فـى ربيـع سـنة ١٨٠٣ مـن هامبـورج إلـى هولنـدا ثـم إلـى فرنسـا ومـن بعدهـا

إلـى إنجلتـرا. وقضـت الأسـرة فـى لندن شـهرًا ونصف الشـهر ثم تابـع الوالدان تجوالهمـا فـى داخـل إنجلتـرا ثـم اسـكوتلندا، بينمـا تـركا آرتـور لأحـد رجـال الديـن كان يقيـم فـى ويمبلـدون Wimbeldon علـى مقربة من لنـدن، وذلك بقصـد تلقينـه اللغـة الإنجليزيـة وتعليمـه إياهـا تعليمًـا تامًـا؛ فنجـح الفتـى فـى ذلـك نجاحًـا فائقًـا إذ أتقـن اللغـة إتقانًـا تامًـا خـلال الأشـهر الثلاثـة التـى عاشـها مـع رجـل الديـن. فلمـا عـاد أبـواه إلـى لنـدن لحـق بهمـا؛ ومكثـت الأسـرة هنـاك شـهرًا ونصـف الشـهر، ثـم عـادت إلـى هولنـدا. ومـن هنـاك واصلـت رحلتهـا إلـى بلجيـكا، ثـم إلـى باريـس.

وفـى باريـس قضـت عائلـة شـوبنهاور أغلـب فصـل الشـتاء، وكان يرافقهـا فـى هـذه الفتـرة لويـس مرسـييه Louis Mercier مؤلـف «لوحـة باريـس» Tableau de paris. ثـم انتقلـت الأسـرة بعـد ذلـك إلـى الهافـر ثانيـة، ومنـه ذهبـت إلـى بـوردو Bordeaux ومونبلييـه Montpellier ونيمـس Nimes ومارسـيليا Marseille وطولـون Toulon حيـث زار الفتـى سـجن المدينـة ممـا تـرك فـى نفسـه أثـرًا عميقًـا إذ شـاهد فيـه سـتة آلاف مـن المجرميـن المحكـوم عليهـم بالأشـغال الشـاقة وكانـوا يعيشـون عيشـة رتيبـة.. بـلا أمـل. وذهبـت العائلـة بعـد ذلـك إلـى جـزر هيـرى Hièrischen Inseln، ومـرت بليـون فـى طريقهـا إلـى سويسـرا. وبعـد أن جابـت العائلـة أنحـاء سويسـرا، ذهبـت إلـى فيينـا ثـم إلـى درسـدن. وأخيـرًا ذهبـت إلـى دانتسـيج حيـث شـهدت وطنهـا العتيـد؛ وعـادت فـى النهايـة إلـى هامبـورج فـى أوائـل سـنة ١٨٠٥ بعـد غيبـة بلغـت قرابـة العاميـن.

ومـن الواضـح أنـه انقضـت بهـذه الرحلـة سـنتين مـن سـنى الشـباب دون جـدوى بالمـرة، كان يمكـن لآرتـور اسـتخدامهما فـى الدراسـات واللغـات القديمـة. وظـل شـوبنهاور طـول حياتـه يفكـر فـى مـا إذا جـاءت



هـذه الرحلـة بثمـرة لصالحـه؛ وكثيـرًا مـا كان يقـارن بيـن مـا كسـبه منهـا، ومـا ضـاع عليـه بسـببها.

ويقـول شـوبنهاور إنـه قـام بهـذه الرحلـة فـى الفتـرة التـى بـدأت فيهـا لديـه يقظـة الرجولـة. وفـى هـذه الفتـرة تتفتـح النفـس البشـرية لمختلـف أنـواع الانطباعـات، وتتسـع لديهـا القـدرة علـى اسـتقبال الأشـياء وإدراكهـا. ولكـن شـوبنهاور لـم يكـن ـ كعادتـه ـ ليكتـرس بمجـرد الكلمـات الفارغـة، والأخبـار التافهـة عـن الأشـياء التـى لـم يكـن يعرفهـا مـن قبـل، بـل اسـتطاع ـ عـن طريـق إدراك الأشـياء، وبالمعرفـة الحقيقيـة، والمعرفـة المترتبـة علـى ذلـك، وعلـى حقيقـة مـا يعرفـه عـن الأشـياء مـن قبـل ـ اسـتطاع أن يتعـود مقدمًـا علـى أن لا يرضـى بأسـماء الأشـياء فحسـب، بـل أن يصـر علـى تأمـل الأشـياء وفحصهـا بنفسـه، ممـا انعكـس علـى حياتـه فـى المسـتقبل. وهكـذا لـم يزعجـه قيامـه بالرحلـة فـى ذاتها، ولكنهـا صارت خطـرًا مهددًا لمسـتقبله، ومدعـاة لقلقـه وشـكواه عندمـا عـاد إلـى هامبـورج، إذ كان عليـه أن يبـر بوعـده الـذى قطعـه علـى نفسـه لأبيـه بـأن يصبـح تاجـرًا.

وهكـذا تتلمـذ علـى أحـد تجـار هامبـورج، كان فـى الوقـت ذاتـه عضـوًا بمجلـس الشـيوخ. ولـم يكـن شـوبنهاور راضيًـا عـن دراسـته إذ كانـت طبيعته كلهـا ضـد التجـارة، بـل إنـه يعتـرف فـى كتاباتـه بأنـه لـم يكـن هنـاك مـن يفوقـه بـلادة فـى هـذه التلمـذة.

لقـد أهمـل الفتـى كل واجباتـه؛ ولـم يعـد يفكـر إلا فـى كسـب الوقـت الـذى يمكنـه أن يقضيـه فـى البيـت مـع الكتـب، أو يسـتمتع فيـه بالأفـكار والخيـالات. فقـد كان يخفـى فـى مكتبـه دائمًـا مجموعـات مـن الكتـب التـى كان يسـتمتع بقراءتهـا حالمـا غفلـت عنـه أعيـن الرقبـاء.

وحـدث فـى ذلـك الوقـت أن كان جـال Gall ـ المشـهور بأبحاثـه فـى الـرأس، والـذى وضـع الأسـس التـى قـام عليهـا علـم تكويـن الجمجمـة ـ كان يلقـى مجموعـة قيمـة مـن محاضراتـه فـى الديـن. وأراد آرتـور حضورهـا. ومـن ثـم، أخـذ يزيـن صـدر أسـتاذه يوميًـا بالـورود حتى يسـمح لـه بالذهاب لسـماع المحاضـرات.

وفـى هـذه الفتـرة بـدأ الشـعور بالخطـأ يسـتبد بآرتـور، وأحـس بيـأس عميـق مـن محاولـة إصـلاح غلطتـه إلـى حـد صـار معـه حـاد المـزاج، صعـب المـراس، شـديدًا علـى الآخريـن، وأصبـح يكـره العمـل الـذى أجبـر علـى القيـام بـه، واعتبـره أسـوأ أنـواع العبوديـة. وفـى هـذه الحالة النفسـية المضطربـة، ضربـه القـدر أعنـف ضربـة وأشـدها قسـوة.. ذلـك أن المـوت اختطـف أبـاه الحبيـب قبـل الأوان[١]. وبهـذه الوفـاة زادت حلكـة ظـلام عقلـه إلـى حـد أصبـح معـه قريبًـا جـدًّا مـن الإصابـة بالجنـون[٢].

ولـم تـك الأم تـدرى مـن شـئون التجـارة شـيئًا، بـل كانـت ترنـو إلـى الحيـاة الاجتماعيـة فحسـب. ومـن ثـم، انتقلـت إلـى فايمـار حيـث كانـت الحيـاة أكثـر مناسـبة لهـا. فقـد كانـت البـلاد تعانـى الكثيـر مـن الشـقاء إثـر واقعـة بينـا Jena. وكان الأهالـى يشـعرون بصنـوف شـتى مـن العـذاب والأسـى. ووجـدت السـيدة يوحنـه فـى هـذه الظـروف مجـالًا لتبـدى مـا كان منطبعًـا فـى نفسـها بالفطـرة مـن الطيبـة والعطـف ورقيـق السـجايا والأسـلوب الجـذاب فـى اسـتقبال النـاس. ومـا هـى إلا أيـام حتـى صـارت

---

(١) يبدو أنه مات منتحرًا.

(٢) وكانت جدته لأبيه قد ماتت مصابة بالجنون، وكان كل من عميه قد أصيبا بالجنون أيضًا.



دار السيدة يوحنه مركز حلقة فكرية تضم كثيرًا من مشاهير المفكرين وأعلام الأدب والعظماء من المعاصرين.

وعلى الرغم من أن آرتور أصبح ـ منذ توفى أبوه ـ سيد نفسه إلى حد ما، إذ لم تكن أمه تعارضه قط، إلا أنه ظل يقوم بعمله عند التاجر. وقد يكون ذلك لأن الحزن الشديد ـ كما يقول شوبنهاور ـ قد كسر حدة نشاطه الروحي؛ فضلًا عن أن ضميره كان يمنعه من أن يلغى قرارات أبيه بمجرد وفاته. وبالإضافة إلى هذين السببين، فثمة سبب جوهرى منعه من التحول مباشرة عن التجارة إلى الدرس ـ ذلك أنه كان يعتقد أنه بلغ سنًا يصعب معها تعلم اللغات القديمة.

وقضى قرابة عامين عند ذلك التاجر، فضاع العامان عليه أيضًا ضياعًا تامًا ولم يستفد منهما أدنى فائدة، بل ظل طوالهما يتعذب بذلك اليأس الذى يفوق كل احتمال.

وراحت الأم تبعث إلى ابنها فى هامبورج بالرسائل التى تصف له فيها الحياة فى فايمار على أنها الجنة. فما كان من الفتى إلا أن كتب لها كتابات مؤثرة يستدر عطفها وتستجلب شفقتها، بما كانت تحوى من وصف مرير للحياة التى يعانيها فى هامبورج. وقد بدا اللون القاتم بوضوح فى هذه الرسائل التى ضمنها شكاواه من الحوائل التى تقف فى طريق أهدافه فى الحياة، ومن ضياع جهده وشبابه عبثًا فى عمل تافه ـ وهو ضياع لا يعوض، ومن تقدم سنه إلى حد لم تعد تسمح له بأن يترك الطريق المختار لحياته ليبدأ مسلكًا جديدًا وطريقًا أخرى.

ووقعت خطاباته هذه فى يد كارل فرنوف Karl Fernow الذى كان أحد أصدقاء أمه المقربين إليها، والذى كان له عليها تأثير كبير؛ إذ



كان لـه أكبـر الفضـل فـى تشـجيعها علـى الكتابـة حتـى وصلـت فـى وقـت قصيـر إلـى مركزهـا الأدبـى المرمـوق.

وعلـى الرغـم مـن أنـه لـم يكـن يعـرف آرتـور، إلا أنـه رأى كتابـه الـذى اسـتثاره. فنصـح الأم بـأن تسـتدعى آرتـور إليهـا، وبعـث علـى الفـور إلـى الفتـى بخطـاب أوضـح لـه فيـه أن مـا ضـاع مـن الوقـت يمكـن تعويضـه. وأخـذ يضـرب نفسـه مثـلًا لذلـك، كمـا ضـرب أمثلـة أخـرى لإثبـات رأيـه، منها أمثلـة مـن أهـم العلمـاء الموجوديـن وقتـذاك. ونصحـه بـأن يلقـى كل شـىء وراء ظهـره، وأن يبـدأ دراسـة اللغـات القديمـة علـى الفـور.

وعندمـا قـرأ آرتـور ذلـك الخطـاب انهمـرت الدمـوع مـن عينيـه، واتخـذ علـى الفـور قـراره الحاسـم؛ فأنـذر صاحـب العمـل بأنـه سـيتركه. وذهـب إلـى فايمـار فـى أوائـل ١٨٠٧ وكان قـد جـاوز الثامنـة عشـرة مـن عمـره. وبنـاء علـى مشـورة فرنـوف ذهـب آرتـور علـى الفـور إلـى جوتـا Gotha حيـث قبـل تلميـذًا بالمدرسـة الثانويـة التـى كانـت مـن أشـهر المـدارس فـى ذلـك الوقـت. ولـم يسـتطع آرتـور أن يحضـر إلا الحصـص التـى كانـت تلقـى فيهـا الـدروس باللغـة الألمانيـة، وذلـك لجهلـه النسـبى باللغـات القديمـة. ولـولا عنايـة العالـم ديرنـج Doring مديـر المدرسـة بآرتـور؛ حيـث خصـه بحصتيـن يوميًـا لقنـه فيهمـا اللغـة اللاتينيـة وأصولهـا، لاسـتمر جهلـه بهـذه اللغـة شـديدًا، ولـم تمـض إلا فتـرة قصيـرة اسـتطاع فيهـا شـوبنهاور أن يثبـت تقدمًـا ملحوظًـا جعـل ديرنـج يتنبـأ لـه بأحسـن مسـتقبل.

وأثـر ذلـك النجـاح علـى الشـاب أكبـر تأثيـر، وانتشـله مـن وهـدة اليـأس التـى كان مترديًـا فيهـا، وجعلـه يتشـجع ويتقـدم مسـتمدًا مـن كل خطـوة



يخطوها أملًا جديدًا. وظل يمضى نحو هدفه بعزم جديد وإرادة قوية. إلا أن سوء الحظ أصابه من جديد ـ ذلك أنه لم يكن قد تعلم كيف يمتنع عن النكات الخطيرة؛ فقد هاجم الأستاذ شولتس Schultz المدرس بالمدرسة فى إحدى الصحف اليومية الشعبة التى كان آرتور يتبعها، وانتقد الدروس التى كانت تلقى فيها باللغة الألمانية. وساء الشاب أن يوجه الأستاذ انتقادات علانية كهذه إلى شعبته، فانتهز فرصة جلوسه إلى إحدى المناضد، ووجه الأستاذ بعض الانتقادات التى حشدها بالنكات. وقام بعض الزملاء بإبلاغ كل ما قاله الفتى للأستاذ. ونجم عن ذلك أن كف ديرنج عن إعطائه الدروس الخصوصية؛ وإن كان قد أكد له أنه فى الوقت الذى هو مضطر فيه للمحافظة على وعده، فإنه ـ ديرنج ـ مسرور إذ كان يعلمه. وأكد له أنه يرغب فى بقائه بالمدرسة على أن يتلقى الدروس الخصوصية فى مكان آخر. ولكن شوبنهاور لم يشأ أن يفعل ذلك، بل ترك جوتا فى نهاية الفصل المدرسى وذهب إلى فايمار حيث كان يقيم باسوف Passow الأستاذ بجامعة بريزلاو، فدرس عليه اللغتين اللاتينية واليونانية. ثم قصر بعد ذلك دروسه لديه على اللغة اليونانية، بينما راح يتلقى دروسًا فى المحادثة اللاتينية بالمدرسة الثانوية فى فايمار.

وضاعف الشاب جهوده، وراح يعمل فى دأب وجد ـ بدافع من تعطشه الشديد للمعرفة ـ على تعويض ما أضاعه من وقت فى ماضى حياته. وصار بخيلًا كل البخل بوقت فراغه، بينما لم يبخل قط بالمال فى إيجاد ما تحتاجه دراساته. وظل يجلس كل يوم إلى كتبه وأوراقه، كما لو كان يعمل من أجل الحصول على



لقمة عيشه وحاجاته الجسدية. ولم يعش شوبنهاور مع أمه، بل آثر أن يعيش مع باسوف ـ وفى نفس بيته ـ حتى يكون على الدوام قريبًا من أستاذه.

وكان أكثر ما يشغل به نفسه هو اللغات القديمة. وإلى جانب ذلك واصل دراسة الرياضيات والتاريخ عن طريق الكتب وحدها؛ حيث كان قد تلقى دروسًا فيها من قبل.

وعلى هذا النحو قضى شوبنهاور عامين فى فايمار صرح أساتذته بعدها أنه أصبح صالحًا للدراسة فى الجامعة. كذلك استطاع آرتور أن يصلح فى ثلاثة أعوام ونصف العام كل الخسارة التى نجمت عن انقطاعه عن دراسة اللاتينية، فقد وصل إلى مستوى يماثل غيره من الطلبة الآخرين فى الإلمام باللغات القديمة. وسرعان ما تفوق على أغلبهم بل على علماء اللغة أحيانًا. وإلى حد أمكنه معه الرجوع إلى كتب غاية فى القدم. وداوم على قراءة آثار المؤلفين الإغريق والرومان القدماء طوال مدة دراسته بالجامعة حيث خصص لها ساعتين يوميًا. وخرج من ذلك بعديد من المزايا؛ أولها أن ازداد محصوله من المعرفة بالآثار القديمة. وإلمامه تدريجيًا بروعتها وخصائصها التى أصبحت معروفة له تمامًا ـ عندما أتيحت له الفرصة ليرى فى إيطاليا مجموعة من الآثار الرائعة التى ترجع إلى أقدم عصور التاريخ، وأن يرى بنفسه أدق بقايا العصر الكلاسيكى، ويقف منها على روحها الغريبة. وهكذا تقدم أسلوبه تقدمًا كبيرًا، وتحسن كثيرًا كنتيجة طبيعية لقراءاته المستمرة لآثار المؤلفين القدماء، وخاصة أولئك الفلاسفة من الإغريق.

وأخيـرًا، فقـد حالـت هـذه القـراءة المتصلـة دون أن تتبخـر المعلومـات التــى جمعهــا مــن اللغــات القديمــة فــى ســرعة خاطفــة، بــل تعمقــت جذورهـا فـى نفسـه، إلـى حـد أنهـا لـم تخطـف قـط مـن ذاكرتـه بعـد كل تلـك الدراسـات المتعـددة والمختلفـة التـى حصلهـا بعـد ذلـك. ولـم يؤثـر اسـتخدامه للغـة الإيطاليـة فـى التعبيـر عـن نفسـه أحيانًـا.. لـم يؤثـر ذلـك فـى هـذه المعلومـات أو فـى طاقتـه فـى الكتابـة والـكلام باللغـة اللاتينيـة؛ حتـى أنـه كان يؤكـد دومًـا أنـه يسـتطيع أن يكتـب بهـا دون مسـاعدة غيـره، ودون أن يرسـل كتاباتـه إلـى برليـن أو يعرضهـا علـى أحـد ـ وإن كان يعـرف أنـه قـد يفشـل فـى الـكلام. ولكـن هـذا ـ إن حـدث ـ ليـس إلا دليـلًا علـى ضعـف البشـر ونقصهـم، لا دلالـة علـى جهلـه. فضـلا عـن أن هـذا أمـر غيـر مسـتبعد بالنسـبة لشـخص لـم يتعلـم إعـراب كلمـة «Mensa» إلا وهـو فـى السـنة التاسـعة عشـرة مـن عمـره.

وفـى نهايـة سـنة ١٨٠٩ عندمـا بلغـت بـه السـن مبلـغ الرشـد سـلمته أمـه ميراثـه الـذى يقـدر بثلـث الأمـلاك التـى تركهـا لهـم أبـوه. وكان مـا بقـى منـه فـى ذلـك الوقـت كافيًـا لضمـان العيـش لـه، فذهـب إلـى جامعـة جيتنجــن حيــث اجتــاز امتحــان القبــول فــى كليــة الطــب. وفــى الكليــة تعلـم كيـف يعـرف نفسـه، ودرس الفلسـفة دراسـة سـطحية؛ ولكنـه كـف عـن دراسـة الطـب، وقصـر كل جهـوده علـى الفلسـفة. ويـرى شـوبنهاور أن الوقـت الـذى قضـاه فـى دراسـة الطـب لـم يضـع عبثًـا، إذ أنـه لـم يسـتمع إلا للمحاضـرات التـى تفيـد الفيلسـوف بـل تعـد ضروريـة لـه. وثابـر خـلال العاميـن اللذيـن قضاهمـا فـى جيتنجـن علـى الدراسـة بـدأب متصـل كمـا تعـود مـن قبـل. وكانـت لديـه قابليـة خاصـة لدراسـة الموضوعـات العلميـة بحكـم سـن النضـج التـى بلغهـا والخبـرة التـى اكتسـبها، وطبيعتـه المختلفـة



تمامًا عن طبيعة الآخرين، مما كان يدفعه دائمًا إلى العزلة والوحدة. ورغم مواظبته على حضور المحاضرات، فقد كرس كثيرًا من الوقت لقراءة الكتب التى كان يفضل منها ما كتبه أفلاطون وكانت.

وفى خلال هذين العامين حضر محاضرات ج.أ. شولتسز G.E.Schul-zes عن المنطق والميتافيزيقا وعلم النفس، ومحاضرات تيباوت Thibaut فى الرياضة البحتة، ومحاضرات هيرين Heeren فى التاريخ القديم وتاريخ الحروب الصليبية وعلم السلالات البشرية، ومحاضرات ليدير Lüder فى تاريخ الإمبراطورية الألمانية، ومحاضرات بلومنباخ Blumen-bach فى العلوم الطبيعية والمعادن ووظائف الأعضاء والتشريح المقارن، ومحاضرات همبل Hempel فى تشريح الجسم الإنساني، ومحاضرات شترومايير Strohmeier عن الكيمياء، ومحاضرات طوبياز مايير Tobias Maier عن علوم الطبيعة والفلك الطبيعي، ومحاضرات شرادر Schrader عن علم النبات ـ وكلهم من الأساتذة الممتازين.

وفى خريف ١٨١١ ذهب إلى برلين حيث قبلوه فى جامعتها، وحاول بكل القوى أن يربى روحه وعقله على أيدى الأساتذة المشهورين الذين تزخر بهم هذه الجامعة. وهكذا سمع محاضرات فولف Wolf عن الشعراء الإغريق والرومان وعن آثار الإغريق وتاريخ أدب الإغريق، ومحاضرات شلايرماخر Schleiermacher عن تاريخ الفلسفة. وسمع بمتعة كبرى المحاضرات العامة التى كان إرمان Er-man يلقيها عن المغناطيسية والكهربية. وفضلًا عن ذلك حضر ثلاثة فصول دراسية أخرى سمع خلالها محاضرات ليشتنشتاين Liechten-stein عن علم الحيوان، ومحاضرات أخرى فى الكيمياء كان يلقيها

كلابـروت Klaproth، كمـا حضـر محاضـرات فيشـر Fischer عــن العلـوم الطبيعيـة، ومحاضـرات بـوده Bode عـن الفلـك، ومحاضـرات فايـس Weiss عـن علـم تركيـب الأرض Geognosy ومحاضـرات هـوركل Horkel عـن علـم وظائـف الأعضـاء العـام ومحاضـرات روزنتـال Rosenthal عـن تشـريح المـخ البشـري. واسـتفاد شـوبنهاور الكثيـر مـن المزايـا العظيمـة التـى اتصـف بهـا هـؤلاء الأسـاتذة الكبـار. كمـا تتبـع بانتبـاه محاضـرات فيشـته الفلسـفية؛ وحـدث ذات مـرة أنـه جـادل فيشـته طويـلًا فـى إحـدى النـدوات التـى كان مسـتمعوه يقيمونهـا لـه.

وكان مـن المقـرر أن يقضـى شـوبنهاور عاميـن آخريـن فـى برليـن لـولا مشـاكل الحـرب التـى اضطرتـه للخـروج مـن المدينـة فـى الفصـل الدراسـى الأخيـر مـن سـنة ١٨١٣، وهـو أمر سـبب لـه الكثير مـن المتاعـب؛ إذ بدلًا من إكمالـه دراسـته بالطـرق العاديـة للحصـول علـى درجـة الدكتـوراه مـن كليـة الفلسـفة بجامعـة برليـن، اضطـر إلـى البحـث فـى طريقـة أخـرى لتقديمهـا مـن خـارج برليـن. ولمـا كان علـى صـلات طيبـة مـع ليشتنشـتاين فقـد أخبره بالشـروط والاحتياجـات المطلوبـة لعملـه؛ وهـى وضـع بحث«حـول الجـذر الرباعـى لمبـدأ العلـة الكافيـة»، وأن يكـون أسـلوب البحـث علـى مسـتوى عـال فـى اللغـة الألمانيـة.

ولمـا كانـت نتائـج معركـة ليتـزن Lützen غيـر مؤكـدة؛ فإن مدينـة برلين بـدت فـى عيـن شـوبنهاور مهـددة، وخاصـة أن معظـم أهاليهـا خرجـوا إلـى فرنكفـورت أو بريـزلاو. أمـا هـو فقـد فضـل أن يذهـب نحـو العـدو فمضـى إلـى دريـزدن حيـث بلغهـا فـى اليـوم الثانـى عشـر مـن رحلتـه هـذه التـى مـر فيهـا بعـدة أحـداث ومخاطـر. وقـرر شـوبنهاور أن يبقـى هنـاك، ولكنـه أدرك الأخطـار الوشـيكة الحـدوث فـى هـذه المدينـة فذهـب إلـى فايمـار.



وفـى هـذه المدينـة أقـام فتـرة فـى مسـكن أمـه، إلا أنـه اسـتاء مـن الظـروف السـكنية المحيطـة بـه إذ كان يـرى أمـه مسـرفة غايـة الإسـراف، فـإذا مـا نصحهـا بالاقتصـاد فـى مصروفهـا انقلبـت عليه وقـام الشـجار بينهما.

كذلـك كان لـه صديق يدعـى فريدريش موللـر Friedrich Muller يقطن فـى البيـت المجـاور لهـم. وكثيـرًا مـا كان يـدب الشـجار بيـن آرتـور وصديقـه نظـرًا للاختـلاف الكلـى فـى تفكيـر كل منهمـا، وكانـت أمـه تتدخـل دائمًـا فـى هـذا النـزاع. وتشـتد حمـى الصـراع بيـن الابـن وأمـه إذ كانـت تـرى أنـه شـخص لا يحتمـل، وعـبء ثقيـل لا يطـاق، وأن الحيـاة معـه صعبـة إذ تظلـل صفاتـه الطيبـة غـروره ونزعتـه إلـى تعقـب عيـوب الآخريـن. وبالإضافـة إلـى ذلـك، فـإن آرتـور لـم يعجبـه مسـلك أمـه الشـخصى، وعلاقاتهـا بالرجـال؛ فقد كان النـاس يتحدثـون عـن ذلـك فـى كل مـكان، وكانـوا ينظـرون إلـى علاقتهـا بجيتـه فـى غيـر ارتيـاح إذ كان الشـاعر الكبيـر يميـل إلـى البقـاء إلـى جوارها بدافعيـن: أحدهمـا ميلـه العاطفـى نحوهـا، والثانـى أنهـا كانـت تسـمح لـه باحضـار عشـيقته كريسـتنه معـه إلـى بيتهـا. وزاد الأمـر سـوءًا عندمـا قـال جيتـه لهـا أن ابنهـا سـيصبح رجـلًا مشـهورًا، ولـم تكـن السـيدة قـد سـمعت بوجـود عبقريتيـن فـى أسـرة واحـدة.

وأخيـرًا عمـدت الأم ـ فـى نـزاع شـديد نشـب بينهمـا ـ إلـى دفـع ابنهـا ومزاحمهـا مـن فـوق الـدرج. وهنـا قـال لهـا الفيلسـوف فـى مـرارة إنهـا لـن تكـون معروفـة إلا عـن طريقـه.

وقـرر شـوبنهاور أن يبحـث عـن مـأوى آخـر فذهـب إلـى رودول شـتات حيـث قضـى بقيـة السـنة فـى أحـد الفنـادق الصغيـرة. ولكنـه اسـتراح لهـذا

الفنـدق، واعتبـره أكثـر أماكـن الإقامـة ملائمـة لرجـل ضـال بـلا وطـن فـى تلـك الأيـام العصيبـة القلقـة. هـذا فضـلًا عـن أنـه كان وقتـذاك يعانـى تعبًـا ذهنيًـا عميقًـا، بـل كان فـى حالـة يـأس قاتـل، وخاصـة أنـه رأى حياتـه تنهـار مـرة واحـدة؛ وهـذا يتطلـب طاقـات أخـرى لـم يجـد لهـا فـى نفسـه أثـرًا. إلا أنـه فـى عزلتـه فـى رودلشـتات رأى الكثيـر مـن الأمـور التـى تجـذب الانتبـاه وتأسـر النفـس فـى ذلـك الإقليـم. ولمـا كانـت طبيعتـه لا تتفق مـع كل ما هو عسـكرى، فقـد كان سـعيدًا للغايـة بـأن الـوادى الـذى تحيـط بـه مـن جميـع جوانبـه الجبـال المغطـاة بالغابـات ـ لا يمكـن أن يـرى فيـه جنديـاً واحـدًا أو يسـمع فيـه دق الطبـول. وهكـذا قضـى معظـم وقتـه فـى عزلـة تامـة، ولـم يكـن هنـاك مـا يسـتثير انتباهـه أو يقطـع عليـه بحثـه. أمـا الكتـب، فكانـت فـى متنـاول يـده فـى مكتبـة فايمـار.

وهكـذا أتـم شـوبنهاور بحثـه «حـول الأصـل الرباعـى للعلـة الكافيـة»، الـذى يعتقـد أنـه ليـس إلا مقدمة وتمهيـدًا لكتابـه «العالـم.. إرادة وتخيل».

قـال إنـه ينبغـى أن يقـرأ رسـالة «عـن الأصـل الرباعـى للعلـة الكافيـة» حتـى يفهـم عملـه الرئيسـى «العالـم.. إرادة وتخيـل».

ويمكننـا أن نذكـر هنـا فـى إيجـاز أن «مبـدأ العلـة الكافيـة» إنمـا هـو «قانونـى المسـبب (السـبب) والمسـبب (الأثـر أو النتيجـة)» فـى أول أربـع صـور هـي:

أولًا: صورة منطقية مثل حتمية بلوغ النتيجة عن طريق الهدف.

ثانيًـا: صـورة طبيعيـة مثـل حتميـة الوصـول إلـى المسـبب (النتيجـة) عن طريق المسـبب (السـبب).



ثالثًـا: صـورة رياضيـة مثـل حتميـة إيجـاد كيـان عـن طريـق القوانيـن الرياضيـة والميكانيكيـة.

رابعًا: صورة أخلاقية مثل حتمية إيجاد السلوك عن طريق الشخصية.

وظـل الأمـل يـراوده دائمًـا فـى العـودة إلـى برليـن حيـث كان يريـد أن يقـدم البحـث وينـال الدرجـة. ولكـن الأمـور لـم تسـر علـى هـذا النحـو لأن الطـرق المؤديـة إلـى برليـن لـم تكـن خاليـة مـن الجنـود ـ سـواء فـى أثنـاء الهدنـة أو خـلال الحـرب التـى تلتهـا. وعلـى الرغـم مـن أن درجـة الدكتـوراه كانـت ذات نفـع كبيـر لـه وقتـذاك، إلا أن العوائـق بـدت كثيـرة فـى طريقـه؛ فكتـب إلـى كليـة الفلسـفة بجامعـة يينـا، وأرسـل إليهـا البحـث، فمنحتـه الكليـة علـى الفـور درجـة الدكتـوراه فـى الفلسـفة تفضـلًا منهـا.

ومـع بدايـة فصـل الشـتاء الـذى بـدا لـه حزينًـا جـدًّا، وهـو فـى ملجـأه المنعـزل الـذى صـار وقتـذاك مهبـط الجنـود هـو الآخـر، عـاد الدكتـور شـوبنهاور إلـى فايمـار حيـث قضـى فصـل الشـتاء كلـه.

وفـى هـذه الفتـرة تعـرف علـى جيتـه، الـذى كان شـوبنهاور يعتبـره أعظـم رجـل فـى القـرن التاسـع عشـر وأعظـم رجـل أنجبتـه الأمـة الألمانيـة. وقـال إن اسـمه سـيظل مـلء الأفـواه فـى جميـع العصـور، وأكـد أن تعرفـه بجيتـه يعتبـر عـزاء لـكل العنـاء الـذى لاقـاه. ويعـده أسـعد الأحـداث التـى مـرت بحياتـه وأكثرهـا إمتاعًـا ـ ذلـك أن جيتـه اعتبـره جديـرًا بصداقتـه وبصحبتـه الخاصـة. ولـم يكـن جيتـه يعـرف شـوبنهاور حتـى ذلـك الوقـت إلا بمنظـره فحسـب، ولـم يكـن مـن عادتـه أن يوجـه إلـى شـوبنهاور كلمـة واحـدة؛ حتـى إذا مـا قلـب صفحـات البحـث الـذى وضعـه للدكتـوراه جـاء

إليـه بمحـض إرادتـه وسـأله إذا ما كان مسـتعدًا لدراسـة نظريتـه ـ نظرة جيته ـ فـى الألـوان. وقـد وعد جيته شـوبنهاور بتقديم كل مسـاعدة لبيـان وتوضيح هـذا الموضـوع الـذى كان يمكـن أن يقضيـا فصـل الشـتاء فـى المناقشـات حـول فكرتـه. وقـد يوافـق شـوبنهاور مـن آرائـه البعض، وقـد يعـارض بعضها. وبعـد بضعـة أيـام أرسـل جيتـه لشـوبنهاور جهـازًا وبعـض الآلات الضروريـة التـى كان يسـتعملها فـى إنتـاج المظاهـر اللونية؛وقـام جيته بنفسـه بعد ذلك بأشـق التجـارب. وسـره أبلـغ مـا سـره أن عقـل شـوبنهاور لـم يكـن مشـغولًا بشـىء قـط، وأنـه وافقـه علـى نظريتـه. ومنـذ ذلـك الوقـت وطـوال فصـل الشـتاء كان شـوبنهاور يتـردد علـى جيتـه. ولم تقتصـر المناقشـات التى دارت بينهمـا علـى نظريـة الألـوان؛ بـل دارت حـول كثيـر مـن المسـائل الفلسـفية، وكانـت المسـاجلات تسـتمر بينهمـا سـاعات طويلـة. ويعلـق شـوبنهاور علـى نتائـج هـذه المعرفـة الوثيقـة مـع جيتـه بأنهـا كانـت ذات «فائـدة عظمـى بدرجـة لا تصـدق».

ومـع بدايـة ربيـع سـنة ١٨١٤، وبعـد أن اسـتقر السـلام العام ذهـب آرتور إلـى دريـزدن لمتابعـة دراسـاته ومعرفـة المنهـج الفلسـفى بصفـة خاصـة مما كان يشـغل ذهنـه فـى ذلـك الوقـت. واسـتفاد شـوبنهاور مـن مكتبـة دريزدن الفنيـة، كمـا شـاهد معـرض الصـور المشـهور فـى المدينـة، ومجموعـة الصور القديمـة، وبعضهـا أصيـل وبعضهـا منقـول علـى الجـص ـ وأخيـرًا رأى الجهـاز العلمـى الطبيعـى البديـع. وعـاش فـى تلـك المدينـة اللطيفـة خمسـة أعـوام ونصـف العـام دون أن يقلقـه أو يزعجـه شـىء سـوى الانشـغال بالبحـث العلمـى المتعـدد الفـروع، وقـراءة كل أعمـال الفلاسـفة الذيـن وجـدوا فـى هـذه الحيـاة.. أولئـك الذيـن قدمـوا آراءهـم، لا أولئـك الذيـن اكتفـوا بـأن فسـروا مـا فكـر فيـه غيرهـم ثـم كـرروه.

ومـن خـلال هـذه الدراسـات كلهـا، فكـر فـى سـنة ١٨١٥ فـى نظريـة جديـدة للألـوان. وممـا لا شـك فيـه أنـه وجـد أن جيتـه لـم يكتشـف روح وتكويـن مـا يسـمى بالألـوان العضويـة فحسـب، بـل علـى العكـس مـن ذلـك لـم يقـدم أيـة نظريـة عامـة للـون؛ فهـى فـى رأيـه أبعـد مـا تكـون عـن النظريـات الطبيعيـة أو الكيميائيـة بـل مجـرد نظريـة خاصـة بعلـم وظائـف الأعضـاء.

وجـرت المحادثـات بيـن جيتـه وشـوبنهاور، وتبـادلا الرسـائل عامًـا كامـلًا حـول هـذه النظريـة الخاصـة باللـون التـى أرسـلها شـوبنهاور مخطوطـة إليه؛ ولكـن الرجـل العظيـم (جيتـه) رفـض إطراءها، وإن لـم يعارض شـوبنهاور قط فيمـا وصـل إليـه ـ ذلـك أن نظريتـه كانت نقيـض نظريـة نيوتن تمامًـا؛ ولكنها كذلـك لـم تكـن تتصـل بنظريـة فـى بعـض خصائصهـا. «ولكـن الحـدس» ـ كمـا يقـول Bacon مـن فيريـولام Verulam ـ «لا يكـون مـن الضـوء الجـاف بـل يتأثـر بـالإرادة والمؤثـرات». وقـدم شـوبنهاور هـذا البحـث عـن «الإبصار والألـوان» للجمهـور فـى سـنة ١٨١٦ دون أن يشـك فـى أنـه أول مـن وافـق جيتـه. هـذا فضـلًا عـن أنـه كان واثقًـا ومقتنعًـا تمامًـا بـأن النظريـة قـد نمت مـن هنـاك، وأنهـا النظريـة السـليمة الوحيـدة؛ حتـى أنـه كان يعتقـد أنـه لـن يمضـى وقـت طويـل حتـى يتـم الاعتـراف بهـا، ويؤكـد أنـه لا الصمـت فـى حقـد ولا الإنـكار المسـتمر يمكـن أن يحـول دون الحقيقـة، أو أن يكبتهـا. ويسـتند فـى ذلـك إلـى العبارة التـى قالهـا الليفيون مـن «أن موقـف الحقيقة غالبًـا مـا يكـون صعبًـا، ولكنهـا لا يمكـن أبـدًا أن تتحطـم».

وأخيـرًا انتهـى شـوبنهاور فـى سـنة ١٨١٨ مـن نظريتـه الفلسـفية التـى دأب علـى العمـل فيهـا قرابـة خمـس سـنوات. ووضح فيه نفسـه كليـة بحيث صـارت أعمالـه الأخـرى «مجـرد تعليقـات عليـه».



وفـى ٢٨ مـارس مـن ١٨١٨ قـدم شـوبنهاور للناشـر ف. أ. بروكهـاوز F.A Brockhausمؤلفـه «العالـم إرادة وتخيـل» Die Welt als Wille und Vor- stellung وذلـك بخطـاب نثبـت فـى الصفحـة التاليـة الترجمة الكاملـة لنصه.

من شوبنهاور إلى ف. أ. بروكهاوز
عن الجزء الأول من «العالم ـ إرادة وتخيل»

لما كان السيد فون بيدينفيلت Hr.v.Biededfeld قد قال لى إنك ـ بناء على استفسار سابق ـ ليس لديك مانع من طبع كتاب لى، فإنى آخذ لنفسى الحرية فى أن أوضح لك ـ على نحو أكثر تفصيلًا ـ ما سبق الكلام عنه.

فإنى أود أن أنشر قبل عيد ميلاد القديس ميخائيل القادم عملًا فلسفيًا ظللت أداوم العمل فيه دون انقطاع منذ أربعة أعوام. وإنى ككاتب أرى أنه ليس من اللائق قط من ناحية ـ أن أسلك طريقًا متواضعًا نحو الناشر، ومن ناحية أخرى ليس من الصواب بحال أن أسلك طريق النفاق. ولذلك أتحدث هنا بكل صراحة عما يحتويه الكتاب الذى أرى أنك قد تهتم به. ولكنى فى نفس الوقت أستمسك بوعدك ـ وعد الرجل الشريف ـ أن تلتزم إزاء كل ما يرد ذكره هنا، حتى عنوان الكتاب الذى لن يعرفه أحد قبل نشره فى قائمة الكتب. والآن.. كتابى يتناول منهجًا فلسفيًا جديدًا، ولكن ليس بكل ما تعنيه هذه الكلمة تمامًا. فعملى ليس عرضًا جديدًا لشيء موجود فعلًا،



وإنما هو خط من التفكير ـ مترابط إلى أسمى درجة ـ لم يرد على ذهن بشر من قبل. وسيكون هذا الكتاب وفقًا لرأيى الوطيد ـ بما تجشمت فيه من صعوبة إعلام الآخرين بما هو مفهوم ـ واحدًا من تلك التى تعد مصدرًا وفرصة فيما بعد ظهور مئات الكتب الأخرى. ولقد كان هذا الخط من الأفكار ـ من حيث المبدأ ـ حاضر فى ذهنى، من أربعة أعوام مضت. ولكن تنميته وجعله واضحًا كل الوضوح أمام نفسى، تطلب منى قضاء أربعة أعوام كاملة شغلت نفسى خلالها به وبدراسة الكتب الأجنبية التى تمت إليه بصلة. ولقد بدأت منذ عام فى توضيح كل هذا للآخرين فى عرض مترابط. وهذا العرض فى ذاته هو بنفس الطريقة أبعد ما يكون عن الطنطنة والكلمات الفارغة التى لا معنى لها مما تحفل به المدرسة الفلسفية الحديثة، كما أنه بعيد كل البعد عن العبارات المطاطة المتراخية التى كانت سائدة قبل «كانت»؛ فعبارتى مفهومة واضحة إلى أسمى درجة، ولكنها فى نفس الوقت حيوية، ويمكننى أن أقول إنها ليست خالية من الجمال؛ فصاحب الأفكار الأصلية لا يكون إلا صاحب أسلوب أصيل، أما القيمة التى ضمنتها عملى فعالية جدًّا، حتى أنى أعتبره كل ثمرة وجودي؛ فإن الانطباعات التى يتركها العالم على روح الفرد وفكره، والتى تتشكل لتنفعل مع الروح تظل باقية دائمًا بعد اكتمال سن الثلاثين. وهذا ما حدث فعلًا؛ أما ما يجىء بعد ذلك بعد ذلك فليس سوى تنمية لها. وإذا كان هذا الانفعال وهذا الفكر ـ الذى يتكرر يوميًا مع ملايين الأفراد ـ يختلف عند الرجل العام عن ذلك الذى هو فى الحقيقة أكثر أصالة، فكذلك يكون العمل ـ الذى ينطبق بكل ذلك، ويدعنا نشترك فيه على نحو كامل ـ يمكن على الفور أن يكون تامًا حالما

يسمح القدر بالفراغ له، وبالهدوء الداخلى والخارجي. والآن، هذه الحال حدثت لى فيما أعتقد، فلو أنى إذن طبقًا للقيمة التى ضمنتها عملى وجعلتها مقياس طلبى منك لكانت شيئًا يفوق الطاقة كثيرًا، وحتى لو أنى جعلت طلبى طبقًا للقيمة التى ستكون لعملى بالنسبة للناشر فى رأيى لجاءت عالية جدًّا أيضًا. وهذا أيضًا لن أفعله إذ أننى لن أستطيع أن أطلب إليك أن تصدق كل ما أقوله لك، ولكن يجب طبعًا أن تشك فى أنى ارتشيت من حبى لنفسى. وعلى فرض ذلك فإنى مستعد أن أبدأ باعتبار أن اسمى لا يزال غير مشهور حتى الآن، وأن العمل الفلسفى طالما أنه لم يصل إلى الشهرة فلن يجد جمهورًا كبيرًا فى أول الأمر ـ وإن كان يجد جمهورًا أكبر فيما بعد. وعلى هذا الأساس يقوم المطلب التالى البسيط للغاية.

عنوان الكتاب هو«العالم ـ إرادة وتخيل» لآرتور شوبنهاور وبه ملحق يحتوى على انتقادات لفلسفة «كانت» «Die Welt als Wille und Vorstellung von Arthur Schopenhauer, nebst einem Anhang, der die Kritik der kantischen philosphie enthâlt»

ويقع الكتاب ـ طبقًا لتقديرى إذا طبع ـ كما أحب ـ بحيث تضم الصفحة ما لا يزيد على ٣٠ سطرًا فى ٤٠ ورقة من الحجم الكبير. وقد تتلقى منى ثلثى الكتاب فى منتصف يوليو ـ لا قبل ذلك ـ لأنه على الرغم من كونه معدًا حاليًا ـ إلا أنى أود أن أنسخ منه نسخة جديدة، أدخل فيها الكثير من التعديلات فى العرض. أما الثلث الباقى، فتتلقاه فى شهر سبتمبر على الأقل. وعليك أن تباشر فى عيد ميلاد القديس ميخائيل بطبعه فى أناقة على ورق جيد وبحجم كبير وبحروف واضحة، ولقد وعدتنى فى العقد بأن تطبع منه ثمانمائة

نسخة على الأقل، وأن النية معقودة لديك على إعادة طبعه بعد ذلك طبعة ثانية. ولقد وعدتنى بشرفك وذمتك أن تراجع وتصحح بدقة وعناية كل ورقة ثلاث مرات قبل طبعها نهائيًا، وأن تكلف رجلًا متعلمًا ـ أوافق عليه ـ ويكون المخطوط الأصيل بيده بإجراء المراجعة الأخيرة عليه، وستدفع لى قطعة ذهبية واحدة من العملة «دوكات» عن كل ورقة مطبوعة، ويكون الدفع فور تسليمى المخطوط؛ إذ أنى سوف أسافر ـ حال ذلك ـ إلى إيطاليا فى تلك الرحلة التى أجلتها عامين كرستهما لهذا العمل. وأخيرًا ستسمح لى بعشر نسخ على ورق جيد.

ولا يمكننى أن أرسل ذلك المخطوط لتطلع عليه لأن أحد سواى لا يستطيع قراءته الآن ـ هذا من ناحية ـ أما الناحية الأخرى، فلأنى لا أفرط فيه طالما أنه لا توجد لدى نسخة أخرى، وأخيرًا لأنى أيضًا مشغول به باستمرار.

وأرجو أن يصلنى منك دونما تأخير ـ ردك الكريم الحاسم، إذ أنه فى حالة ما إذا لم تقبل عرضي، فقد طلبت من بعض المسافرين إلى ليبتسيج أن يبحثوا لى عن ناشر فى السوق هناك.

ويبدو أن السيد فون بيدينفيلت قد كتب إليك يقول إنى أريد أن أقدم مادة «اللون» لدائرة المعارف Konversation slexikon، ولكن هذا خطأ تمامًا فأنا لا أفعل مثل ذلك العمل. ولكن كل ما قبلته هو أنه إذا كتب مستر فون بيدينفيلت تلك المادة بنفسه فسوف أقرؤها وأصححها، كما فعلت للأستاذ فيشينوس Ficinus فى مادته التى كتبها عن «اللون» فى قاموس بيرش Pierschen Wörterbuch.

ولقد تفضلت فى الخريف الماضى، فعرضت علىَّ قطعتين من

العملـة الذهبيـة مقابـل كل صفحـة للمقـالات التـى تنشـر فـى صحيفـة الفـن Kunstblatt إلا أن هـذا الأمـر لـم أسـتطع القيـام بـه؛ إذ أننـى لا أكتـب للصحـف أو المجـلات إطلاقًـا.

وأود أن أكـرر هنـا مـا أبديـت مـن أنى لـن أوافق علـى تسـليم المخطوط قبـل الزمـن الـذى حددتـه مـن قبـل، والكمـال الـذى أنشـده لعملـى يحـول دون ذلك.

وتقبلوا أسمى احترامى..

دريزدن فى ٢٨ مارس ١٨١٨

آرتور شوبنهاور

* * *

ووافـق الناشـر علـى مـا جـاء فـى خطـاب شـوبنهاور، فتـم بذلـك الاتفـاق بينهمـا علـى طبـع الكتـاب الـذى ظهـر فعـلًا فـى شـهر ديسـمبر فـى نفـس السـنة. وكان شـوبنهاور شـديد الثقـة بأنـه ـ بهـذا العمـل ـ قـد حـل المسـائل الرئيسـية فـى الفلسـفة إلـى حـد أنـه فكـر فـى أن يجعـل لنفسـه خاتمًـا ينقـش عليـه صـورة أبـى الهـول وقـد ألقـى بنفسـه فـى هـوة سـحيقة؛ إذ كان أبـو الهـول قـد أخـذ علـى نفسـه أن يفعـل إذا اسـتطاع أمـرئ أن يحـل لغـزه الغامـض(١). وبالرغـم مـن ذلـك، لـم يسـترع الكتـاب انتبـاه أحـد؛ إذ

(١) المقصود بأبى الهول هنا ذلك الحيوان الخرافى الذى نسجت من حوله الأساطير الإغريقية، فجعلته يخرج للناس عند مدخل المدينة. ويطلب منهم حل لغز غامض هو سؤاله عن ذلك الذى يسير فى أول النهار على أربع، وإذا ما انتصف النهار وتوسطت الشمس كبد السماء سار على اثنين، فإذ ما مالت الشمس للمغيب سار على ثلاث. وكان أبو الهول يقتل أولئك الذين لا يتوصلون إلى حل لغزه حتى إذا



كان العالـم غايـة فـى الفقـر والإمـلاق، وغايـة فـى الإنهـاك ـ إلـى حـد لا يسـتطيع معـه قـراءة شـىء عـن فقـره وإنهاكـه.

وقـد تأكـد هـذا لشـوبنهاور بعـد سـتة عشـر عامًـا مـن نشـر الكتـاب، إذ علـم مـن الناشـر أن معظـم نسـخ هـذا الكتـاب قـد بيعـت بالأقـة. وكان ذلـك مبعثًـا لأن يضمـن مقالـه عـن «الشـهرة» الـذى نشـره فـى كتابـه «حكمـة الحيـاة» عبارتيـن تشـيران إلـى كتابـه الرائـع، نقلهمـا عـن ليشـتنبرجر Lichtenbeger وهمـا:

«إن الأعمـال التـى علـى هـذا المنـوال تبـدو مثـل المـرآة، لـو أطـل فيهـا حمـار فـلا تنتظـر أن تنعكـس علـى صفحتهـا صـورة مـلاك؟».

«وعندمـا يصطـدم رأس وكتـاب، فيـرن أحدهمـا رنينًـا أجوف، فهـل ينبعث ذلـك الرنيـن دومًـا من الكتـاب؟!».

ويمضــى شــوبنهاور يقــول وكأنمــا يريــد الانتقــام لكرامتــه المهــدرة وكبريائــه الجريــح:

«كلمـا زاد انتمـاء الإنسـان إلـى الإنسـانية بصفـة عامـة، ازداد غربـة عـن معاصريـه لأنـه طالمـا لـم يـك عملـه قاصـرًا عليهـم، بـل كان يقصدهـم بـه باعتبارهـم جـزءًا مـن البشـرية عامـة فلـن يكـون فـى هـذا العمل ذلـك اللون المحلـى المألـوف الـذى يسـتهويهم.

ثـم يصيـح بفصاحـة الثعلـب فـى تلـك الأسـطورة الخرافيـة ـ عندمـا

ما مر به أوديب، تكشف له الأمر وحل اللغز إذ أيقن أنه يشير إلى الإنسان الذى يزحف بعد ميلاده على يديه ورجليه، فإذا ما شب سار على رجليه وحدهما، حتى إذا ما بلغ من الكبر مبلغًا راح يستعين بعصى يتوكأ عليها. وهنا لم يسع أبو الهول إلا أن يلقى بنفسه فى هوة سحيقة ليريح العالم من نفسه.

يقول:«هـل يزهـو موسـيقى بالثنـاء والتصفيـق المـدوى الـذى يقابلـه بـه جمهـور إذا مـا عـرف أن هـذا الجمهـور ليـس إلا أصـم، وأن هـذا الجمهـور عمـد إلـى إخفـاء دائـه بـأن قلـد واحـدًا أو اثنيـن مـن المسـتمعين وهمـا يصفقـان؟! ومـا رأى هـذا الموسـيقى إذا علـم أن الـذى صفق أو اللـذان صفقا قـد ارتشـيا لإثـارة أكبـر استحسـان لأضعـف عـازف؟!».

وهكـذا يتولـد الغـرور والإعجـاب بالـذات عنـد بعـض النـاس كتعويـض عن نقـص الشـهرة، وقـد يعـاون عنـد البعـض الآخـر علـى إيجـاد هذه الشـهرة.

وعلـى أيـة حـال، فقـد شـرع شـوبنهاور فـى رحلتـه التـى كان يعتـزم القيـام بها للاسـتجمام، بمجـرد تسـليمه أصـول الكتـاب للناشـر. وذهـب إلـى إيطاليـا عـن طريـق فيينـا Wien ورأى مدينـة البندقيـة Venizia وبولونيـا Bologne وفلورنسـا Florenza. وأخيـرًا وصـل إلـى رومـا حيـث ظـل فيهـا قرابـة أربعـة شـهور، واسـتمتع بمشـاهدة الآثـار القديمـة والأعمـال الفنيـة الحديثـة. وبعـد ذلـك قصـد Napoli، وأعجـب بآثـار بومبـى Pompeji والهيركولانـوم Herculanum، وبوتيولـى Puteoli وبايـا Bajâ وكومـا Cumâ. وذهـب بعـد ذلـك إلـى بيسـتوم Pâstum حيـث فكـر ـ وهـو علـى مـرأى مـن المعبـد القديـم فـى مدينـة بيسـتوم ـ فكـر أن هـذا المعبـد شـهد ٢٥ قرنًـا مـن الزمـن، وهـو يثيـر فـى النفـس احترامـه، وفـى أنـه ربمـا كان هـو ـ شـوبنهاور ـ وقفـا علـى الأرض التـى دب عليهـا أفلاطـون بقدميـه. وبعـد أن قضـى شـهرًا فـى فلورنسـا زار البندقيـة مـرة أخـرى. ثـم ذهـب إلـى بـادوا Padua وفيشتسـا Vicenza وفيرونـا Verona وميلانـو Milano. وأخيـرًا دخـل سويسـرا عن طريق ممـر سـان جوتهـارت St.Gothardt-Berg. وبعـد أن قضـى أحـد عشـر شـهرًا فـى التجـوال عـاد إلـى درزدن مـرة

أخـرى فـى أغسـطس سـنة ١٨١٩ دون أن يـزور اللـورد بايـرون فـى مدينـة البندقيـة، وكان يحمـل معـه رسـالة توصيـة مـن جيتـه إلـى اللـورد بايـرون. كذلـك لـم يـر ليوبـاردى فـى رومـا رغـم أنـه يقـول إن كلًا مـن روحيهمـا العظيمتيـن ذات صلـة وارتبـاط بـه.

وفـى هـذه الآونـة راودتـه فكـرة عابـرة، سـرعان مـا سـيطرت عليـه، فراح يعمـل علـى تنفيذهـا علـى الفـور. كان يريـد خلـق مركـز لـه فـى الحيـاة العلميـة الأكاديميـة حتـى يتـاح لنظريتـه انتشـارًا أوسـع. ومـن ثـم قـام باتصـالات واسـعة فـى هيدلبـرج Heidelberg وجيتنجـن Göttingcn وبرلين Berlin. وبعـث إلـى جامعـة برليـن برسـالته التى تعد مـن المراجع الرئيسـية الباقيـة لنـا عنـد تسـجيل الفتـرة الأولـى مـن حياتـه. وفـى هـذه الرسـالة يعـرض علـى الجامعـة أن يلقـى محاضـرات فلسـفية فـى كليـة الفلسـفة بهـا.

وفـى ٢٣ مـارس ١٨٢٠ قـام بإلقـاء محاضـرة تجريبية عن الأنـواع المختلفة للسـببية، ومـا أن انتهـى منهـا حتـى كان الصـراع قـد بـدأ مـع هيجـل. وعلـى الرغـم مـن أنـه كان مـن الصعوبـة بمـكان علـى محاضـر شـاب أن يكسـب الطلبـة إلـى جانبـه ـ فـى الوقـت الـذى يلمـع فيـه مشـاهير المحاضريـن أمثال شـلايرماخر Schleiermacher وفيشـته وهيجل ـ إلا أن شـوبنهاور جعل محاضراتـه عـن «الفلسـفة الكليـة أو نظريـة طابع العالـم والروح الإنسـانية».

“Die gesamte Philosophie oder die Lehre vom Wesen der Welt und vom menschlichen Geist”.

وواصـل شـوبنهاور عنـاده، وعمـد إلـى اختيـار السـاعات التـى كان

يلقـى فيهـا هيجـل محاضراتـه ليلقـى هـو ـ شـوبنهاور ـ فيهـا محاضراتـه. وانتهـى بـه هـذا العنـاد إلـى أنـه لـم يجـد فـى قاعـة المحاضـرات التـى كان يلقـى فيهـا محاضراتـه فـى الفصـل الصيفـى مـن سـنة ١٨٢٠ سـوى القلـة مـن الطلبـة. وزاد فشـله يومًـا بعـد يـوم نتيجـة إصراره علـى هـذه السياسـة التـى رسـمها، إلـى حـد أنـه شـعر بذلـك الفشـل الـذى منـى بـه رغـم أنـه لـم يكـن متحدثًـا فاشـلًا، ورغـم أن مخطوطـات محاضراتـه ـ التـى مـا زالـت باقيـة حتـى اليـوم ـ تـدل علـى براعـة تناولـه الموضـوع.

وهكـذا يتأكـد لنـا أنـه لم يكـن ثمة عيـب فـى محاضراته، ولكـن انصراف الطلبـة عنـه إنمـا جـاء نتيجـة تجـرؤ شـوبنهاور علـى محاربـة الفلسـفة التـى كانـت تشـق ـ فـى ذلـك الوقـت ـ طريقًـا قـد أحاطـت بهـا أكاليـل النصـر وحشـود المهلليـن مـن المعجبيـن بهـا. ومـن ثـم كان عليـه أن يضاعـف مـن جهـوده ضـد المدرسـة الفلسـفية السـائدة عامـة، وضـد هيجـل وتلاميـذه خاصة.

وأسـفر هـذا الصـراع أيضًـا عـن أثـر عكسـى علـى كتابـه «العالـم ـ إرادة وتخيـل» فبـدلًا مـن أن يلقـى رواجًـا نتيجـة عملـه فـى الجامعـة، فقـد صادفه نفـس المصيـر سـواء عنـد النقـاد أو فيمـا يختـص بعمليـة بيـع نسـخه.

وأخيـرًا تصـدت لـه بعـض المتاعـب التـى انتزعـت منه مـا تبقـى لديه من متعـة فـى الوجـود فـى برليـن، فمـا كان منـه إلا أن أدار ظهره لها علـى الفور.

وبـدأ فـى مايـو ١٨٢٢ رحلـة جديـدة إلـى إيطاليـا، ولكنـه مـا أن عـاد منهـا حتـى مـرض فـى ميونيـخ؛ وكانـت نتيجـة هـذا المـرض أن فقـد حاسـة السـمع بأذنـه اليمنـى.

وهناك نلتقى به بعد بضعة أشهر فى مانهليم، ثم نراه مرة أخرى فى سبتمبر سنة ١٨٢٤ فى دريزدين، ويقترح على بروكهاوز ترجمة «تريسترام شاندى» عن الإنجليزية، إذ كان يعد هذا الكتاب أحد أربعة تتربع على عرش الرواية فى الأدب العالمي، ألا وهي: دون كيشوت Don Quijote، ونوفيل هلواز Nouvelle Heloise، فيلهلم مايستر Wilhelm Meister، وتريسترام شاندى Trist am Shandy. كما أعرب عن تفكيره أيضًا فى أن ينقل إلى الألمانية ما كتبه هيوم Hume فى «التاريخ الطبيعى للدين» Natural History of Religion وفى «حوار عن الدين الطبيعى» Dialogues Concerning Natural Religion. وأكد شوبنهاور أن قيمة كل صفحة منها أعلى من مجموع أعمال «هيجل وهربرت Herbart وشليرماخر» كلها. ولكن ذلك بقى فى نيته فحسب، ولم يخرج إلى حيز التنفيذ.

وفى مايو ١٨٢٥ عاد إلى برلين ثانية، وبلغ به الضيق أقصاه إثر وقوع خسائر فى أملاكه وإثر فشله من جديد فى المحاضرة؛ وعدم تحقق رغبته فى الانتقال إلى جامعة أخرى، فضلًا عما لقيه عمله من إهمال تام ـ كل ذلك أوقعه فريسة للغم المقيم والأسى العميق.

وكان من الضرورى فى ذلك الوقت أن يلتقى بالمذهب الحسى الفرنسي. وكان ـ وهو فى دريزدين ـ قد اقتطف بعض ما كتبه كابانى Cabani عن «التناسب الجسمانى والأخلاقى للإنسان» Sur les rapports du physique et du moral de I'homme ثم اكتشاف فلورنز Flourens لوظائف المخ والمخيخ.

وكان قد تعلم اللغة الأسبانية منذ سنة ١٨٢٥، وقدم لبروكهاوز

ترجمة القواعد الخمسين الأولى للحياة من كتاب بلتازار جراشيان «نبوءة الكف وفن الحكمة الدنيوية» Handorakel und Kunst der Weltklugheit عمل أوحى له بالكثير مما تضمنه كتابه «أصول فى حكمة الحياة» Aphorismen zur Lebensweisheit. ولم يجد شوبنهاور ناشرًا يقبل طبع الترجمة الكبيرة التى قام بها، والتى أراد بها نشر هذا الكتاب فى سنة ١٨٣٢.

وأفزعه ما رآه من انتشار الكوليرا فى برلين، فقرر أن يغادرها نهائيًا فى آخر أغسطس ١٨٣١ ليستقر فى فرانكفورت الماين. وفى الطريق فكر فى العودة إلى برلين، ولكنه آثر ـ بعد زيارته مانهايم ـ أن يستقر فى فرانكفورت. ولم يترك هذه المدينة طوال الأعوام الثمانية والعشرين الباقية من حياته سوى بضعة أيام.

وبدأ شوبنهاور فيها حياة جديدة راح يتخلص فى أثنائها من كل من عرفهم فى حياته الماضية إذ راح يقاطعهم بالتدريج. ولم يستبق له سوى القلة من الرفقاء. وفى هذه الحياة الجديدة ظل يمنع نفسه شيئًا فشيئًا من الدخول فى منازعات مع دنيا المحترفين من الفلاسفة الجامعيين، وفى ذلك يقول:«لقد رفعت الحجاب عن الحقيقة على نحو لم يفعله إنسان قط من قبل، ولكنى أود أن أرى ذلك الذى يستطيع أن يدعى أنه وجد مجتمعًا معاصرًا له أكثر شقاء من هذا الذى عشت فيه». فقد اعتبره المجتمع خارجًا عليه وصوره أفراده فى صورة بقيت حتى يومنا هذا أوضح من مؤلفاته ذاتها: فهو سيد متأنق وإن كانت ثيابه على الطراز القديم، يسرع فى مشيته وكلبته أتما Atma تتبعه، ويتحدث أحاديث دموية مصحوبة بالإشارات.

وتنقطع المراسلات وقتًا طويلًا فلا يعرف أحد عنه شيئًا اللهم إلا أنه أخذ يجلس وحده إلى عمله، وأنه واصل عزفه اليومى على الناى، وأنه جعل يقطع المسافات الطويلة مشيًا على الأقدام. وطبيعى أنه كان يقضى إلى جانب ذلك وقتًا طويلًا فى مكتبته حيث يجد الراحة النفسية، والنبضات الفكرية، فهو يفضل من الشعراء شكسبير وجيته وكالديرون Calderon وبايرون وبترارك Petrarca وبورنز Burnes وبيرجر Bürger؛ وكان يقرأ آثارهم بلغاتها الأصلية دومًا؛ إذ عود نفسه ألا يقرأ ترجمة ألمانية لكتاب قط اللهم إلا العهد القديم من الكتاب المقدس وبعض الكتب الدينية الأخرى.

وكان يفضل بين الكتب باللغة اللاتينية ما وضعه هوراس Horaz وسينيكا Seneca. ولقد ذكرنا من قبل الأربع روايات التى يعتبرها شوبنهاور الكبرى فى عالم الأدب. وكان يفضل من الفلاسفة أفلاطون Platon وكانت Kant ثم يليهما مكيافللى Machiavelli وجيوردانو برونو Giordano Bruno وماليبرانش Malebranche وبيكون Bacon وهوبز Hobbes وفولتير Voltaire وهلفيتوس Helvetius وروسو Rosseau وهيوم Humeوأخيرًا إلى جانب جراسيان Gracian العظيم وغيره من علماء الأخلاق العظماء من أمثال مونتينى Montaigne ولاروشفوكول La Rochefoucauld ولابروبير La Bruyère وشامفور Chamfort وفوفينارج Vauvenargue وشافتسبرى Shaftesbury وشنستون Shenston. وكان يعيد قراءة أعمالهم دومًا.

أما فى الفلسفة الألمانية فكان يخص بالقراءة ليشتنبرج Lichtenberg؛ ولكنه شعر بانجذابه أيضًا إلى تاولر Tauler وبيمه Böhme ومايستر إكهارت Meister Eckhardt.

وتحدث شوبنهاور عن إكهارت فقال:«لقد تولينا جميعًا ـ بوذا وإكهارت وأنا ـ نشر تعاليم تقوم على نفس المبادئ؛ فإكهارت تولاها فى الميثولوجيا المسيحية. وفى البوذية نفس الأفكار، ولكنها خالية من هذه الميثولوجيا؛ ومن ثم فهى بسيطة وواضحة بقدر ما يمكن أن يكون الدين واضحًا. أما أنا، فقد كنت واضحًا كل الوضوح».

وكثيرًا ما كان شوبنهاور يردد الخطاب الخامس بعد المائة لسينيكا الذى يحتوى على «قواعد لحماية الإنسان» Regeln, sich vor den Menschen zu Sichern وبداية كتاب هوبز «دى كيف» «De Cive» وكتاب «المبدأ» Principe لميكيافللى وخطاب بولونيوس Polonius للارتيس Laërtes فى هملت Hamlet و«قراءة الكف» لجراشيان، وحكم وأمثال علماء الأخلاق الفرنسيين، وشنستون وكلنجر Klinger.

وفى سنة ١٨٣٦ ظهر المخطوط الصغير عن «الإرادة فى الطبيعة» Ueber den willen in der Natur وهو«موضوع حول المظاهر التى تلقتها من العلوم التجريبية فلسفة المؤلف منذ ظهورها». وقد أضفى عليها شوبنهاور أهمية خاصة إذ أنها تحتوى على جوهر علمه فى حقل ما وراء الطبيعة.

وكان شوبنهاور قد بلغ فى ذلك الوقت من العمر ما يزيد على خمسين عامًا، عندما اعترف به لأول مرة اعترافًا رسميًا، فقد منحته الجمعية الملكية النرويجية للعلوم Die Königlich- Norwegische Gesellschalt der Wissenschaften الميدالية الذهبية الكبرى للبحث



الـذى قدمـه جوابًـا علــى موضــوع المســابقة، وهــو: «هــل حريــة الإرادة الإنســانية يمكــن إثباتهــا مــن الوعــى الذاتــى؟».

Làsst sich die freiheit des menschlichen Willens aus dem Selbest ـ Wussten beweisen?

وجعل شوبنهاور عنوان بحثه «حول حرية الإرادة»:

Ueber die freiheit des willens.

أمـا الجمعيــة الملكيــة الدانمركيــة للعلــوم Die Konigich- Danische Sozietät der Wissenschaften، فــكان نصيبــه مــن النجــاح معهــا قليــلًا إزاء موضــوع Ueber die Grundlage der Moral «مبــادئ علــم الأخــلاق».

وفــى ســنة ١٨٤١ نشــر الكتابيــن تحــت عنــوان شــامل هو«المشــكلتان الأساســيتان فــى علــم الأخــلاق اللتــان عولجتــا فــى بحثيــن لمســابقتين علميتيــن».

Die beiden Grundprobleme der Ethik, behandelt in zwei akade mischen preisschriften.

ولا يشــير كلا العمليــن إلــى العمــل الرئيســى، ولا يبلغــان مبلغــه فــى المعرفــة؛ ولكنهمــا صــارا إضافــة مهمــة إلــى متــن الكتــاب الرابــع؛ إذ «ليــس هنــاك ـ علــى الأقــل فــى عالــم المظهــر ـ أيــة إرادة حــرة لأن هــذا العالــم يخضــع لنظريــة الســببية. ومــع ذلــك يشــعر الإنســان شــعورًا أكيدًا بمســئوليته عــن أعمالــه التــى تنبــع مــن شــخصيته وطابعــه.

ومــن ثــم فــإن الطابــع هــو الــذى يرتكــب الخطــأ الــذى لا يرتبــط ـ مــع



ذلك ـ بشىء سوى المظهر من حيث نطقه، أى بالزمان والمكان والسبب. ولكن خلف هذا، المقيد، نجد «الطابع الذكى» بحريته غير المحدودة إلا أنه لا يظهر قط. وهذا الطابع هو ذاتنا، وهو إرادتنا الحقة؛ فهو يحيل أعمالنا لنا، فهى باعتبارها مقيدة ـ تنبع عندئذ من طابعنا التجريبى إلى جانب ارتباطها بالدوافع. وعلى ذلك، فحريتنا إذن هى وجودنا، ولكنها ليست فى أعمالنا».

وبالرغم من أن هذا العمل أيضًا لم ينل من النجاح ما كان منتظرًا، إلا أنه أوجد ـ هنا وهناك ـ بعض المؤيدين لنظرية شوبنهاور.

وفى ٧ مايو ١٨٤٣ كتب شوبنهاور خطابًا إلى بروكهاوز بصدد الجزء الثانى من كتابه «العالم ـ إرادة وتخيل». ونثبت فى الصفحة التالية النص الكامل لترجمة الخطاب.

من شوبنهاور إلى ف. أ. بروكهاوز

عن الجزء الثانى من «العالم إرادة وتخيل»

أرجو أن تجد ذلك من الملائم أن أقصدك لأعرض عليك نشر الجزء الثانى من «العالم ـ إرادة وتخيل» الذى انتهيت منه الآن. وقد يدهشك أنى قدمت هذا فحسب بعد ٢٤ عامًا؛ ولكن ليس من سبب لذلك سوى أنى لم أستطع أن أتمه قبل ذلك.. وإن كنت قد شغلت نفسى حقًّا طوال هذه السنوات فى الإعداد ـ دون هوادة ـ لهذا الكتاب؛ فالذى يعيش أمدًا طويلًا، إنما ينمو بطيئًا. وهذا الشكل النهائى هو ثمرة الأربعة أعوام الماضية، وضعته عندما أيقنت أنه آن الأوان أن أتمه، إذ قد أتممت ـ فى هذه الأيام ـ عامى الخامس والخمسين. وبذلك أكون قد بلغت سنًا تبدأ فيها الحياة مرحلة عدم الاطمئنان، ولكن إن قدر لها أن تستمر وقتًا طويلًا، فإن الوقت الذى تفقد فيه القوى الروحية نشاطها لا بد آت.

ويفضل الجزء الثانى كثيرًا سابقه، كما تفوق الصورة الكاملة تلك التخطيطية السابقة لها ـ ذلك أنه يشتمل على غنى من الأفكار واكتمال المعرفة مما لا يمكن أن يكون إلا ثمرة الحياة التى انقضت



فـى الدراسـة والتفكيـر. وعلـى أيـة حـال، فهـو خيـر مـا كتبـت؛ وسـوف يلمع بـه الجـزء الأول نظـرًا لأهميتـه القصـوى. وأسـتطيع الآن أيضًا أن أفسـر بحرية أكبـر وصراحـة أقـوى عمـا كان يمكننـى قبـل أربعـة أعـوام؛ ويرجـع بعـض هـذا إلـى: أن الزمـن يسـتطيع أن يسـاعد فعـلًا علـى السـير أكثـر فـى هـذه الطريـق، ويرجـع بعضـه إلـى أن مـا بلغتـه الآن يسـمح لى بـأن أكون مسـتقلًا فـى آرائـى الحاسـمة ومسـلكى الحـازم.

أمـا مـن حيـث الحجـم فسـيكون هـذا الجـزء ـ حسـب تقديـرى ـ فـى مثـل حجـم الجـزء الأول، ولكنـى لا أضمـن ذلـك تمامًـا لأن عـدم مراعـاة مسـاحة الهامـش فـى المخطـوط يجعـل مثـل هـذا التقديـر تقريبيًـا، وهـذا الجـزء مقسـم إلـى خمسـين فصـلًا، موزعـة بيـن أربعـة كتـب تماثـل تلـك التـى ظهـرت فـى الكتـاب الأول كإضافـات. ولـدى الآن رغبـة ملحـة فـى أن تقـرر إعـادة طبـع الجـزء الأول فـى نفـس الوقـت لتظهـر الطبعـة الثانيـة منـه وقـد تضاعـف حجمهـا، فـإن هـذا العمـل الـذى بـدت قيمتـه وأهميتـه واضحـة بمـا ذكرتـه حتـى الآن الأصـوات الفرديـة، سـوف يجتـذب إليـه أخيـرًا أنظـار الجمهـور بمظهـره الجديـد الجديـر بـه، وبمـا انطـوى عليـه مـن مزايـا. وإنـا نرجـو أن تكثـر حولـه مناقشـات المثقفيـن المشـهورين الذيـن عرضـوا لـه ـ ولا يزالـون يعرضـون لـه ـ بصـورة واضحـة غيـر مقنعـة. وفـى نفـس الوقـت فـإن الشـعور بالحاجـة إلـى الفلسـفة قـد اشـتد إثـر ضعـف الشـعور الدينـى، ومـن ثـم أصبـح الاهتمـام بهـا حيويًـا وعامًـا، وليـس هنـاك مـا يشـبع هـذه الحاجـة لأن أعمـال أولئـك الذيـن لـم يبحثـوا فـى فلسـفاتهم إلا عـن الفائـدة التـى تعـود عليهـم لـن يمكنهـم أن يقدمـوا هـذه الفلسـفة المطلوبـة البتـة. ومـن ثـم، فهـذه هـى اللحظـة الملائمـة لتجديـد عملـى، ليلتقـى مـع نهايـة العمـل الجديـد ذاتـه. ولـن يكـون العمـلان ضـدي، كمـا

كانـت الحـال فـى الماضـى. وإنـى أود أن تعلـم التاريـخ الحقيقـى لـلأدب حتـى تعـرف أن جميـع الأعمـال الحقيقيـة، وكل الأعمـال التـى اسـتمتعت فيمـا بعـد بالوجـود الدائـم ـ كان نصيبهـا الإهمـال فـى أول أمرهـا كمـا كان نصيـب عملـى الأول، بينمـا ارتفعـت الأعمـال السـيئة والخاطئـة إلـى القمـة. كذلـك كانـت هـذه الأعمـال تنتشـر فـى العالـم حتـى لـم يعـد هنـاك مـكان للأعمـال الجيـدة الصادقـة؛ ويسـتمر الحـال علـى هـذا المنـوال طويـلًا حتـى يقـدر لهـا أن تـرى النـور. وهكـذا سـيأتى الوقـت لأعمالـى، ويجـب أن يأتـى، وكلمـا تأخـر ذلـك فسـيكون الوميـض أشـد.

وفـى الواقـع أن المسـألة الآن تنحصـر فـى أن يوضـع أمـام العالـم عمـل لـه قيمـة وأهميـة كبيرتـان جـدًّا إلـى حـد أنـى لا أجـرؤ أن أقـول ذلـك هنـا ـ خلـف المسـرح أى للناشـر ـ لأنـك لـن تسـتطيع أن تصدقنـى. ولكنـى أسـتطيع علـى الأقـل أن أبيـن لـك أنـى مهتـم بالموضـوع فـى قـرارة نفسـى، وليـس هنـاك مـن دافـع ثانـوى إلـى جانـب هـذا. فـإذا أمكنـك أن تقـرر الآن نشـر طبعـة ثانيـة، فإنـى أتـرك لـك كليـة أن تقـرر إذا مـا كنـت تدفـع لـى حقـوق التأليـف أم لا. صحيـح أنـك فـى الحالـة الثانيـة سـتحصل علـى ثمـرة جهـود حياتـى كلهـا بـلا مقابـل، ولكنـى لـم أضـع هـذا العمـل أو أخرجـه فـى دأب ومثابـرة طـوال عمـرى مـن أجـل المـال قـط؛ ومـن جهـة أخـرى، فإنـى أعلـم أن كتابًـا بهـذا الحجـم سـيكلفك الكثيـر مـن حيـث ثمـن الـورق وأجـر الطبـع، وهـو الأمـر الـذى لـن تعوضـه إلا مـع مـرور الزمـن. ولقـد شـكوت مـن ضعـف الربـح، وأكـدت لـى أنـك مزقـت كثيـرًا مـن النسـخ. وإنـى لأذكـر كل ذلـك بشـىء مـن الأسـف، وإن كنـت أعـرف أن سـبب هـذا لـم يكـن الكتـاب نفسـه بـل فـى عـدم أهليـة الجمهـور وكبـار الفلاسـفة الجامعييـن الذيـن يقـودون الجمهـور طبقًـا لميولهـم الشـخصية. وفـى

نفس الوقت لا أحب أن تتعرض لخسارة بسببى حتى ولو كنت غنيًا، ولذا أضع شروطى على نحو لن تكون معها خسارة لك. فإذا كان الجمهور الذى اكتسبته بكتاباتى خطوة خطوة صغيرًا، فسوف يكبر هذا الجمهور، وعندئذ يطبع كتابى عدة طبعات ـ وإن كنت واثقًا من أنى لن أعيش حتى أراها.

ولقد تقدمت فى مراجعة الجزء الثانى المراجعة النهائية إلى حد كبير بحيث إنه سيكون معدًا للطبع فى غضون شهر. وفى أثناء طبع الجزء الثانى سوف أجرى بعض التعديلات الطفيفة فى القسم الخاص بنقد فلسفة «كانت» فحسب حتى تزداد قيمتها. وبذلك قد يقتضى الأمر أن تزيد هذه الطبعة عددًا من الصفحات.

(سوف أقوم بهذا العمل فى أثناء طبع الجزء الثانى، كما أنى سأكتب المقدمة أيضًا).

وفى انتظار ما تقررونه فى هذا الشأن... إلخ.

فرانكفورت فى ٧ مايو ١٨٤٣

آرتور شوبنهاور

* * *

وبعد مناقشات طويلة صعبة صدر الجزء الثانى من كتاب «العالم ـ إرادة وتخيل». ولم يتلق المؤلف أدنى مكافأة عنه، ويبدو أن الناشر قد أقنعه فى سنة ١٨٤٦ أن الكتاب لم يكن رابحًا. وعقب أن انتهى شوبنهاور من الجزء الإضافى لكتاب «العالم ـ إرادة وتخيل» قضى ست سنوات فى عمل مستمر أنتج خلالها عدة مقالات عن

الموضوعـات التـى شـغلت ذهنـه طـوال حياتـه، ولكنهـا لـم تجـد مكانًـا فـى كتبـه السـابقة. وأخـذ شـوبنهاور خـلال ثلاثيـن عامًـا يجمـع هـذه المـادة ويعـدل فيهـا ويوسـعها ليضمنهـا كتابـه «الحواشـى والبواقـى» Parerga und Paralipomena.

وفـى ٢٦ يونيـو ١٨٥٠ سـأل شـوبنهاور ناشـره بروكهـاوز عمـا إذا كان مسـتعدًا لنشـر الكتـاب ثـم أضـاف قائـلًا: «لا أظـن أنـى سـأكتب شـيئًا آخـر بعـد هـذا لأنـى لا أريـد إنجـاب أبنـاء ضعـاف فـى شـيخوختى يتهمـون الأب ويقللـون مـن شـهرته. وهـذا العمـل لا تـزال هنـاك حاجـة إليـه، شـأنه فـى ذلـك شـأن سـابقه».

ولكـن الناشـر رفـض طبـع الكتـاب، كذلـك لـم يجـد شـوبنهاور الفرصـة فـى مـكان آخـر حتـى وافقـت A.W. Haynsch Buchhandlung مكتبـة هاينـش علـى أن تتولـى نشـره، وتلقـى شـوبنهاور فـى مقابـل جميـع حقوقـه عـن هـذا الكتـاب الـذى ضـم بيـن دفتيـه الحكمـة والفطنـة عشـر نسـخ منـه بعـد تمـام طبعـه!!

وقـال شـوبنهاور: «فـى الحقيقـة أنـى سـعيد إذ أرى مولـد هـذا الطفـل الأخيـر الـذى يتـم رسـالتى فـى هـذا العالـم. وإنـى لأشـعر الآن حقًّـا أن عبئًـا ثقيـلًا قـد أزيـح عـن كاهلـى، ظللـت أحملـه منـذ عامـى الرابـع والعشـرين، وشـعرت بثقلـه. ولا يمكـن لشـخص أن يتخيـل مـدى ذلـك».

وفـى نوفمبـر ١٨٥١ ظهـر الجـزءان فـى طبعـة صـدر منهـا ٧٥٠ نسـخة، وكان هـذا هـو العمـل الأول الـذى نجـح نجاحًـا حقيقيًـا. فقـد ضـم هـذا الكتـاب ٣٧ موضوعًـا كان أغلبهـا قصيـرًا، وكان موضـوع «خلاصـة حكمـة الحياة» Aphorismen zur Lebensweisheit أكبر الموضوعات التى اشـتمل عليهـا الكتـاب حجمًـا.

كذلك كانت «حكمة الحياة» أكثرها حبكة وأهمية، وأروعها أسلوبًا. وقد توزعت فى ستة فصول، يجمع موضوعات كل فصل منها رابط مشترك. وترتفع «حكمة الحياة» إلى مستوى الأبحاث الفلسفية لسينيكا ومونتينى وبيكون.

ويرجع هذا التحول الذى طرأ على مصير شوبنهاور إلى كتاب ثاكرى Thcekery الذى أسماه «سوق الغرور» Fair of Vanityواشتمل على نقد رائع للأقوال المأثورة، وتحد للذين يدينون بمذهب هيجل.

وفى ألمانيا، اكتسب أصدقاء شوبنهاور نفوذًا وأصبح شوبنهاور مشهورًا فجأة. وكان من عادة الفيلسوف أن يقول «لقد وصل النيل إلى القاهرة».

ولم يك شوبنهاور قد شاخ على الاستمتاع بشهرته، بل كان يقرأ بشغف كل المقالات التى كانت تكتب عنه وطلب إلى أصدقائه أن يرسلوا إليه كل تعليق ينشر عنه، مع تحمله ـ شوبنهاور ـ تكاليف البريد.

وأصبحت فلسفة شوبنهاور موضوع مسابقات أكاديمية، وتسابقت الكليات إلى هذا. وترجمت مقتطفات منها إلى اللغة الفرنسية، وأنصتت إيطاليا إليها فى انتباه. وأرسل ريشارد فاجنر Richard Wagner إلى الفيلسوف فى سنة ١٨٥٤ نسخة من أوبراه «Der Ring der Nibelungen» وقد كتب عليها إهداء «إعجابًا وشكرًا»، وتكاثر الأتباع والمريدون من مختلف الطبقات، فزاره مثلًا الشاعر فريد ريش هيبل Friedrich Hebbel وراح يؤكد له أنه حقق بهذه الزيارة الأمنية التى كان يحلم بها والتى دفعته إلى المرور بفرانكفورت، إذ زار أكبر الفلاسفة الأحياء فى عصره.

وهكـذا بـزغ فجـر شـهرة شـوبنهاور فى الوقـت الـذى كانت حياتـه تميل إلـى الغـروب، إذ لـم يبـق علـى مسـرح الحيـاة بعـد ذلـك إلا سـبعة أعـوام فحسـب قضاهـا كلهـا فـى سـعادة ومـرح.

وفـى عيـد ميـلاده السـبعين انهالـت عليـه التهانـى والأمانـى مـن جميـع أنحـاء البـلاد بـل كلهـا؛ وكاد المتشـائم الكبيـر أن ينقلـب متفائـلًا!!

وفـى هـذا الوقـت عكـف شـوبنهاور علـى إعـداد العـدة للطبعـة الثانيـة مـن «الأمثـال» Parerga. وفـى مايـو ١٨٥٨ قـال إنـه لا يـزال يفكـر فـى ضـم كثيـر مـن الإضافـات الجديـدة إلـى هـذا العمـل. وقبيـل موتـه بثلاثـة أيـام قـال: «إنـه لأمـر مؤسـف أن أمـوت الآن، إذ لا يـزال ثمـة واجـب يتحتـم علـىَّ أداؤه، ألا وهـو أن أضـم إلـى هـذا العمـل إضافـات مهمـة».

ولـم يعثـر علـى مخطـوط هـذا الكتـاب. أمـا النسـخة الخطيـة الباقيـة فهـى ككل أعمـال شـوبنهاور تتخللهـا أوراق بيضـاء كان الفيلسـوف يكتـب عليهـا باسـتمرار التعديـلات المطولـة التـى يـرى إدخالهـا، أمـا التصحيحـات الصغيـرة، فـكان يسـجلها علـى المتـن نفسـه. وتضـم هـذه النسـخة الخطيـة عـدة تصحيحـات وتعديـلات، وتحسـينات وإضافـات، وإشـارات إلـى كتبـه التـى يجـب الاسـتعانة بهـا فـى الكتـاب. ومـن هـذه المـادة أصـدر يوليـوس فراونشـتيت Julius Frauenstädt ـ وهـو أحـد الأدبـاء الناشـرين ـ فـى سـنة ١٨٦٢ طبعـة جديـدة بهـا زيـادات وتحسـينات لكتـاب شـوبنهاور «الحواشـى والبواقـى».

ولقـد كانـت «أصـول حكمـة الحيـاة» أهـم عمـل شـخصى للفيلسـوف؛ فهـى الكنـز الـذى جمعـه خـلال حيـاة طويلـة؛ حيـاة غنيـة بتأمـلات العالـم، غنيـة بالتخيـلات والأحـزان، ولكنهـا غنيـة أيضًـا

بالاستقراءات الخالصة وبالفن. ولن تضيع هذه التجارب، بل ستساعدنا فى فتح أعيننا قائلة: «هذه هى الحياة، أما كل ما يحجب أو يغطى منها فهو كذب وكذب خطير لأنه يؤدى إلى آمال كاذبة وأهداف بعيدة التحقيق وضلال مرير. وهناك طريقة واحدة، هى مواجهة الحقيقة دون خداع ـ لا للوصول إلى حياة سعيدة، بل إلى حياة محتملة على الأقل». هذه هى روح الكتاب الذى يقدم فيه شوبنهاور النظريات الكبرى للحياة البشرية.

وقد يتساءل البعض:

لماذا لم يسر شوبنهاور نفسه وفق هذا البرنامج الذى رسمه؟

لماذا لم يسر هو نفسه على طريق السمو حتى نهايته؟

ولكن أحدًا لم يشعر بالصراع الشديد بين النظريات وواقع الحياة كما شعر به شوبنهاور، فإن المرء يظل أبعد ما يكون عن الحكم الصحيح إذا صارت نظريته مجرد مجموعة من الأفكار، أو إذا فاته أن يرى فيها «العمل الانتقامى الروحى» للإنسان الذى رفضت الحياة تحقيق رغباته؛ الإنسان شديد التعصب للحقيقة إلى حد لا يرضيه معه مجرد الاكتفاء بالقبول أو الرضوخ. «ذلك... بالنسبة للفنان أو العبقرى لا يكون الضمير الأفضل هو وحده الحى كل الحياة ـ كما هى الحال مع القديس ـ بل يجب أن تشترك معه تلك التجريبية والحسية بصورة حية كل الحياة، وهذا هو السبب فى أن العبقرى بهذا الازدواج فى طبيعته ـ ليس لديه راحة القديس، فوجود العبقرى نوع من الاستشهاد من أجل البشرية... بحيث إنه لا يستطيع أن يقول تمامًا «ليس حكمى نابعًا من هذا العالم»، ولكنه مسوق بدافع قوى

لإنجاز مهمته فى البحث فى هذا العالم عن شىء ما. وبهذه الكلمات دافع الفيلسوف عن نفسه أحسن دفاع.

وتمر الأيام وفى اليوم الحادى والعشرين من سبتمبر سنة ١٨٦٠، نهض شوبنهاور فى الصباح كعادته واغتسل بالماء البارد. ثم جلس إلى مائدة الإفطار التى تعلوها صورة جيته. وفتحت مدبرة البيت النافذة لتدع نسيم الصباح يدخل الغرفة ويجدد هواءها؛ ثم تركت الحجرة بينما راح شوبنهاور يتناول الطعام.

وما هى إلا لحظات حضر بعدها طبيبه. فلما دخل عليه وجده مضطجعًا على الأريكة إلى الوراء ـ وقد فارق الحياة إثر نوبة نقلته من هذا العالم دون أدنى ألم. وهكذا تحققت أمنيته التى طالما رجاها: أن يموت فى سهولة.

وفى اليوم السادس والعشرين من سبتمبر احتفل رسميًا بدفن آرتور. وقد أحاط برأسه أكليل من الغار. وزين قبره ـ تنفيذًا لوصيته ـ بلوحة من الجرانيت نقش عليها اسمه المجرد:

آرتور شوبنهاور

فيلهلم يوردان
يحكى زيارة الشاعر هيبل لشوبنهاور

فى هذه الصفحات، يحكى لنا فيلهلم يوردان، وكان من المترددين على شوبنهاور، حكاية طريقة تصور لنا جانبًا من شخصية شوبنهاور.

كان صديقى الشاعر فريدريش هيبل عائدًا من همبورج إلى فيينا فى ٤ مايو سنة ١٨٥٧، فنزل ضيفًا علىَّ لمدة أربع وعشرين ساعة. وأعرب لى عن رغبته فى التعرف على شوبنهاور، فقلت له: «هذا صعب»، وأردفت على الفور قائلًا: «ولكن ربما كان ممكنًا».

وطرأت على ذاكرتى للتو كلمات قالها شوبنهاور لى وفى سخرية يشوبها الغضب، وذلك قبل بضعة أشهر: «هناك ملايين من الناس يسيرون حقًّا على قدمين وبلا ريش، أما الرجل الحقيقى فنادر الوجود». وقلت له فى ذلك الوقت: «إن الأمر ليس سيئًا إلى هذا الحد، بل أنى إذا عثرت على رجل حقيقى فى نظرى، فسآتى به إليك لتفحصه وترى مدى صحة رأيى فيه».

وهكذا التفت إلى هيبل، وسألته فجأة سؤالًا مقتضبًا: هل أنت رجل؟ فنهض واقفًا عن مقعده، وبالرغم من ابتسامتى، فإنه لم يستطع مقاومة الشعور بالألم؛ إلا أن علامات الغضب زالت عن وجهه



بسـرعة عندمـا فسـرت لـه سـبب سـؤالى، وقلـت لـه إنـى سـوف أقدمـه ـ وأنا مرتـاح الضميـر إلـى الفيلسـوف ـ علـى إنـه رجـل حقيقى.

وعلـى الإفريـز الحجـرى لنافـذة المسـكن الـذى يقطنـه شـوبنهاور بالدور الأرضـى مـن البيـت المطـل علـى «المنظـر الجميـل» رأينـا غليونًـا ينفـث الدخـان فـى الهـواء. وأدخلتنـا مدبـرة البيـت العجـوز إلـى غرفـة الاسـتقبال حيـث جلسـنا علـى أريكـة عتيقـة للغايـة، مغطـاة بغطـاء رمـادى، مـن القطن إلا أن الغطـاء لـم يكـن نظيفًـا تمامًـا؛ وكانـت الأريكـة صلبـة غايـة الصلابـة. وكانـت هـذه الأريكـة، ومنضـدة عاديـة جـدًّا مغطـاة بالمشـمع إلـى جـوار الجـدار بيـن النافـذة والبـاب، وبعـض المقاعـد هـى كل أثـاث الغرفـة بحيـث كانـت توحـى بأنهـا غرفـة طالـب فقيـر فقـرًا مدقعًا. وعلـى المنضدة جلسـت كلبـة ضخمـة بيضـاء غيـر نظيفـة إلـى حـد تـدل معـه علـى أنهـا لـم تسـتحم منـذ عـدة أسـابيع، واكتفـت الكلبـة بالنظـر إلينـا دون أن ترفـع رأسـها. وعلـى جـدار الغرفـة عـدة صـور تمثـل شـوبنهاور نفسـه. وفـى فجـوة بالجـدار تمثـال نصفـى لكلـب بالألـوان الطبيعيـة، وقـد قفـز إلـى الأمام باسـطا سـاقيه الأماميتيـن كأنمـا يحـاول الهـرب مـن مخبـأه. ولـم أعلم مـا إذا كان شـوبنهاور قـد اشـترى هـذا التمثـال أم أنـه هـو الـذى أوصـى بصنعـه ـ وهـو صديـق الـكلاب ـ أحيـاء لذكـرى الكلـب الـذى كان عنـده قبـل هـذه الكلبـة. وفـى ركـن مـن الغرفـة كان هنـاك تمثـال مذهـب لبـوذا جالسًـا.

ومـا أن ظهـر حكيـم فرانكفـورت حتـى قلـت لـه: «بنـاء علـى إذنـك، يـا سـيد شـوبنهاور، أقـدم لـك عينـة مـن ذوى السـاقين الذيـن لا ريـش لهـم. وإنـى واثـق مـن أنـه الرجـل الحقيقـى الـذى تريـده. والآن، أرجـو أن تـرى مـا إذا كنـت علـى صـواب. واسـمه فريدريـش هيبـل». واكتـأب



وجـه شـوبنهاور اسـتياءً مـن الدعابـة، إلا أن الابتسـامة بـدأت ترتسـم علـى وجهـه.

وقـال وهـو يضـع مقعـده بجوارنـا «أرجـو أن تظـلا فـى مكانيكمـا». وانحنـى انحنـاءة خفيفـة للشـاعر وقـال: «سـأعترف هـذه المـرة ـ وهـذه المـرة فحسـب ـ أن متفائـلًا مثـل يـوردان يمكـن أن يكـون علـى صـواب بصفـة خاصـة. فإنـه لمـا يشـهد لـك بهـذه الصفـة ـ على الأقـل ـ تلك المأسـاة التـى كتبتهـا، والتـى قرأتهـا بشـغف شـديد، وأظـن أن عنوانهـا هو«مريـم المجدليـة» Maria Magdalena؛ ففيهـا عمـق وحقيقـة ـ وإن جاء فيها شـىء مـن الخشـونة ممـا جعلهـا تبـدو كمـا لـو كانـت حمـلًا دون حـب، وهـى أكثر مـن متشـككة ولا تحتمـل؛ وأن كانـت الشـخصية الأصليـة فـى التاريـخ أكثـر حيويـة. ولقـد قدمـت ـ فـى إطـار ضيـق ـ صـورة صغيـرة مخالفـة لصـورة هـذا العالـم الملطـخ بالأوحـال، والـذى لا يربـط أفراده هـذه الروابـط الوثيقة سـوى الشـر».

وهنـا نظـر إلـيَّ نظـرة جانبيـة، ثـم اسـتمر يقـول: «وهـى أكثـر وضوحًا من الصـورة الهزليـة الضخمـة التـى قدمهـا صديقـك يـوردان فـى «دميورجـوس» Demiurgos حيـث جمـع كثيـرًا مـن البراعـة بحديثـه الملـىء بالخزعبـلات كحديـث اليهـود».

ثـم قـال وقـد انفـرج فمـه عـن ابتسـامة عريضـة سـاخرة: «ولكـن قـل لى يـا سـيد هيبـل. كيـف اسـتطعت أن تكتـب مقدمـة غايـة فـى السـوء لعمـل غايـة فـى الروعـة كهـذا؟».

وصمـت هيبـل فلـم يـرد علـى هـذا السـؤال لحظـة، إذ كان قـد تأثـر تأثـرًا كبيـرًا عندمـا أضفـى الرجـل الكبيـر المشـهور علـى مأسـاته مـا جعلـه



يفضلها على«دميورجوس». وكان هيبل يرى لشعرى معنى كبيرًا وفضلًا أكبر.

ثم جاء سؤال شوبنهاور ـ بعد كل هذا الإطراء والمبالغة فى الترحيب ـ جاء كما لو كان قد صب عليه ماء باردًا، فأخرجه عن حالته الطبيعية. وتمتم هيبل ببعض كلمات غير مفهومة حول ما قصده بالمقدمة، ثم تقدم خطوة خطوة نحو الإيضاح. وقال إنه آسف إذ لم يستطع أن يجعل المقدمة ترضى ناقدًا كفئًا مثل شوبنهاور، عندما كان يعرض تفسيراته النظرية لهذه الرواية. وإنما يقابل هذا ابتهاجه الشديد باعتراف أكبر الفلاسفة الأحياء فى ذلك العصر به ككاتب مسرحي. ثم تكلم هيبل عن هذه التفسيرات ـ وكان ارتباكه لم يبرحه بعد تمامًا ـ مما جعله يبدو مبالغًا عندما تحدث عن إعجابه بأعمال شوبنهاور. وانتهى من حديثه بتأكيد أعيد تسجيله هنا فى صدق:

«سيظل هذا اليوم من أهم أيام حياتى إذ تحققت لى فيه أصدق رغبة دفعتنى إلى المرور بفرنكفورت لتحية العبقرى العظيم وجهًا لوجه؛ ذلك العبقرى الذى يستطيع الآن أن يعيش أسطع فترة فى شروق شهرته وأن كانت قد جاءت متأخرة».

وبعد أن استمع شوبنهاور إلى هذا الثناء ـ الذى كان يهفو إليه منذ أمد طويل، ويعتقد اعتقادًا جازمًا أنه يستحقه منذ زمن بعيد، قال وعلى فمه ابتسامة ساخرة:

«إن شهرتى، يا سيد هيبل، لشىء عجيب. فأنت بلا شك ترتاد المسارح كثيرًا باعتبار إنك شاعر مسرحى وربما حدث أيضًا أنك شهدت مرة عامل النور وقد تأخر فى إضاءة أنوار المسرح عندما



رفعت الستار فعلًا. وبين تصفيق الجمهور وضحكه، يسرع عامل تنظيف المسرح ـ وهو فى دهشة واستغراب لما حدث ـ بالخروج بسرعة تثير الضحك، ليختبئ خلف الكواليس. وهذا ما حدث لى تمامًا، فأنا على مسرح يسمى العالم تمثل فيه مهازل مؤسية، ولا زلت موجودًا فى تأخر عرضى، بينما تمثل مهزلة شهرتى».

فيلهلم جفنيز يلتقى بشوبنهاور

نتـرك الحديـث فـى هـذا الفصـل لأحـد أصدقـاء شـوبنهاور المقربيـن، وهـو فيلهلـم جفينـر، ليحدثنـا عـن الفيلسـوف الكبيـر كمـا رآه عـن كثـب ولمسـه عـن قـرب.

مظهره الخارجي

كان قامتـه أقـل مـن المتوسـطة وبنـاؤه العظمـى عريـض وقـوي، وذلـك بالرغـم مـن إنـه كان فـى شـبابه نحيـف القـد. وكان صـدره بـارزًا بيـن كتفيـه العريضيـن فـى نشـاط، وظـل صوتـه طـوال حياتـه قويًـا بصـورة غيـر عاديـة. وكانـت يـداه الصغيرتـان معبرتيـن.

ينسـدل شـعره الأشـقر علـى جبينـه كعـادة أهـل عصـره، ويعلـو شـفته العليـا شـاربه الأشـقر الـذى تميـل شـقرته إلـى الحمـرة. أمـا لحيتـه، فكانـت قصيـرة. وكانـت ألوان الشـعر تتفـق مع منظـاره المذهـب؛ وإن كان لم يضعه طـول الوقـت علـى عينيـه، بـل تخلـى عنـه نهائيًـا بعـد أن جـاوز الخمسـين.

وكان فمـه ممتلـئ وجميـل فـى شـبابه، إلا إنه اتسـع فـى أيام الشـيخوخة بعدمـا فقـد أسـنانه. وكان أنفـه دقيـق، حسـن المظهـر، عريـض هند شـاربيه،

مدبب عند العينين. وكانت العينان ذا محجرين واسعين متباعدين؛ ولذا لم يكن يستطيع أن يستخدم منظارًا عاديًا. وكانت عيناه زرقاوين، ولا يتفق حجم العينين مع حجم الهيكل العظمى. وعلاوة على ذلك، فقد كانت جمجمة شوبنهاور عادية، بل أشبه بجمجمة غلام.

وكانت نظرته تشع لهبًا، له من الجمال الروحى، ما يلفت الأنظار إليه ـ وخاصة فى أيام شبابه. وعندما كان فى التاسعة والعشرين من عمره، جاءه رجل عجوز، وقال له إنه سيكون عظيمًا. وقال له رجل إيطالى، لم تكن له به معرفة البتة «لا بد أنك قمت بعمل عظيم، يا سيدى. صحيح إنى لا أعرف ماذا، ولكنى أراه فى وجهك». وقال له رجل إنجليزى، فى أول وهلة رآه فيها: «يبدو أن لك روحًا غير عادية». وقال رجل فرنسى فجأة: «إننى أود أن أعرف بماذا يفكر فى الآخرين؛ فإننا نبدو ـ بلا شك ـ صغار فى عينيه، لأنه كائن من نوع أرقى منا». وصاح ابن إحدى العائلات الإنجليزية التى نزلت فى ضيافة أحد جيران شوبنهاور، وقال: «لا، سوف أجلس هنا، إذ إننى أود أن أرى وجهه السامى المدارك».

لقد حدثت هذه الأمور له أحيانًا، إذ كان وجهه يشع بالروح. وعندما كان يصمت، كان يشبه بيتهوفن؛ وإذا ما تحدث، خيل للمرء أنه ماثل أمام فولتير.

وكان مسلكه أرستقراطيًا دائمًا؛ فقد داوم على الظهور فى ملابسه الكاملة، وعليها معطف أسود، كان يفضله، إذ كان يجعل قامته أكثر طولًا، وكانت ربطة عنقه بيضاء وحذاؤه من اللون الأبيض. ولقد حافظ على الطراز الذى لبسه فى أيام الشباب حتى وفاته، متحديًا

بذلك التغيرات التى حدثت فى طرزها. فكان المعطف الذى يلبسه يجدد دومًا وفق النموذج القديم. وعلى رأسه، كان يضع قبعة عالية، وفى الصيف قبعة عريضة الحافة. ولاءم بين ثيابه وبين شخصيته، وأخضعها كلية لذوقه.

كيف يتكلم؟

كان يعيش فى فرانكفورت كالغريب، بطريقة أكثر من تلك التى اتبعها فى محطات توقفه السابقة، ولذا تحاشى الاتصال بمريديه المحليين؛ فاتصفت علاقاته بالناس بالبرود فى ذاتها، وأحاط به جو أرستقراطى، وقامت هوة عريضة تفصل بينه وبين جمهرة الناس، ولم تكن لتمتلئ إلا مع مر الأعوام بالمقربين فحسب.

ولم يكن يشعر بتلك المسائل الصغيرة التى تعرض يوميًا للمرء، لتدير طاحونة التباين الاجتماعى. واقتصرت حياته الاجتماعية على المحادثات فحسب، وتحددت هذه أيضًا بأعلى تغير دائم فى المظهر.

وكان فيلسوفًا بفطرته، ومن ثم راح يفلسف كل شىء وفى كل مكان، وبطريقة آلية. وكان تكوين الأفكار لديه مبدأه فى الحياة، الذى كان يشعر فيه بالثقة والراحة الحقة. ولكنه ما كان ليتكلم قط بالعبارات المجردة، بل كانت أحاديثه مختصرة واضحة بسيطة، حية مشرقة كأسلوبه.

ولم يشترك فى الأجواء الخاصة أو الأفراح أو الأحزان أو مباهج الحياة العائلية، كذلك كان يتابع الحياة العامة من الناحية الكلية فحسب. وركز كل قوة أحاديثه على ما كان القدماء يسمونه جدلًا،

أى فـن توجيـه الحديـث فـى مجـال التفكيـر الخالـص. واسـتطاع ـ هـو وشـلايرماخر فحسـب ـ أن يسـتعمله بطريقة مخالفة لذلك الاسـتعمال السـيئ المخـزى الـذى كان يلجـأ إليـه الفلاسـفة المحدثـون.

وتميـل طريقتـه فـى الـكلام إلى ما يصفـه شـلايرماخر بالتفكيـر الفنى، أى أنـه كان يضـع أفـكاره ـ لا إراديًـا ـ فـى أثنـاء النطـق بهـا فـى قوالـب جماليـة، وهـى خاصيـة لا علاقـة لهـا بأصـول البلاغـة طبعًـا. ولـم تـك ثمـة حاجـة بـه ـ وهـو يعـرض كل مـا فـى نفسـه مـن انطباعـات ـ إلـى اسـتعمال المقـولات، ولا كل اللغـو المدرسـى المجـرد. وإنمـا كان يتكلـم بنشـاط وحريـة مسـتمدًا أقوالـه مـن ذلـك الخصـب الكامـن فـى التكويـن المتناسـق لآرائـه، مثلـه فـى ذلـك كمثـل المفكـر القديـم الـذى لـم يكـن يعـرف طريقـة أخـرى للتفكيـر.

ولـم يفتـه أن يعتـرف بـأن الحقيقـة إذا لـم تذهـب مـن الفـم إلـى الأذن، فـلا بـد أن تنحنـى إذا شـاءت ـ أمـام آخـر مقاييسـها: الجمـال. ولكـن هـذا صحيـح فيمـا يختـص بعلـم الجمـال فـى أعلـى مراتبـه. ومـن ثـم، فـإذا مـا سـألنا أنفسـنا إلـى أيـن تمتـد جـذور اللـذة بأسـمى وآخـر مراتبهـا فـى الحديـث، لـكان علينـا أن نقـول: إنه فـى قرارة الحيـاة الداخلية للعقـل، عندما تدخـل مجـال الكلمـة التـى تبهجنـا وترضينـا. ويلتقـى الحمـاس العميـق مـع الجمـال الأسـمى للحديـث فـى نقطـة البـؤرة لـدى الشـعور، حيـث يكـون المـرء كلـه الـذى يتكلـم، فربمـا كان فمـه وحـده، أو رأسـه، أو أيـة دعابـة أو انفعـال عابـر.

كانـت هـذه هـى طريقـة شـوبنهاور فـى الـكلام وفـى كل مـا قالـه ابتـداء مـن المشـروعية الموضوعيـة للفـرد، الـذى غالبًـا مـا يكـون حكمـه، ذو

الجانب الواحد، قوة اقناعية إلى حد غير غير عادى لا يقتصر سحرها على إرضاء الغالبية، إذا ما أذعن المرء للأقل. وقد عرض بنفسه، فى أثناء كلامه، دليلًا مضادًا بارعًا لنظريته عن عدم مشروعية الحياة الفردية؛ فكلما كان الفرد كامل الشخصية، وكلما تعمق فى التفكير، كلما بدا أكثر فردية.

وكنت ما أزال صغيرًا، عندما سمعته يتكلم لأول مرة. وجلست إلى جواره إلى المنضدة العادية، ولم أكن أعرف من هو. وأوضح بداية المنطق، وقانون التطابق والتناقض، فراودنى شعور غريب لا يزال ماثلًا أمامى حتى الآن، وهو شعور الإنصات إلى شخص يتكلم عن أ = أ، ورأى فى ملامح وجهه من التعبير، ذلك الذى يرتسم على وجه من يحدث حبيبته عن الغرام.

وكان فى كل وقت يستغرق تمامًا فيما هو بصدده من حديث، ولم يكن يعبأ بما قد يجرى من حوله. وكان أولئك الذين يجلسون هناك وينفثون دخان سيجارهم ليتصاعد أمام أعينهم، غالبًا ما يشعرون بالقلق وهم يرون إلى جانبهم رجلًا لا يبدو له الحديث وسيلة للاسترخاء، بل يراه عملًا، فيثير نفسه بأبسط الأمور كما لو كانت ثروة. وكان يرتج القول عليه، مهما كان حديثه موضوعيًا وحماسيًا، إذا حدث شىء يجذب انتباهه فى أثناء الكلام، فيصمت على الفور.

وهو موضوعى ودقيق الملاحظة إلى حد غير مألوف قط عند معظم الشاردين من البشر. وأذكر إنى كنت أجلس معه مرة، وأتحدث إليه، فما لبث وجهه أن تغير فجأة، ووجه نظراته إلى كلبه الذى حضر على التو للغرفة جاريًا وثبت نظراته علىَّ، إذ لم يك الكلب يعرفنى



تمامًـا. وظللـت صامتًـا، وبعـد فتـرة طويلـة، عـاد إلـى الـكلام وهـو يسـألنى: هـل رأيـت نظـرة الحيـوان؟!

ولـم يكـن يهتـم بموضوعـات الحديـث بصفـة خاصـة؛ فقـد كان يعـرف كيـف يربـط علـى الفـور بيـن أصغـر الموضوعـات وأشـدها عاميـة وبيـن أكثرهـا أهمية. ولكنه كان يتحاشـى الموضوعات الغرامية فحسـب. وإذا انزلق فيهـا، لام نفسـه علـى ذلك فيما بعـد؛ لأنها تصطـدم بالمبادئ الأوليـة لحكمته فـى الحيـاة، فكأنـه يدخـل أرضًـا يشـتد فيهـا خطـر انشـغاله مـع الغوغـاء.

وبصفـة عامـة، كانـت علامتـه الميـزة، لا ميزتـه الصغيـرة فـى اتصالاتـه بالنـاس، إنـه لـم يحـاول قـط إخفـاء شـعوره الارسـتقراطى الداخلـى. وفضـلًا عـن ذلـك، فقـد كان كل واحـد ـ حتـى أولئـك الذيـن كانـوا يشـعرون نحـوه بميـل خفـى ـ يخجـل لذلـك إذ يـرى فـى هـذا انشـقاقًا عـن بقيـة طبيعتـه الأفضـل. ولكـن هـذه القحـة الشـديدة التـى التـزم بهـا، فلازمتـه فـى أحاديثـه مـع مـن يكلمـه جعلـت الشـقة الكبيـرة بيـن كل تفكيـره ومشـاعره والفـرد العـادى تعزلـه دومًـا وفـى كل مناسـبة. ومـن ثـم كانـت صلتـه بالنـاس بصفة عامـة، قصيـرة المـدى وتنتهـى نهايـة سـريعة مفاجئـة. وكان تحفظـه يـزداد عندمـا يواجـه عقليـة عاميـة، وكان سـريع البديهـة وذا خبـرة وتجربـة.. وكان يقابـل هـذا النـوع مـن سـلوك العامة، بما يشـوبه مـن ازدراء، بدماثـة الخلق.. ومـن ثـم كان غالبًـا مـا يقصـر نزاعـه علـى رفقائـه الأذكيـاء المثقفيـن.

وكثيـرًا مـا كان الأذكيـاء يأسـفون أسـفًا شـديدًا لأن رجـلًا لـه مثـل هـذه الـروح يفقـد الحيـاة؛ ولكنـه يعتبـر هـذه الخسـارة كسـبًا لـه إذ يشـارك



توماس فون كيمبين[1] فى الرأى: عندما أكون بين الناس أعود وكأنى أقلهم شأنًا. ولقد قال جيته أن الحديث ينعش أكثر من الضوء، ولو أن عدم الكلام إطلاقًا أفضل من الخوض فى حديث عادي؛ يكون ثلاثة أرباعه مجرد ما يرد على الخاطر، فلا يسير الحديث فى خط واحد من التفكير... بل يكون فى الحقيقة كذلك المشى المرهق على حبل مشدود... والقاعدة أن كل حديث ـ ما لم يكن مع صديق أو بين عشقين ـ يترك تأثيرًا سيئًا فى النفس، ويسبب شيئًا من الانزعاج المعكر للصفاء النفسى. وعلى العكس من ذلك، فإن كل انشغال ذاتى للروح يترك أثرًا طيبًا فى النفس. فإذا ما تحدثت مع الناس، ألفت آراءهم فى الغالب خطأ أو سطحية أو غير مخلصة.. وإذا اختلفت مع الطبيعة أعطت الطابع الكامل الصادق الواضح لكل شىء تتكلم عنه، وراحت تعبر عنه بلغة روحها. وهى مشغولة دائمًا وكلية بأفكارها وملاحظاتها.. فحرية التفكير والكلام تسقط الأهمية الحقيقية والدور الضرورى لإدراكها تمامًا... وكان يعتبر الناس أكفاء له... وما كان عنده شىء يعدل فى قيمته الجمع التأملى للروح. وكان أكثر ما يجعله ينكمش من أسواق الحياة الصاخبة، هو تشتت الشعور الداخلى وتفرقه إلى الخارج، والضغط الذى تعانيه الناحية الخيرة من ذاتنا تحت وطأة الإرادة وقد امتلأت تمامًا بالأغراض السيئة أو عديمة الجدوى. كل ذلك أدى بقابليته الاجتماعية إلى النهاية... ولذا كان يسعد ويبتهج عندما تحتويه من جديد العزلة، أو عندما يلجأ إلى الطبيعة أو الدراسة.

---

(١) Thomas von Kempen,

إنسان الغابة

حدث فى سوق الخريف فى سنة ١٨٥٤ بفرنكفورت أمر نادر الحدوث فى أوروبا إذ عرض فى هذه السوق إنسان الغابة Orang Utan (Pithecus satyrus) ـ وكان شوبنهاور يزور كل يوم تقريبًا ذلك «الذى يبدو كأنه أصل جنسنا البشري»، الذى طالما يتشوق إلى التعرف به حتى بلغ السبعين من عمره تقريبًا. وأوصى أصدقاءه بعدم إضاعة هذه الفرصة، فمن المستحسن أن يذهبوا اليوم لرؤيته بدلًا من الغد، إذ قد يموت فى الغد. وكان يسترعى انتباهه نظرة ذلك الحيوان إذ لم تكن به نزعة للشر، وإن رأسه وجبينه وصدغيه كانت أحسن شكلًا من أدنى جنس من جنسنا البشرى. ولم تكن تصدر عنه تعبيرات حيوانية. وتمثل فى هذا الحيوان الحزين الغريب؛ اللهفة إلى الطبيعة، وهى تشكل الإرادة للمعرفة؛ كما لو كان قد أحب أن يقارن بين نظراته وتلك التي للنبي فى أرضه المحبوبة.

الناسك

لا أنسى أبدًا صديقى الذى كان معى عندما رأينا ذات مرة صورة ب. رانسيه B.Rancèe، «الراهب فى المصيدة» La Trappe؛ فأشاح الصديق بوجهه الذى ارتسم عليه الألم وقال: إن المسألة مسألة كياسة! لقد تظاهر الصديق بإنه لا بد أن يبدو أكثر من راهب مهذب، لا زاهد، ناهيك أن يكون قديسًا! ولكن ذلك الذى لا يعرف كيف يفرق بأية وسيلة بين النظرية والحياة، وبين الإدراك والفعل؛ قد يكون رجلًا طيبًا، ومتدينًا حقيقيًا؛ ولكنه ليس فيلسوفًا. ويجب أن يدع فيلسوفنا وشأنه.

والآن لنتدبـر أولًا الأسـس التـى تقـوم عليهـا شـخصيته وعزلتـه. إن إنسـانًا قـط لـم يشـعر ـ رغـم وجوده وسـط المجتمـع وعلمه بسـلوك هـذا المجتمع ـ بمثـل شـعور الوحـدة الـذى كان شـوبنهاور يعانيـه. بـل يعـد النسـاك الهنود أكثـر قابليـة للاجتمـاع بالنـاس مـن شـوبنهاور؛ لأن العزلـة عنـد هـؤلاء تقـوم علـى دوافـع علميـة أمـا هـو ـ فعلـى عكـس ذلـك ـ تنجـم العزلـة عنـده عـن المعرفـة. ولـذا بلـغ هـذا الإحسـاس قـوة شـديدة فـى شـعوره ممـا لا يمكـن مقارنتـه بالانعـزال عـن العالـم الخارجى.

الخـــوف

أمـا بالنسـبة لصديقنـا فقـد قامـت الطبيعـة بأكثر ممـا ينبغـى؛ وذلك بأن عزلـت قلبـه وملأتـه بالشـكوك والضيـق والعنـف والكبريـاء بقـدر لا يمكـن أن يتكافـأ مـع رواقيـة الفيلسـوف. وقـد اسـتقر فـى أعماقـه الخـوف الـذى ورثـه عـن أبيـه، وأخـذ يكافـح ضـد هـذا الخـوف طـول حياتـه بـكل مـا فيـه مـن قـوة إرادة، ولكـن الخـوف كان يتغلـب عليـه مـن وقـت إلـى آخـر حتـى فـى مناسـبات تافهـة، إلـى حـد أنـه كان يتمثـل أمـام عينيـه كارثـة لا يمكـن حدوثهـا وكأنهـا حقيقـة واقعـة. ولقـد زاد خيالـه الخصـب مـن هـذه القـدرة أحيانًـا إلـى حـد يصعـب تصديقـه. وعندمـا كان فـى السادسـة مـن عمـره، عـاد أبـواه مـن نزهـة لهمـا فوجـداه فـى حالـة يـأس تـام لأنـه أعتقـد فجـأة أنهمـا هجـراه إلـى الأبـد. وفـى شـبابه وقـع فريسـة لتخيـلات عـن الأمـراض والمشـاجرات مـع الآخريـن.

وعندمـا اندلعـت نيـران الحـرب فـى ١٨١٣ خيـل لـه إنـه سـيضغط عليـه مـن أجـل الخدمـة العسـكرية. وانتزعـه الخـوف مـن الجـدرى مـن نابولـى والخـوف مـن الكوليـرا مـن برليـن. وعندمـا كان فـى فيرونـا اسـتبد



بـه الاعتقـاد بأنـه قـد تنـاول مـادة سـامة. واشـتد عليـه الشـعور بالخـوف وهـو يتـرك مانهايـم دون أى سـبب. واسـتمر بضـع سـنوات تـراوده المخـاوف بشـأن القضيـة حـول موضـوع برليـن التـى ذكرناهـا مـن قبـل، وفقـدان ملكه، والمنازعـات حـول تقسـيم الميـراث بينـه وبيـن أمـه، وكان إذ سـمع ضوضـاء فـى الليـل نهـض فـى فـزع مـن فراشـه، وأمسـك سـيفه ومسدسـه الـذى كان محشـوًا دائمًـا. كمـا كان فـى قلـق نفسـى دائـم دون مـا سـبب، ممـا كان يجعلـه يـرى الأخطـار بـل يأخـذ فـى البحـث عنهـا وأن لـم يكـن منهـا شـىء قـط. وزادت هـذه فـى التصرفـات غيـر الملائمـة تجاهـه... وأحاطـت تمامًـا بـكل اتصالاتـه مـع النـاس.

وقـد أخفـى أشـياءه القيمـة، علـى نحـو أن بعضهـا رغـم التعليمـات التـى وضعهـا باللغـة اللاتينيـة للدلالـة عليـه فـى وصيتـه، كان مـن الصعـب العثـور عليهـا. ولـم يكـن يكتب أى شـىء خـاص بأملاكـه أو تدبيره المنزلى أو شـئونه الخاصـة باللغـة الألمانيـة؛ بـل كان يكتـب حسـاباته بعـد عودتـه مـن إيطاليـا باللغـة الإنجليزيـة، أمـا الأمـور المهمـة، فـكان يكتـب ملاحظاتـه عنهـا باللغـة اللاتينيـة أو اليونانيـة. وليحمـى نفسـه مـن اللصـوص، اختـار إشـارات تبعـث علـى الضيـق، واحتفـظ بأسـراره على صورة تركيبـات الأدوية السـرية، كما كان يكتـب أربـاح أوراقـه المالية بصفـة خاصة بالحـروف القديمة وفى الكراسـات الموسـيقية. وكان يضـع القطـع الذهبيـة كالرقوبـة (بيـض العـش) تحـت المحبـرة التـى فـى مكتبـه. ومـا كان ليأتمـن موسـى الحـلاق؛ وكان يجعل معه دائمًـا كوبًـا مـن الجلـد حتـى لا يتعـرض للعـدوى حينمـا يشـرب فـى الأماكـن العامـة. وكان يحفـظ غليونـه بعـد اسـتخدامه فـى حـرص شـديد. (وقـد نجـد بعـض الصفـات المشـابهة ممـا لا يتصورهـا العقل لـدى بعض العظمـاء، ولدى



«كانـت» بصفـة خاصـة). وكان يخشـى أن يشـتبه فـى وفاتـه، ولـذا أوصى بأن يدفـن عنـد وفاتـه فـى قبـر مفتوح لمـدة أطـول مـن المعتاد.

احتقاره للنـاس

كان يقـارن معظـم النـاس بالبنـدق، الـذى يبـدو كأنـه بنـدق حقيقـى، وفـى الحقيقـة لا يمكـن أكلـه.. فالنـاس العاديـون يبـدون كالبشـر؛ ومـا رأيـت أكثـر منهـم شـبهًا بالبشـر. والكثيـر منهـم خليـط مـن الخبـث والغبـاء، ممـا يصعـب أن يختلـف معهـم كثيـرًا. وأكثـر الأوصـاف انطباقًـا عليهـم هـو الوصـف الإنجليـزى «وغـد كئيـب». وقـد كتـب جيتـه فـى مفكراتـى معبـرًا عـن رأيـه، فقـال:

إذا كنت تريد أن تستمتع بقيمتك،

فعليك أن تضفى على العالم قيمته

«ولكنـى أفضـل تفكيـر شـمفور إذ يقـول: «إن الأفضـل تـرك النـاس كمـا هـم، وعـدم أخذهـم بمـا ليسـوا عليـه». وإذا مـا فكـر بالفرنسـية، كان يقـول: Rien de siriche qu'un grand soi- meme! «ليـس الغنـى شـىء كعظمـة الـذات». وكان كل اتصـال لـه بالنـاس فـى أيـام نضجـه ملـوث وذليـل. فقـد كان قائمًـا علـى أسـاس أن أحكـم النـاس هـو الـذى يتصـل بهـم طـوال حياتـه بقـدر أقـل مـن اتصـال سـواه بهـم. ولقـد أبـدى جيتـه أسـفه فـى ـ ايكرمـان ـ علـى عكـس ذلـك. ويجـب علـى المـرء أن يعتقـد فى قـرارة نفسـه، وأن يبقى هـذا اعتقـادًا مائـلًا أمامـه، أنـه جـاء إلـى هـذا العالـم، الـذى تسـكنه كائنـات تعسـة خلقيًـا وعقليًـا لا ينتمـى إليهـا المـرء، ممـا يوجـب عليـه أن يتحاشـاها، وعليـه أن ينظـر إليهـا ويفعـل كمـا يفعـل البراهمـة مـع السـودرا والباريـا.

الزوليـــــة[1]

كانـت أهميـة الرجـل العقلـى والرجـل الخالـد فيـه عظيمـة إلـى درجـة تفـوق أهميـة الرجـل الفـرد فيـه إلـى حـد كبيـر، تختفـى معـه علـى الفـور أيـة أحـزان شـخصية مهمـا كانـت كبيـرة، إذا مـا اسـتثيرت فكـرة فلسـفية؛ لأن مثـل هـذه الفكـرة الفلسـفية غالبًـا مـا تكـون بالنسـبة لـه غايـة فـى الجديـة، ومـا عداهـا يكـون علـى العكـس مـن ذلـك. وهـذه هـى علامـة نبـل الطبيعـة وحريتهـا.. ويتألـف حـظ الرجـل العـادى مـن التغير الـذى يحدث بيـن العمل والمتعـة، فبالنسـبة لـه يكـون كلاهمـا علـى العكـس مـن ذلـك أمـرًا واحـدًا. ولـذا كانـت حيـاة النـاس الذيـن ينتمـون إلـى نفـس نوعـه زوليـة منطقيـة. ويصيـر رسـل الحقيقـة إلـى البشـرية، أمثاله، بعـد أن يفهموا أنفسـهم ـ أناسًـا عادييـن إلـى جانـب رسـالتهم، مثلهـم فـى هـذا مثـل المبشـرين فـى الصيـن الذيـن يآخـون الصينييـن. والرجـل الـذى مثلـه ـ طالمـا ظـل شـابًا ـ يشـعر أنه غريـب عـن ظـروف الحيـاة شـأنه فـى ذلـك شـأن مـن يرتـدى ثيابًـا لا تلائمه.

الوهج الخامد

وهنـاك مـا هـو أكثـر من الاعتـراف بقـوة روحـه، وهـو التحـرر التدريجى مـن سـلطان «الإرادة» الـذى بـدأ مـع اكتفائـه عنـد بدايـة الشـيخوخة. وليـس سـوى رجـل مثلـه، ذلـك الـذى لـه هـذا النشـاط غيـر العـادى فـى المـزاج، ولـه هـذه السـيطرة غيـر الطبيعيـة علـى الرغبـات، ولـه فـى نفـس الوقـت هـذا النمـو المذهـل لحياتـه العقليـة.. يمكـن أن يشـعر بالتخلـص النهائـى مـن القـوة الشـيطانية للحساسـية. وفـى هـذا الموضـوع، وهـو فـم الشـيخ

(١) الزولية مسرحية يمثلها شخص واحد.



الـذى امتـلأ بالأفـكار السـامية والمشـاعر التـى تمـس الأعمـاق. ذلـك، الـذى تتجمـع نظريتـه فـى سـلبية الإرادة؛ ذلـك، الـذى يعتبـر فـى تهـور أن معرفـة المـرء نفسـه هـى الأنقـى والأنبـل، وإنهـا الأعلـى والأخيـرة، وأنـه قـد مارسـها وأثنـى عليهـا؛ ذلـك، الـذى يـرى وهـو يبتسـم تلـك النـار تنطفـئ فـى بـطء بعـد أن اشـتعلت فـى عروقـه أمـدًا طويـلًا وتصبـح فقـد الرغبـات لديـه أعلـى درجـات اللـذة. لقـد قـدر قبـل كل شـىء أنـه سـعيد مـع سـوفوكليس لأنـه يسـتبعد نفسـه مـن فـخ أفروديـت، إذ لا تقـف مباهـج الشـباب عنـده موقـف الضعـف. وكـم يشـكو الشـاعر هيدرليـن Höderlin فـى منظومتـه سـير الحيـاة Lebenslauf «مـن أن الحـب يجذبنـا جميعًـا إلـى أسـفل»، لأنـه يمثـل الرجـل الـذى تعمـل فيـه «إرادة الحيـاة» بقـوة فائقـة كثيفـة.. وتنهـد مـع لـورد بايـرون دومًـا علـى أنـه ممـا يصعـب عليـه تمامًـا أن ينفصـل عـن النسـاء، بينمـا يجـد الانفصـال عـن الرجـل غايـة فـى السـهولة. وكلمـا نظـرت إلـى الرجـال كلمـا قـل حبـى لهـم، فياليتنـى أسـتطيع أن أقـول ذلـك عـن النسـاء أيضًـا حتـى يكـون ذلـك أفضـل.. (بايـرون، رسـائل ومذكـرات لمـور Th.Moore جـ١، ص ٤٩٩).

الاقتصـــــاد

لمـا كان لديـه حـظ فـى أن يتمتـع بالحريـة، وحـظ فـى رؤيـة الفجـر، والقـدرة علـى أن يقـول: هـذا لـى! فقـد فضـل كل هـذا علـى مـا عـداه، إذ اتفـق مـع شينسـتون فـى الـرأى بـأن الحريـة أفضـل ممـا عداهـا. وكان معقـولًا ومقتصـدًا فـأدار أملاكـه طبقًـا لمبـدأ شيشـرون Cicero الـذى يقـول بـأن الاقتصـاد هـو إيجـاد مصـدر كبيـر للدخـل Magnum vec-tigal parsimonia. وكان الإسـراف فـى نظـره أرذل مـن التقتيـر؛ ولكـن

مـن الخطـأ أن يعتبـر بخيـلًا. ولـم يكـن يراعـى نفسـه فحسـب، عندمـا كان لا يـدع شـيئًا يفوتـه؛ بـل كان يفعـل الخيـر كذلـك بشـكل غيـر طبيعـى بالنسـبة لظروفـه لإشـباع الحاجـات الغريبـة ـ وخاصـة فـى الأحـداث ـ ومـا كان ليـدع فرصـة تمـر دون أن يسـاهم بنصيبـه؛ ولـم يكـن يخشـى القيـام بتضحيـات أكبـر إذا كان الأمـر يتطلـب مسـاعدة. ولقـد ظـل عـدة أعـوام يسـاعد أقربـاءه الفقـراء، كمـا جعـل وريثـه الوحيـد منظمـة خيريـة.

اللغة الألمانية

ولـم يكـن قـد تخلـص مـن شـىء قـدر تخلصـه مـن الكبريـاء القوميـة، وإن كان قـد أوضـح أن وطنيتـه محـدودة باللغـة الألمانيـة التـى صـارت أذنـه فـى أيـام الشـباب ـ كمـا قـال مـن قبـل ـ غيـر معتـادة عليهـا طـوال السـنتين اللتيـن أقامهمـا فـى فرنسـا، بحيـث اضطـر إلـى إعـادة تعلمهـا مـرة أخـرى. وبـدت لـه اللغـة غريبـة وغيـر متناسـقة، بـل وجـد فيهـا صعوبـة شـديدة فى ذلـك الوقـت، ولكنهـا أثارتـه لهذا السـبب فدفعته قوتهـا وروعتها إلـى الكتابة وخاصـة عندمـا راح يقـرأ أشـعار جيتـه التـى لا يمكـن نقلهـا. أمـا مـا عـدا ذلـك، فقـد كان يشـعر بالخجـل ـ شـأنه فـى ذلـك شـأن كثيـر مـن العظمـاء ممـن سـبقوه ـ إذ يكـون ألمانيـا ثـم يسـمح لنفسـه بـأن يفكـر فـى تفضيـل أصـل أسـلافه الهولندييـن. وهكـذا كان الرجـل النشـيط فيه يخالفه فـى الزهو وفـى التقليـد حيـث كان دومًـا يلـوم الآخريـن بـلا هـوادة علـى مـا قـد يغـض البصـر عنـه فـى الأمـم الأخـرى أو قـد يجـد أنـه ممكـن السـكوت عليـه.

ولقـد كانـت النظـرة العالميـة للفيلسـوف، بعيـدة عـن هـذه الوطنيـة. ولـم يكـن مـن الممكـن إثارتـه بالحديـث فـى السياسـة، طالمـا ظـل موضـوع



الحديـث قاصـرًا عليهـا، وكانـت الموضوعيـة المفيـدة هـى التـى سـمت بـه فـى نظرتـه العريضـة إلـى مصالـح العصـر، وجعلـت حكمـه يبـدو ولـه مـا يبـرره ـ وإن كان مـن جانـب واحـد.

الصــــباح

كان «كانـت» هـو مثلـه العـام فـى الحيـاة الخارجيـة، ولكـن ليـس فـى كل شـىء؛ إذ كان لا يـرى مـن بيـن العـادات العديـدة لهـذا الرجـل العظيـم، سـوى الاعتبـار المفـروض للتكويـن الضعيـف، بينمـا كان هـو نفسـه «الحسـن النشـأة الموفـور النعمـة» كانـت لـه ثقـة أكبـر فـى نفسـه.

ولـم يكـن مغرمًـا بالتبكيـر فـى اليقظـة، حيـث إن النـوم الطويـل ضرورى للمفكريـن؛ فـكان يسـتمتع فـى شـيخوخته بنـوم عميـق. ومـع ذلـك، فقـد كان يفضـل أن يكـون عنيفًـا مـع نفسـه، فيقصـر سـاعات الصبـاح الغاليـة وأن ظـل يكثـر مـن النـوم. فـكان يبـرح فراشـه بيـن السـاعة السـابعة أو الثامنـة صباحًـا سـواء فـى الصيـف أو الشـتاء، ويغتسـل بالمـاء البـارد مسـتعملًا أسـفنجة ضخمـة فـى غسـيل القسـم العلـوى مـن جسـمه، وإلـى جانـب هـذا، وطبقًـا لمـا يقتضيـه ذلـك الفصـل مـن السـنة، كان يسـتحم بالمـاء البـارد أو السـاخن. وكان يعتنـى بعينيـه، وهمـا أغلـى مـا فـى أعضائـه عنـده، عنايـة خاصـة؛ إذ كان يغسـلهما وهمـا مفتوحتـان عـدة مـرات حيـث كان يعتقـد أن هـذه الطريقـة تقـوى أعصـاب العينيـن تمامًـا. وظـل حتـى سـن متأخـرة يضـع علـى عينيـه منظـارًا، أمـا عندمـا لـم تعـد بـه حاجـة إلـى «القيـام بغـزوات جديـدة أو يسـتخدم عينيـه لفتـرات طويلـة»، فقـد نحـاه جانبًـا واكتفـى باسـتخدام منظـار يـدوى مكبـر. وكانـت عـادة كبـس



عدسته المفردة أمام إحدى العينين، بالنسبة له، دليلًا خاصًا على سخف ذوى الرجلين!

وكان يجلس فى ذلك الوقت لشرب القهوة التى كان يعدها بنفسه. وكان قد أصدر تعليماته إلى مدبرة بيته بألا تدعه يراها فى ساعات الصباح الأولى؛ ذلك حتى يستطيع تركيز أفكاره فى تلك الساعات حيث يكون المخ مركزًا للغاية، وأشبه بآلة تبدأ فى الدوران للتو ـ أما القول بأن الكزندر فون هومبولت Alexander v.Humboldt كان يستعمل هذه الساعات الثمينة من النهار فى كتابة الخطابات والأعمال التافهة الأخرى، بينما كان على العكس من ذلك يعمل بالليل بعد عودته من الديوان.. كان ذلك بالنسبة له إشارة عن الأعمال المتأخرة لهذا الرجل الذى وضعوه بالفعل بين الآلهة وهو ما زال حيًا. وهذا النقص فى القدرة البشرية على الإدراك كان يصوره فى مثل هذه الفرص مخالفًا جدًا للألوان الأوضح.

وكان يقضى ساعات ما قبل الظهر فى هذا التركيز الروحى. وفى السنوات الأخيرة كان يقبل زواره فى النصف الثانى من الساعات الصباحية. وكان استغراقه فى الحديث ينسيه مرور الوقت، فكانت مدبرة المنزل تظهر إذا ما انتصف النهار وتعطيه إشارة بانتهاء الزيارة. وقبل أن يتزين، اعتاد أن يعزف ساعة على الناى.

الظهر وبعد الظهر

وكان يذهب إلى المنضدة فى تمام الساعة الواحدة بعد الظهر. وظل طوال حياته معتمدًا على مائدة المطعم إلا أنه لم يستطع أن يعود نفسه الجوانب القاتمة فيه إذ كان يكره للغاية ضوضاء العملاء



الآخريـن، وصخـب الأطبـاق، وضجيـج الخـدم؛ ولكـن شـدة هـذه الضوضـاء خفـت عندمـا ثقـل سـمعه فـى النهايـة.

وكانـت لـه شـهية مفتوحـة جـدًّا، ولكنـه لـم يـرد أن يعـرف شـيئًا عـن ماكروبيوتيـك كورنـارو Makroboitik Cornaro. وكان كل مـن كانـت وجيته يشـبهونه فـى أنهمـا كانـا يـأكلان كثيـرًا وأنهمـا عاشًـا طويـلًا. وكانـت الحكمـة الأثيـرة عنـده عـن الطعـام هـى: الموازنـة بيـن اسـتنفاد الجهـود وتعويضهـا. ومـن ثـم، لـم يفتـه أن يقـوم دائمًـا بالحركـة.

وقـد ظـل يشـعر بنقـص رفـاق المائـدة المناسـبين. ولـذا كان يعـود إلـى بيتـه فـور تنـاول طعامـه، فيشـرب القهـوة ويغفـو سـاعة. ويشـغل القسـم الأول مـن سـاعات العصـر بقـراءة الكتـب الخفيفـة. فـإذا قـارب المسـاء اصطحـب كلبـه، وخـرج للنزهـة فـى الهـواء الطلـق. وكان يختـار عـادة لهـذه النزهـة الطـرق الريفيـة المنعزلـة؛ أمـا إذا كان الجـو سـيئًا فكان يقصـر نزهتـه علـى الشـوارع المحيطـة بالمدينة. وكانـت جولته هـذه مليئة بالمرونـة والسـرعة حتـى السـنين الأخيـرة مـن حياتـه، وبقـى جسـمه بهـذه الرياضـة فـى حركـة دائمـة. واعتـاد أن يحمـل معـه عصـا خيـزران كثيفـة وقصيـرة، يلمـس بهـا سـطح الأرض مـن حيـن إلـى آخـر. وإذا مـا بلـغ ظاهـر المدينـة أشـعل سـيجارًا خفيفًـا كان لا يدخـن منـه ألا النصف فحسـب. وكان أحيانًـا يقـف، ويتطلـع حولـه، ثـم يعـود إلـى سـيره السـريع، بينمـا تصـدر عنـه أصـوات غيـر مفهومـة ـ ولقـد جعلتـه هـذه العـادة مـن التعبيـر فـى صـوت جهـورى عـن إحساسـاته الدمويـة الشـديدة دون أن يخفـف مـن حـدة الصـوت.. جعلتـه موضـع شـك المـارة.

ولكنــه مــا كان يلتفــت يمينًــا أو يســارًا، بــل كان يحتــاج إلــى منظــاره لتقديــر المســافات تقديــرًا صحيحًــا. كذلــك مــا قيــل مــن أنــه لــم يكــن يــرد التحيــة ليــس صحيحًــا؛ فعلــى العكــس مــن ذلــك، كان يــرد التحيــة دون أن يرفــع عينيــه إلــى ذلــك الــذى يحييــه. أمــا الغربــاء عنــه تمامًــا، فــكان يرفــع قبعتــه وينحنــى لهــم كل الانحنــاء تمشــيًا مــع المبــدأ الــذى رســمه لنفســه «أعــط العالــم حقــه بالانحنــاء».

وكان يفضــل أن يبقــى وحــده فــى هــذه الجــولات، لأنــه كان يــرى مــع «كانــت» أن أفضــل طريقــة لاستنشــاق الهــواء هــى إغــلاق الفــم؛ فضــلًا عــن أنــه كان يريــد أن يكــون اتصالــه بالطبيعــة اتصــالًا لا يقلقــه أو يعطلــه شــىء إذ كان يحــس وهــو مــع الطبيعــة أنــه مــع «الحقيقــة العامــة» التــى تدعــه فــى مأمــن مــن تلــك «الخــدع» التــى تســود المجتمــع البشــرى.

فاجنر وبيتهوفن

رفــض «موســيقى المســتقبل» رفضًــا باتًــا بعــد أن ســمع «الهولنــدى الطائــر». وبالرغــم مــن إنــه كان يعتبــر ريشــارد فاجنــر مــن المعجبيــن بــه إعجابًــا خاصًــا، فإنــه لخــص حكمــه أخيــرًا فــى هــذه العبــارة «إن فاجنــر لا يعــرف، مــا هــى الموســيقى».

وكان شــوبنهاور يتــذوق الموســيقى ويتغــذى بهــا حتــى أنــه لــم يهملهــا قــط طــوال حياتــه. فعندمــا كان يســمع ســيمفونيات بيتهوفــن، يجلــس بــلا حــراك وهــو مغمــض العينيــن منــذ البدايــة حتــى النهايــة. ثــم يخــرج مباشــرة مــن قاعــة الموســيقى، حتــى لا تضعــف الانطباعــات بمــا قــد يســمعه بعــد ذلــك مــن قطــع موســيقية.

التوفيــق

كان أثاثـه المنزلـى غايـة فـى البسـاطة. ولـم يشـتر أثاثًـا خاصًـا إلا بعـد تجـاوزه سـن الخمسـين. ولـم يكـن عنـده إلا إحسـاس قليـل بالراحـة أو الزخرفـة الجماليـة فـى الجـو المحيـط بـه. وكانـت غرفتـه تتـرك انطباعـات مـن التوافـق بحيـث لا يفكـر المـرء فـى أن يبقـى طويـلًا، فقـد كان مسـكن ضيـف غريـب عـن هـذه الأرض. وقبـل وفاتـه بعـام واحـد انتقـل إلى مسـكن جديـد بالمنـزل رقـم ١٦ بشـارع المنظـر الجميـل، حيـث كانـت غرفـة مكتبـه مـن الاتسـاع بحيـث ضمـت كل مكتبتـه. ومـن ثـم، بـدت لـه دافئـة متألقـة.

وعلـى منضـدة جانبيـة مـن المرمـر فـى أحـد أركان الغرفـة. التى شـهدت وفاتـه أيضًـا، وقـف تمثـال حقيقى مذهـب لبوذا. وعلـى مكتبه تمثـال نصفى لـ«كانـت»، وفـوق الأريكـة صـورة زيتيـة لجيتـه، وعلـى بقيـة الجـدران صـور كانـت وشكسـبير وديـكارت وكلوديـوس وصـور بعـض أسـرته، وصورتـه هـو فـى شـبابه، وصـوره فـى مراحـل عمـره المختلفـة، تحيـط بهـا صـور الـكلاب العديـدة التـى اقتناهـا طـوال حياتـه: فوليـت وريدينجـر وغيرهمـا. وأمـام الأريكـة منضـدة مسـتديرة أثريـة، وإلـى جـوار هـذه المنضـدة وعلـى فـراء دب أسـود يجلـس كلبـه. وفضـلًا عـن اسـمها الدنيـوى كان يطلـق عليهـا اسـمًا خفيًـا هـو «أتمـا» أى روح العالـم، لا يسـتعمله إلا المقربـون.

الشيخ المسن

كيـف تأمـل فـى طفولتـه هـذه الحيـاة، وكلـه دهشـة لسـرعة مـرور الأيـام، وهـذا العالـم الـذى يحافـظ الجـوع الجنسـى علـى روابـط أفـراده؟!

وكيـف عـارض وهـو فـى شـبابه الرغبـة الجنسـية خجـلًا، مخفيًـا عالمـه الداخلـى؟! وكيـف وقـف فـى رجولتـه يعارضهـا، فـى عنـاد وغرابـة ـ مبتعـدا عـن جمهـرة النـاس، ومتحـررًا مـن الأعمـال المربحـة!؟ وكيـف وقـف فـى شـيخوخته يتأمـل فـى عمـق مـا تحتـه وعينـه التـى تتقـد نـارًا، تبـرد وهـو مستسـلم بكبريـاء؟!

كل هـذا يسـتطيع المـرء أن يتبينـه: العزلـة الحزينـة، والتيـه الـذى لا حـد لـه فـى كيانـه، وسـخريته الصامتـة، وشـدة كبريائـه التـى أحـاط بهـا قلبـه وكأنهـا درع، والتـى كانـت تهـدد بتجميـد نفـس ذلـك القلـب؛ كـى تتضـح مكانـة الرجـل وتحفـظ لنفسـه الطابـع الجديـر بـه أمـام النـاس.

آخر حديث فى سبتمبر ١٨٦٠

فـى مسـاء ذلـك اليـوم، تحدثـت معـه للمـرة الأخيـرة. كان جالسًـا علـى الأريكـة ويشـكو مـن تقطـع ضربـات قلبـه، ولـم يكـن ثمـة شـىء ناقـص فـى قـوة صوتـه المعتـادة. وراح يقـرأ كتـاب دزرائيلـى Disraeli«عجائـب الأدب» Curiosities of Literature الـذى أتـاح لـه تسـلية خفيفـة، وكان قـد فتـح الكتـاب عنـد صفحـة المؤلفيـن الذيـن حطمهـم الناشـرون. وقـال باسـمًا: «لقـد أوصلونـى أنـا أيضًـا إلـى هـذا تقريبًـا». ولـم يكـن يهمـه قـط أن الـدود سـيأكل جثمانـه بعـد موتـه ولكنـه كان يفكـر فـى رعـب: كيـف سـتتخمر روحـه بيـن أيـدى أسـاتذة الجامعـة. وكان يسـأل عـن أحـدث أنبـاء السياسـة والأدب، وعبـر عـن أملـه فـى أن تسـتطيع إيطاليـا أن تسـترد وحدتهـا؛ ولكنـه سـلم بضـرورة اسـتبدال إيطاليـا القديمـة بأخـرى جديـدة.

وفيمـا يختـص بأنبـاء الأدب، فقـد تنـاول تعليقـات بـادر Baader علـى سـان Saint Martin مارتـن للطباعـة وعلـم علـى الأماكـن التـى يذكـره فيهـا



الناشـر. ثـم قـال لـى: «ولكـن هـل تسـتطيع أن تقـرأ مثـل هـذا؟». وكان يشـير إلـى صفحـة ٨٦ التـى فتحـت بالمصادفـة، «إن الإنسـان يعـدل ويوجـه إرادتـه، التـى يعتبرهـا مجـرد نفـس، إذا تلقاهـا، ويتلقاهـا إذا هـو أعطاهـا».

«وهنـاك فلاسـفة كثيـرون مجـردون وماديـون، نظريـون وعمليـون، ولكـن بـادر لا يحتمـل». وذكرتـه أن بـادر كان قـد أوصـى تلاميـذه فـى سـنة ١٨٢٨ وفـى سـنة ١٨٣٦ بدراسـة كتبـه، وبالرغـم مـن الاختلافـات الجوهريـة بيـن نوعـى التفكيـر لديهمـا، وأنـه فـى أثنـاء محاضراتـه عن يعقـوب بيمـه اعترف بـأن نظريـات شـوبنهاور تفضـل آراء بيمـه «فهـو فـى عملـه وإخلاصـه يتميـز عـن كثيـر مـن الفلاسـفة الآخريـن المعاصريـن، ممـن يكتبـون بنفـس الروح» (مجموعـة أعمـال فرانتـس فـون بـادر، مجلد ٣، صفحـة ٣٦٦)، فأجـاب: «هذا حـق، فأنـى أذكـر أنـه أحسـن الـكلام عنـى، ولكنـى لا أسـتطيع قبولـه». فـإن الفلسـفة التـى يمكـن قبولهـا مـن بيمـه وفى عصـره، لا يمكـن ـ فـى الحقيقة ـ أن تحتمـل فـى القـرن التاسـع عشـر. وفـى هـذا تفسـير للحكـم برفـض مثل هـذه الـروح القويـة. وأمسـى الليـل فـى أثنـاء الحديـث، وأشـعلت مدبـرة المنـزل الشـموع، لأنـه لـم يكن يحـب أن يحتجب ضـوء المصباح. واسـتطعت أن اسـتمتع بتلـك النظـرة المتألقـة والتـى لـم يكـن فيهـا مـا يشـير قـط إلـى مـرض أو شـيخوخة. وقـال إنـه لمـن التعاسـة أن يمـوت الآن، إذ لا تـزال ثمـة إضافـات مهمـة يريـد أن يضمهـا إلـى «الحواشـى». وأخـذ يتكلـم عـن تاريـخ هـذا الكتـاب الـذى جعلـه معروفًـا فـى دوائـر شاسـعة.

الشك والموت

وكان فـى هـذه التأمـلات، يـرق ويشـتد حماسًـا؛ كمـا اعتـدت أن أراه

دومًـا. ولـم أتركـه بمحـض إرادتـى الخالصـة، وإنمـا أردت أن يدخـر قـواه. ولـم يخالطنـى أى شـعور بأنـى أنظـر وقتئـذ إلـى عينـى الرجـل لآخـر مـرة، أو أنـى أضغـط علـى يـده للمـرة الأخيـرة. وقـال إنـه مـن المفيـد لـه فحسـب أن يفنـى فـى العـدم المطلـق؛ ولكـن المـوت ـ للأسـف ـ لا يتيـح الفرصـة لذلـك. فـلا مجـال إلا أن تسـير، كمـا تـود، وهكـذا كانـت لـه إحساسـات فكريـة صافيـة علـى الأقـل.

وفـى اليـوم التالـى، منعـت مـن رؤيتـه. ففـى ذلـك اليـوم، العشـرين مـن شـهر سـبتمبر، أصابتـه نوبـة قلبيـة بعـد أن نهـض مـن فراشـه، حتـى أنـه وقـع علـى الأرض وأصيـب فـى جبينـه. ولكنـه فـى أثنـاء النهار شـعر بتحسـن صحتـه ثانيـة، كذلـك مـرت الليلـة التاليـة بسـلام. ونهض فـى الصبـاح كعادته، واغتسـل بالمـاء البـارد، ثـم جلـس إلى المائـدة للإفطـار. وكانت مدبـرة البيت قـد فتحـت للتـو النافـذة لتـدع هـواء الصبـاح يدخـل إلـى الغرفـة ثـم تركتـه. وبعـد لحظـات دخـل الطبيـب فوجـده ميتًـا، مضطجعًـا إلـى الـوراء، وهـو جالـس إلـى زاويـة مـن الأريكـة؛ وكانـت قـد جاءتـه نوبـة رئويـة فرفعتـه بـلا ألـم مـن هـذا العالـم، ولـم يظهـر علـى ملامحـه تشـويه، أو أثـر لعـذاب. لقـد كان يرجـو دائمًـا أن يمـوت بسـهولة، ولا شـك أن ذلـك الـذى عـاش وحيـدًا طـوال حياتـه، يفهـم جيـدًا مسـألة الوحـدة هـذه أكثـر ممـا يفهمهـا سـواه.

وطبقًـا للوصيـة الأخيـرة، التـى كتبهـا وسـلمنى إياهـا، لـم تشـرح الجثـة، إذ عندمـا سـألته إذا مـا كان يرغـب فـى منـع ذلـك؟ قـال بعـد تفكيـر قصير: «نعـم» فـإذا لـم يعرفـوا شـيئًا قبـل ذلـك، فلـن يعرفـوا شـيئًا بعـد ذلك».



وأحيط الرأس بأكليل من الغار، فى اليوم الثالث والعشرين من سبتمبر، وعرض الجسد الميت ـ وفق وصيته ـ فى حجرة يخيم عليها سكون تام. ولم يحتفل بدفنه رسميًا إلا فى اليوم السادس والعشرين من سبتمبر ١٨٦٠.

وصية شوبنهاور
رقم ٤٣ لسنة ١٨٦٠

أنـا الموقـع علـى هـذا دكتـور الفلسـفة آرتـور شـوبنهاور مـن دانتسـيج والـذى لـم يتـزوج قـط وليـس لـه مـن صلبـه أقـارب البتـة، أوصـى بموجـب وصيتـى هـذه، بمـا يجـب أن يفعـل بممتلكاتـى بعـد وفاتـى.

يكـون وريثـى الوحيـد المنظمـة التـى أسسـت فـى برليـن لمسـاعدة الجنـود البروسـيين الذيـن أصيبـوا بالعجـز، والمجاهديـن الذيـن سـقطوا صرعـى فـى القتـال الـذى دار فـى ١٨٤٨، ١٨٤٩ فـى سـبيل المحافظـة وإعادة النظـام إلـى ألمانيـا. وفـى حالـة مـا إذا لم تكـن هـذه المنظمة موجـودة عند وفاتـى، فإنـى أعيـن بـدلًا منهـا مستشـفى العجـزة مـن الجنـود فـى برليـن وريثًـا وحيـدًا لـى. كذلـك يعيـن هـذا المستشـفى أيضًـا وريثًـا فـى حالـة مـا إذا كانـت القـدرة علـى توريـث المنظمـة سـالفة الذكـر موضـع شـك. ولكـن يعيـن المستشـفى المخصـص للجنـود العجـزة وريثًـا أيضًـا فـى حالـة مـا إذا كانـت الأحقيـة فـى التوريـث مشـكوكًا فيهـا، بالنسـبة لمنظمـة المسـاعدة السـالفة الذكـر، حيـث يكـون المستشـفى المخصـص للجنـود العجـزة مكلفًـا بتقديـم الممتلـكات الموروثـة لهـذه المنظمـة حتـى تسـتخدم فـى أغراضهـا.

ولكـن يخصـم قبـل ذلـك مـن ممتلكاتى مـا يخـص الوارثين الآتـى ذكرهم بعـد، دون أن يتأثـر ذلـك بالاسـتقطاعات الخاصـة بــ Falcidiscnen Quart أو أيـة اسـتقطاعات أخـرى.

أولًا: ابـن خالـى كارل جوتفريـت تيتـس Cari Gottfried Tietz الـذى مـات فـى سـنة ١٨٣٣ فـى دانتسـيج عـن ثلاثـة أبنـاء أحيـاء هـم:

١ ـ كارولـيـن أميلـى واسـمها بعـد الـزواج جريشـوف Caroline Emilie verechelichte Grischow

٢ ـ كارل أوجسـت تيتـس Carl August Tietz وهـو الآن صـف ضابـط متطـوع.

٣ ـ يوليانه آمالى تيتس Juliane Amalie Tietz

أتـرك لهـؤلاء الثلاثـة معًـا علـى الشـيوع تسـعى أراضـى شـوبنهاور، التـى املكهـا فـى أورا Ohra قـرب دانتسـيج، ومسـجلة تحـت رقـم ١٨ فـى الرهـن العقـارى. وكل واحـد مـن هـؤلاء الورثـة لا بـد أن يقـدم وثائـق زواجـه طبقًـا لعائلاتـه، فـإذا لـم توجـد بعـض هـذه الوثائـق، تقـارن بعضهـا ببعـض علـى ضـوء هـذه الوصيـة. وإذا لـم يكـن أحـد مـن هـؤلاء الورثـة حيًـا، أو مـن يحلـون محلـه، انتقلـت أنصبتهـم إلـى وريثـى الوحيـد.

ثانيًـا: أتـرك لهـؤلاء الثلاثـة الذيـن ذكرتهـم ألـف «تالـر» بروسـى لـكل منهـم، فـإذا كان واحـد فقـط هـو الـذى بقـى حيًـا أخـذ نصيبـى أخويـه، ومع ذلـك فهـذه الوصيـة شـخصية بحتـة ولا تسـرى علـى أعقابهـم، أو أى ورثـة آخريـن. فـإذا كان الثلاثـة جميعًـا قـد ماتـوا قبـل وفاتـى تذهـب أنصبتهـم إلـى وريثـى الوحيـد.

ثالثًا: فـى حالـة مـا إذا كانت أم هـؤلاء الأولاد ـ أرملـة أ. س. تيتس، (والتى كانـت أرملـة رايتـش Reitsch سـابقًا) والتى ولدت باسـم مايير Meier ـ حية عنـد وفاتـى، فإنـى أتـرك لهـا خمسـمائة تالـر بروسـى وهـى وصيـة شـخصية بحتـة، لا تـؤول إلـى أحـد مـن عقبهـا أو ورثتهـا الآخريـن. وفـى حالـة مـا إذا كانـت قـد ماتـت يذهـب نصيبهـا إلـى وريثـى الوحيد.

رابعًـا: للخادمــة التــى تعمــل فــى خدمتــى الآن مرجريــت شــنيب Margarette Schnepp مـن هيدلبـرج أتـرك فـى حالـة مـا إذا كانـت لا تـزال فـى خدمتـى عنـد وفاتـى مـا يأتـى:

ـ كل مـا لـدى مـن فضـة وثيابـى الخارجيـة والداخليـة وكل مـا فـى بيتـى مـن أثـاث وفـراش ماعـدا مكتبـى.

ـ معاشـا سـنويًا قـدره ١٠٥ تالـر بروسـى تدفـع لهـا مـن فوائـد الثلاثـة آلاف تالـر مـن قـرض الحكومـة البروسـية وفائدتـه ٣,٥ فـى المائـة وتـودع فوائـد القـرض فـى مكاتـب الإيجـارات هنـا، وتدفـع لهـا هـذه الفائـدة مرتين سـنويًا. وبعـد وفاتهـا تسـلم مسـتندات قـرض الحكومـة سـالفة الذكـر لوريثى الوحيـد. ولكـن فـى حالـة احتمـال أن ينخفض سـعر فائـدة هذه المسـتندات، فـإن المعـاش المقـرر وقـدره ١٠٥ تالـر بروسـى يكمـل مـن رأس مـال هـذه المسـتندات طالمـا ظلـت شـنيب علـى قيـد الحيـاة. أمـا إذا لـم تكـن وقـت وفاتـى علـى قيـد الحيـاة أو كانـت قـد خرجـت مـن خدمتـى بسـبب يرجـع إلـيَّ أو إليهـا، فـإن الوصيـة الخاصـة بهـا تعتبـر لاغيـة.

ـ كمـا تتقاضـى هـذه الخادمـة منـذ وفاتـى وإلـى أن يصـرف لهـا أول معـاش سـنوى مبلـغ ٤٠ تالـر شـهريًا مـن ثروتـى الخاصـة ويضـاف إليـه ٣٠ كرويتـس يوميًـا كمصـروف يومـى.

خامسًا: بمقتضى هذا أعين دكتور القانون مارتن ايمدن Dr. Martin Emden منفذًا لوصيتى، فهو الذى يشرف على إيداع السندات لصالح خادمتى (البندين ٢ و ٤) فى المكان الذى حددته. وأوصى للدكتور المذكور بمكتبى أى جميع كتبى بما وضعت عليه من أرفف وجميع التحف الفنية والتماثيل واللوحات والرسوم والأدوات الرياضية والطبيعية والموسيقية والنوت الموسيقية وأسلحتى والعصى وساعتى الذهبية بسلسلتها ودلاياتها الذهبية وكل الأشياء الذهبية ماعدا العملة ومنظار الأوبرا والمنظار العادى. ولكن يستثنى من هذه الأشياء الصغيرة. وإذا لم يكن الدكتور ايمدين حيًا عند مماتى تلغى وصيتى بالنسبة له ولا تذهب إلى ورثته. وفى هذه الحالة يتولى مهمته منفذًا آخر تعينه المحكمة ليقوم فقط بالأعمال التى كان الدكتور ايمدين سيقوم بها.

سادسًا: أترك لدكتور الفلسفة ى. فراونشتيت Dr. phil J.Frauenstädt وهو الآن فى برلين ـ مخطوطاتى العلمية جميعها والأوراق التى تتخلل كتبى وتتضمن الإضافات إليها، وكل أعمال ومخطوطات «كانت» وتمثال «كانت» ودبوس صدرى ذا الفص الزبرجدى، ووصيتى شخصية، وفى حالة ما إذا كان قد مات قبل وفاتى تؤول الوصية إلى دكتور القانون ايمدين.

وفيما بعد إضافة تلحق بهذه الوصية.

سابعًا: أترك لمكتبة بلدية فرانكفورت المصورات الموقع عليها من الخلف بالحروف ف. س. ب. F.S.B.

ثامنًا: الكلب الذى يكون فى حيازتى عند مماتى يمكن أن تأخذه

الخادمـة المشـار إليهـا إذا هـى وعـدت بالمحافظـة عليـه ورعايتـه بنفسـها وألا تتنـازل عنـه لشـخص آخـر. فـإذا لـم تشـأ هـذا، قـام الدكتـور ايمـدن بهذا العمـل فـى سـبيل الصداقـة حتـى النهايـة الطبيعيـة للكلـب كمـا وعدنـى بذلـك. والـذى يأخـذ الكلـب مـن هذيـن الشـخصين يأخـذ مـن ثروتـى مبلـغ ٢٠٠ جولـدن (قطعـة فضيـة) فـورًا. وهكـذا تنتهـى وصيتـى التى أضيـف إليها فيمـا يلـى ملحقًـا آخـر:

ـ يخصـم مـن ثروتـى قبـل كل شـىء مـا قـد أكـون مدينًـا بـه، وهـو شـىء لا بـد أن يكـون يسـيرًا، إذ أنـه مـن عادتـى أن أدفـع كل شـىء فـورًا. ومـن ثـم فهـو لـن يتجاوز قيمـة إيجار ٣ أشـهر عـن المسـكن، ومبلغ اشـتراك شـهر واحـد فـى المطعـم، وقيمـة فواتيـر المكتبة لمدة سـتة أشـهر عـن ثمن كتـب؛ ومثـل ذلـك لحائـك الثيـاب، وصانـع الأحذيـة، والخادمـة الموجـودة وقتئـذ. كمـا يخصـم مـن ثروتـى قبـل كل شـىء، تكاليـف دفنـى الـذى يجـب أن يكـون محترمًـا، فالصنـدوق يجـب أن يكـون مـن خشـب السـنديان القوى، والمقبـرة يجـب أن يشـتريها الدكتـور ايمـدن فـى مـكان فاخـر، وأن يكـون القبـر نفسـه مـن المرمـر والأفضـل لـو كان مـن الجرانيـت، وينقـش عليـه اسـمى فحسـب، فـلا تاريـخ ولا صفـات، بـل الاسـم المجـرد. وكل التكاليـف التـى يقـول الدكتـور ايمديـن أنـه دفعهـا قبل فتـح هـذه الوصية لهـذا الغرض تدفـع لـه فـورًا وبـلا مناقشـة.

ـ أمـا بصـدد مزرعتـى ومكانهـا فسـيوجد وصفهـا وكل المعلومـات الخاصـة بهـا علـى صفحـات كتـاب الدخـل والمنصـرف الخـاص بـى، فـإذا لـم توجـد المعلومـات كلهـا فـى صفحـة واحـدة فـكل مـا لـم يكـن مشـطوبًا منهـا فهـو صحيـح. والمعـاش السـنوى المسـتحق لـى فـى باريـس لا يدفـع إلا فـى أثنـاء حياتـى، وتدفعـه شـركة التأميـن العامـة فـى باريـس



حيث يعنى السيد ب. هـ ـ جولد شميت B.H Goldschmidt بتحصيل الأموال المستحقة بى.

ـ وقيمة التأمين المستحقة فى إنجلترا ستدفع بعد وفاتى وسيبلغ عندئذ ١٠ بنس ١٨ شلن ١٧ جنيهًا عند شركة سنكنج Sinking Fund وسيحصله لى دوكسات وشركاه .Doxat & Co فى لندن. ولى عند شركة تأمينات برلين مبلغ ٣٠٠٠ تالر بروسى وفائدته ٦ فى المائة سنويًا، وستحصله لى شتيجليتس وشركاه .Stieglitz & Coوهذا المبلغ يذهب إلى ورثتى أما الفوائد فليست فى حاجة إلى إثبات.

ملحق:

أترك للذى ذكرته فى البند الرابع وهو الدكتور ى. فراونشتيت جميع حقوق نشر مخطوطاتى السابقة إذ أن الناشرين قد تخلوا عن هذه الحقوق رسميًا فى عقودهم.

هذه هى الإضافة التى سبق أن أشير إليها من قبل.

(تعقب ذلك فقرة باللغة اللاتينية تشير إلى الأماكن التى خلف فيها تركته)، وهى:

Heic autem moneo, arcam meam scriptoriam, vulgo secretarius nuncupatam, primo per omnes ejus loculos,foros, recessus et angulos diligenter perscrutandam atque rimandam, ipsumque atramentarium excutiendum esse, quin etiam epistolas ceterasque chartas omnes, in parvis forulis ductilibus superioris, ergo valva operate, arcae parties asservatas singulatim explicandas esse, quippe quae saepe syngraphas similiaque

continent, item notas musicas, in suprema arcae parte repositas foliatim evolvendas esse, denique vero ipsam arcam tabulatim disjungendam et rescin ـ dendam esse, ita ut ne duae quidem ejus tabulae amplius cohaereant. Nam hoc pacto demum invenientur quae inveniri maximi momenti est.Hoc igitur coram testibus idoneis fieri jubeo, omnibusque injungo ـ fragmenta arcae divulsae denture Doctori M. Emden.

وإنـى أحـرم كل إضافـة أو خلـط أو تعقيـد قانونـى، كمـا أن كل فـرد مـن ورثتـى أو أقربائـى أو مـن أوصيـت لهـم بشـىء فـى هـذه الوصيـة يخـرج علـى هـذه الوصيـة فإنـه يفقـد كل الحقـوق والمزايـا التـى يسـتفيدها مـن هـذه الوصيـة.

واحتفـظ بالحـق فـى إن أضيـف إلـى هـذه الوصيـة والملاحظـات والإضافـات الخاصـة بهـا أيـة وصايـا أخـرى ممـا تعـن لـى فيمـا بعـد، فـإذا كتبتهـا بنفسـى أو وقعـت عليهـا وجـب إضافتهـا إلـى هـذه الوصيـة.

وإذا لـم يقبـل وجـود هـذه الوصيـة، فإنـى أريـد أن تراعـى وإن تنفـذ بحيـث تتـلاءم مـع القانـون.

وأشـهد هنـا بأنـى كتبـت هـذه الوصيـة الحاضـرة بيـدى، وهـى وصيتـى الأخيـرة الحقـة وقعتهـا أمـام موثـق العقود وأمام سـبعة شـهود اسـتدعوا لهذا الغـرض فحسـب. ووقعتهـا بيـدى وختمتهـا.

فى فرانكفورت ألمانيا فى ٢٦ يونيو ١٨٥٢

أمضاء: آرتور شوبنهاور

المجلد الثانى

فلسفـة شوبنهـــاور

أعمال شوبنهاور

لـم يخلـف شـوبنهاور مجموعـة ضخمـة مـن الأعمـال، إذ كان يـرى إنـه لا داعـى للثرثـرة والإكثـار مـن الكتابـة، وخاصـة أنـه اعتقـد بتمـام الرسـالة التـى جـاء مـن أجلهـا إلـى هـذه الحيـاة، وإنـه قـال مـا كان عليـه أن يقـول، وانتهـى مـن الواجـب الـذى كان عليـه أن يؤديـه تجـاه العالـم.

وجـاءت رسـالته فـى الحيـاة فـى تلـك المجلـدات الأربعـة التـى ضمـت مجموعـة أعمالـه التـى ظهـر أولهـا فـى سـنة ١٨١٣ وبقـى البعـض منهـا مخطوطًـا إلـى مـا بعـد وفاتـه.

ويهمنـا أن نتتبـع هنـا التطـورات التـى مـر بهـا كل عمـل مـن هـذه الأعمـال؛ إذ يطلعنـا ذلـك علـى صـورة صادقـة للتطـورات التـى مـرت بحيـاة شـوبنهاور الفكريـة.

ففـى سـنة ١٨١٣ ظهـرت الطبعـة الأولـى مـن كتابه «عـن الأصـل الرباعى لمبـدأ العلـة الكافيـة» Ueber die Vierfache Wurzel des Satzes von Zureichenden Grunde، والطبعـة الثانيـة ظهـرت فـى فرانكفـورت ألمانيـا فـى سـنة ١٨٣٧ ـ وبعـد وفاتـه نشـره فراونشـيتت فـى ليبتسـيج فـى سـنة ١٨٦٤.



وفـى سـنة ١٨١٦ ظهـرت فـى ليبتسـيج الطبعـة الأولـى مـن كتابـه «عـن الإبصـار والألـوان» Ueber das Sehen und die Farben.

وظهـرت فـى سـنة ١٨٥٤ الطبعـة الثانيـة فـى ليبتسـيج أيضًـا، كذلـك نشـر فراونشـيتت فـى ليبتسـيج الطبعـة الثالثة فى سـنة ١٨٦٩ بعد وفاة شـوبنهاور.

وفـى سـنة ١٨١٨ ظهـرت الطبعة الأولى من كتـاب «العالـم إرادة وتخيل» Die Welt als Wille und Vorstellung.

أمـا الطبعـة الثانيـة منـه فقـد ظهـرت فـى ليبتسـيج فـى سـنة ١٨٤٤ فـى جزئيـن ومضافًـا إليهـا الكثيـر مـن الزيـادات. وظهـرت الطبعـة الثالثـة فـى سـنة ١٨٥٩. أمـا الطبعـات التاليـة فقـد نشـرها فراونشـتيت حاويـة علـى التصحيحـات والإضافـات التـى كان شـوبنهاور قـد أدخلهـا علـى نسـخة مـن الطبعـة الثالثـة، بـأن وضـع الإضافـات علـى أوراق بيضـاء تتخلـل صفحـات هـذه النسـخة، وسجل التصحيحـات علـى متـن الكتـاب ذاتـه، وظهـرت الطبعة الرابعـة للكتـاب بشـكله النهائـى فـى سـنة ١٧٨٣ بعـد وفـاة شـوبنهاور.

وفـى سـنة ١٨٣٠ ظهـرت النسـخة اللاتينيـة مـن كتابـه «عـن الإبصـار والألـوان» ضمـن مجموعـة راديـوس Radius، وأسـماها «الكتـاب الصغـار فى علـم العيـن» Scriptores ophthalmologic minores.

وفـى سـنة ١٨٣٦ ظهـرت الطبعـة الأولـى مـن كتابـة «عـن الإرادة فـى الطبيعـة» Ueber den Willen in der Natur وظهـرت الطبعـة الثانيـة فـى سـنة ١٨٥٤ وفيهـا قـدح لاذع فـى فلاسـفة الجامعـة.

وفـى سـنة ١٨٤١ ظهـرت فـى فرانكفـورت ألمانيـا الطبعـة

الأولـى مـن «المشـكلتين الرئيسـيتين لعلـم الأخـلاق»، Die beiden Grundprobleme der Ethik Ueber die Freiheit des menschlichen Willens وهـو الـذى أجازتـه الجمعيـة الملكيـة فـى النرويـج. وبحثـه «عـن أسـاس الأخـلاق» Ueber das Fundament der Moralوهـو الـذى رفضتـه الجمعيـة الملكيـة فـى الدنمـرك، مـع مقدمـة الكتـاب ككل. وقـد تعـرض فيهـا لأعضـاء أكاديميـة الدنمـرك الذيـن قالـوا: «إنـه لـم يـدرك شـيئًا مـن البحـث المطـروح، وأنـه أبـدى قلـة احتـرام نحـو فلاسـفة عظـام أمثال فيشـته وهيجـل». وأصـاب أعضـاء الأكاديميـة مـا أصـاب فيشـته وهيجـل مـن توجيه النقـد إليهـم. أمـا الطبعـة الثانيـة فقـد ظهـرت فـى سـنة ١٨٦٠.

وفـى سـنة ١٨٥١ ظهـرت فـى برليـن الطبعـة الأولى مـن كتابه «الحواشـى والبواقى» Parerga und Paralipomena بجزئيه.

أمـا المخطوطـات التى تركها شـوبنهاور، فقد نشـرها يوليوس فراونشـتيت فـى ليبتسـيج فى سـنة ١٨٦٤ بعنوان «رسـائل وتعليقات وأقوال وشـذرات».

Abnandlungen, Anmerkurgen, Aphorismen und Fragmente.

وفـى سـنة ١٨٩١ أعـاد ر. فـون كيبـر R.von Koeber نشـرها فـى برليـن، ثـم نشـرت بعـد ذلـك فـى رسـائل مفـردة.

ففى سـنة ١٩٠٤ نشـرت فى شـتوتجارت Stuttgart رسـالته «عن الموت» Ueber den Tod وذلـك فى طبعة شـعبية.

وفــى ســنة ١٩٠٨ نشــر بندكــت فريدلينــدر Benedict Friedlander رســالته «حــول النســاء» Ueber die Weiber وذلــك فــى برليــن.

وفــى ســنة ١٩٠٨ نشــر إدوارد جريزبــاخ رســالته «حكــم فــى الحيــاة»



Aphorismen zur Lebensweisheit وذلك فى مطبعة ركلام فى ليبتسيج.

وفـى سـنة ١٩١٣ نشـرت فـى ليبتسـيج رسـالته «عـن القـراءة والكتـب» Ueber Lesen und Bücher.

وفـى سـنة ١٩١٤ نشـرت فـى ليبتسـيج رسـالته «عـن الكتابـة والأسـلوب» Ueber Schriftstellerei und Stil

وفــى ســنة ١٩٢٠ نشــرت فــى داخــاو رســالته «ميتــا فيزيقــا الحــب الجنســى» Metaphysik der Geschlechtsliebe.

وأخيــرًا نشــرت لــه ترجمــة كتــاب جراشــيان: نبــوءة الكــف Gracians Handorakel، وجمعــت كل هــذه المخلفــات مــرة أخــرى، وأشــرف علــى طبعهــا مــن جديــد دويســن وفايــس Deussen und Weiss

وبالإضافـة إلـى ذلـك، فلشـوبنهاور مراسـلات مـع يوحنـا أوجسـت بيكـر Joh Aug. Becker نشــرها فــى ســنة ١٨٨٣ يوحنــا كارل بيكــر Joh. Karl Becker فــى ليبتســيج.

كذلـك نشـر جريزبـاخ فـى سـنة ١٨٩٥ مجموعـة أحاديـث شـوبنهاور فى الفتـرة مـن ١٨١٣- ١٨٦٠ مـع بيكـر وفراونشـتيت وفـون دورز von Dors وليندنيـز Lindner وأشـير Asher.

وفى سنة ١٩٠٤ ظهرت الطبعة الثانية على مطابع ركلام فى ليبتسيج.

أمــا مجموعــة أعمالــه، فقــد نشــرها دويســن فــى طبعــة علميــة ناقــد فــى ١٤ مجلــدًا، وذلــك ابتــداء مــن ســنة ١٩١١ لــدى دارى. بيبــر R.Piper فــى مينشــين.

العـَـالم تخيــل

أول مـا يسـتلفت نظـر قـارئ كتـاب «العالـم ـ إرادة وتخيـل» هو أسـلوبه، فليـس فيـه ألغـاز صينيـة كما فـى اصطلاحـات «كانـت» المعقـدة، أو غموض «هيجـل»، أو هندسـة اسـبيوزا؛ بـل كل شـىء واضـح ومنظـم، وكل شـىء مركـز بصـورة تدعـو إلـى الإعجـاب حـول المفهـوم الرئيسـى للعالـم كإرادة ثـم الصـراع ونتيجـة ذلـك مـن شـقاء. ويالـه مـن صـدق صريـح ودأب متجدد وصراحـة لا تحتمـل المسـاومة. وحيثمـا عمـد سـابقوه إلـى التجريـد الـذى يصـل أحيانًـا إلـى حـد إخفـاء المعانـى، عمـد شـوبنهاور فـى نظرياتـه إلـى فتـح النوافـذ التصويريـة علـى العالـم الواقعـى، فجـاءت نظرياتـه غنيـة فـى إيـراد الملمـوس المقـرر والأمثلـة الواضحـة وفـى التطبيـق بل غنيـة بالفكاهة أيضًـا. وفـى الواقـع أن الفكاهـة فـى الفلسـفة جـاءت بعـد «كانـت» تطـورًا يسـتلفت النظـر.

ولقـد بعـث شـوبنهاور إلـى جيتـه خطابًـا مليئًـا بالفخـر يقـول فيـه: «لا أعتقـد أنـى بمسـتطيع أن أنتـج شـيئًا أفضـل مـن هـذا الكتـاب أو يفوقـه فـى أهميتـه الجوهريـة. وأنـا أرى أن هيلفيسـتيوس كان علـى صـواب حيـن قـال إن جميـع أفـكار المـرء حتـى بلوغـه الثلاثيـن ـ أو الخامسـة والثلاثيـن علـى الأكثـر ـ مـن عمـره تثيرهـا فيـه انطباعـات العالـم ـ ممـا يكـون قـادرًا عليهـا. وكل مـا ينتجـه بعـد ذلـك لا يعـد إلا تنميـة لهـذه الأفـكار».



وكان هـذا الإحسـاس صادقًـا بالنسـبة لشـوبنهاور، إذ ضـم كتابـه «العالم ـ إرادة وتخيـل» كل عملـه فـى الحيـاة فعـلًا. وليـس مـا وضعه بعد هـذا العمل الخالـد إلا مجـرد توسـيع وتعميـق وتشـكيل لما جـاء فى الكتـاب الأول.

ولكـن لمـاذا كان نصيـب الكتـاب الكسـاد والبـوار؟ يـرى البعـض أن هـذا يرجـع إلـى أن شـوبنهاور هاجـم أسـاتذة الجامعـة، وكان مـن المحتمـل أن يسـاعدوا علـى انتشـاره وذيوعـه. فقـد كان هيجـل دكتاتـور الفلسـفة فـى ألمانيـا عـام ١٨١٨، ومـع ذلـك فقـد غمـره شـوبنهاور بفيـض مـن هجماتـه بـل كتـب فـى مقدمـة الطبعـة الثانيـة مـن ذلـك الكتـاب:

«لا يمكـن أن يكـون هنـاك وقـت أكثـر فـى عـدم ملاءمتـه للفلسـفة مـن ذلـك الوقـت الـذى يسـاء فيـه اسـتخدامها فـى العمـل علـى ترويـج الأهـداف السياسـية مـن جهـة، أو فـى اتخاذهـا ـ مـن جهـة أخـرى ـ وسـيلة لكسـب العيـش... فهـل فـى هـذا مـا يناقـض الحكمـة التـى تقـول أن «علـى المـرء أن يعيـش أولًا ثـم لـه بعـد ذلـك أن يتفلسـف» Primum vivere, deinde Philosophari. أن هـؤلاء السـادة يرغبـون فـى الحيـاة، ويرغبـون فـى أن يعيشـوا علـى الفلسـفة حقًّـا. وقـد عينـوا مـع زوجاتهـم وأبنائهـم ليتفلسـفوا... ولقـد صحـت القاعـدة «إنـى أسـبح بحمـد مـن آكل خبـزه»؛ فكسـب المـال بالفلسـفة كان يعتبـر عنـد القدمـاء طابـع السوفسـطائيين المميـز.. فـلا شـىء يكتسـب بالمـال سـوى أواسـط الأمـور.. ومـن المسـتحيل فـى عصـر صفـق النـاس فيـه عشـرين عامًـا لهيجـل ـ ذلـك الوحـش العقلـى علـى اعتبـار أنـه أعظـم الفلاسـفة.. أن يظـل متطلعًـا إلـى ذلـك الرجـل الراغـب فـى الاستحسـان.. ولكـن الحقيقـة يجـب أن تنتظـر فـى هـدوء وفـى تواضـع لأولئـك القلـة الذيـن تدفعهـم طريقتهـم

غيـر العاديـة فـى التفكيـر إلـى أن يجدوهـا جديـرة بالاسـتمتاع... والحيـاة قصيـرة ولكـن الحقيقـة أطـول عمـرًا.. ومـن ثـم فلنقـل الحقيقـة».

لقـد قيلـت هـذه الكلمـات الأخيـرة بطريقـة كتلـك التـى أعتـاد النبـلاء التحـدث بهـا، ولكنهـا تنضـح كلهـا بمـا فيهـا مـن مـرارة الحصـرم، والعجيـب أنـه فـى الوقـت الـذى يتلهـف فيـه شـوبنهاور علـى الثنـاء يصـدر منـه ذلـك القـدح فـى هيجـل؛ ولكـم يكـون أكثـر نبـلًا لـو أنـه لـم يسـىء إلـى هيجـل «de vivis nil nisi bonum عـن الأحيـاء لا يقـال إلا مـا هـو طيـب».

أمـا عـن التواضـع فـى انتظـار الاعتـراف، فيقـول شـوبنهاور: «لا أسـتطيع أن أرى شـيئًا قـد تـم فـى حقـل الفلسـفة خـلال الفتـرة التـى انقضـت بعـد كانـت حتـى جئـت أنـا!»[١]. «وأنـا موقن بأن هـذه الفكـرة ـ العالـم إرادة ـ هى الدائـرة التـى كان البحـث يجـرى فيهـا تحت اسـم الفلسـفة. وكان اكتشـافها ـ فـى نظـر الملميـن بالتاريخ ـ مسـتحيلًا اسـتحالة اكتشـاف حجر الفلاسـفة»[٢]. وكل مـا أنويـه هـو إبـراز فكـرة واحـدة؛ ومـع ذلـك ـ وبالرغـم مـن كل مـا بذلـت مـن جهـد ـ فأنـى لـم أجـد طريقًـا أقصـر مـن وضـع هـذا الكتـاب لإبـراز هـذه الفكـرة... فاقـرأ الكتـاب مرتيـن ولتكـن قراءتـك الأولـى إيـاه بصبـر عظيـم»[٣].

وممـا ذكـره فـى معـرض حديثـه عـن التواضـع: مـا التواضـع إلا ضعـة المنافقيـن، يسـتطيع بهـا الإنسـان ـ فـى عالـم ملـىء بالحقـد والحسـد ـ أن

(١) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثانى ـ ص ٥.

(٢) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ز.

(٣) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ح وفى الواقع، هذا ما ينبغى أن يفعله المرء، بل لقد اتضح للبعض أن القراءة الثالثة جاءت بثمار أفضل. فالكتاب القيم يشبه القطعة الموسيقية التى ينبغى أن تسمع مرارًا حتى يستسيغها السامع.

يلتمس عذرا لتفوقه ونبوغه من أولئك المحرومين منها»[١]، «ولا شك فى أنه عندما اعتبر التواضع فضيلة، إنما كان ذا فائدة كبرى للحمقى؛ إذ أنه يتطلب من كل أمرئ أن يتكلم عن نفسه كما لو كان فردًا»[٢].

ومع ذلك، لم يكن هناك تواضع فى العبارة الأولى من كتاب شوبنهاور التى تبدأ بقوله «أن العالم فكرتى». وعندما نطق «فيشته» افتراضًا مشابهًا لهذا، تساءل الألمان المتحذلقون السوفسطائيون فى أمور الطبيعة: «ما رأى زوجته فى هذا؟»؛ ولكن شوبنهاور لم تكن له زوجة. وكان معناه طبعًا بسيطًا جدًّا: لقد أراد أن نقبل الوضع الذى رسمه «كانت» من أن العالم الخارجى معروف لنا عن طريق حواسنا وأفكارنا. ويتبع هذا عرض للمثالية التى هى واضحة وضوحًا كافيًا وقوية كل القوة ولكنها أضعف أجزاء الكتاب، حتى ليخيل لنا إنه ربما كان من الأفضل أن تعرض فى آخر الكتاب بدلًا من أن تجىء فى أوله. وأننا نعتقد إن هذا القسم كان سببًا فى إن العالم استغرق جيلًا كاملًا لكى يكتشف شوبنهاور الذى أساء تقديم عمله الرائع عندما أخفى فكرته خلف حاجز كثيف يقوم على ما يزيد على مائتى صفحة ملأها بالمثالية القديمة[٣].

فأكثر الأجزاء حيوية من القسم الأول يضم هجومًا على المادية. كيف نفسر العقل على إنه مادة بينما نحن لا نعرف المادة إلا عن طريق العقل؟

(١) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ٣٠٣.

(٢) الحواشى والبواقى «عن الاعتزاز بالنفس».

(٣) لا يستطيع المرء أن يتفهم شوبنهاور بحق إلا عن طريق أعماله ذاتها، وكلها من السهل قراءتها لمن يعرف الألمانية ـ ومع ذلك ـ فأرجو أن تصدر قريبًا ترجمة نصية كاملة لمجموعة أعماله.

«لـو تتبعنـا الماديـة إلـى مـدى بعيـد بـآراء واضحـة، حتـى تصـل إلـى أقصـى سـمت لهـا لفوجئنـا علـى حيـن غـرة بضحـك شـديد مـن الهـة الأوليمـب. ولـكان شـأننا كمـن يفيـق مـن حلـم، فنـدرك فجـأة أن النتيجـة الخطيـرة ـ المعرفـة ـ التـى وصلـت إليهـا الماديـة بعـد كل ذلـك الجهـد والـداب سـبق أن افترضـت مـن قبـل علـى إنهـا شـرط لا غنـى عنـه منـذ البدايـة الأولـى. المـادة المجـردة؛ وعنـد مـا تخيلنـا أننـا نفكـر فـى المـادة، فأننـا نفكـر ـ فـى الحقيقـة ـ فـى الموضـوع الذى يـدرك المـادة: العين التى تراهـا، واليـد التـى تحسـها، والفهـم الـذى يقـف عليهـا. وهكـذا تكشـف الحقيقـة Petitio Princippii عـن نفسـها علـى غيـر انتظـار، إلا أن الحلقـة الأخيـرة تبـدو كمـا لـو كانـت نقطـة لبدايـة سلسـلة فى دائـرة، ويكون شـأن المـادى كشـأن البـارون مينشـاوزن الـذى كان يسـبح علـى ظهـر جـواده، ثـم رفـع الحصـان بسـاقيه إلـى الهـواء وهـو ذاتـه بشـعره المسـتعار...»[١].

«وأن الماديـة الخالصـة التـى تقـوم حتـى الآن فـى منتصف القرن التاسـع عشـر[٢] تحـت سـتار مـن الوهـم الـكاذب علـى إنهـا أصيلـة... تنكـر الغبـاوة القــوة الحيويــة، وتحــاول قبــل كل شــىء أن تفســر ظاهــر الحيــاة مــن قــوى طبيعيــة وكيميائيــة، وتفســر هــذه القــوى مــن المؤثــرات الآليــة للمــادة...[٣] ولكنــى لــن أصــدق أبــدًا أن مجــرد أبســط خلــط كيميائــى

(١) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ٣٤.

(٢) فوجت Vogt وبيشنر Büchner ووليشوت Moleschott وفوبرباخ Feuerbach وغيرهم.

(٣) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ١٥٩.



يسـمح بتفسـير آلـى، وأقـل مـن هـذا احتمـالًا خصائـص الضـوء والحـرارة والكهربـاء ـ لأن كل هـذا يتطلـب دائمًـا تفسـيرًا حركيًـا»[1].

كلا، أنـه مـن المسـتحيل حـول اللغـز الميتافزيقـى، وكشـف سـر روح الحقيقـة بفحـص المـادة أولًا ثـم الاسـتمرار بفحـص الفكـر.. بـل يجـب أن نبـدأ بمـا نعرفـه مباشـرة ـ وعـن كثـب ـ يجـب أن نبـدأ بأنفسـنا. فإننـا «لا نسـتطيع أبـدًا أن نصـل إلـى الطبيعـة الحقيقيـة للأشـياء مـن الخـارج ومهمـا طـال بحثنـا، فإننـا لـن نسـتطيع الوصـول إلـى شـىء سـوى الصـور والأسـماء. فنحـن أشـبه برجـل يـدور حـول قلعـة وهـو يبحـث عبثًـا عـن مدخـل إليهـا، ويعمـد أحيانًـا إلـى رسـم خطـوط لواجهاتهـا»[2]. لنتوغـل إلـى الداخـل؛ حتـى إذا مـا اسـتطعنا أن نصـل إلـى الطبيعـة المطلقـة لعقولنـا، ربمـا أصبـح لدينـا مفتـاح العالـم الخارجـى.

---

(١) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثالث ـ ص ٤٣.

(٢) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ١٢٨.

العـــَالم إرَادة

١- إرادة الحياة

لقـد اسـتقر الفلاسـفة جميعًـا بـلا اسـتثناء علـى أن جوهـر العقـل فـى الفكـر والإدراك؛ وكان الإنسـان عندهـم إنمـا هـو الحيـوان العاقـل animal rationale إلا أنـه «يجـب طـرح هـذه الغلطـة القديمـة والجوهريـة العامـة Proton Pseudos قبـل كل شـىء»[١]. «فليـس الإدراك إلا مجـرد سـطح لعقولنـا لا نعـرف عنـه إلا بقـدر مـا نعـرف عـن سـطح الكـرة الأرضيـة إذ لا نعـرف مـا تحـت قشـرتها»[٢] فـوراء العقـل الواعـى تقبـع الإرادة الشـعورية أو اللاشـعورية، وهـى قـوة حيـة ملحـة جاهـدة، وهـى نشـاط ذاتـى، وإرادة رغبـة مسـتعرة. وقـد يبـد العقـل أحيانًـا موجهًـا لـلإرادة، ولكنـه فـى هـذه الحالـة لا يكـون إلا الدليـل الـذى يقـود سـيده، فـالإرادة هــى «الرجـل القـوى الأعمـى الـذى يحمـل علـى كتفيـه الرجـل الأعـرج الـذى يسـتطيع أن يـرى»[٣]. ونحـن عندمـا نريـد شـيئًا، لا نريـده لأننـا وجدنـا أسـبابًا تسـتدعى

---

(١) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثانى ص٤٠٩. ترى هل يتناسى شوبنهاور هنا ما قال به سبينوزا من أن «الرغبة هى الجوهر الحقيقى للإنسان»؟! وهل يتناسى ما أكده نيتشه عن الإرادة أيضًا؟!

(٢) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثانى ـ ص ٣٢٨.

(٣) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثانى ـ ص ٤٢١.

ذلك؛ بل إننا نوجد أسبابًا له لأننا نريده؛ كما أننا نحسن الفلسفة والعلوم الدينية لنغطى رغباتنا[1]. ومن هنا جاء وصف شوبنهاور للإنسان بأنه «الحيوان الميتافيزيقى» فالحيوانات الأخرى ترغب دون ميتافيزيقات «وليس هناك ما هو أكثر إثارة من إننا عندما نحاج رجلًا بالأسباب والشروح، ونتجشم كل مشقة فى إقناعه، نتبين فى النهاية أنه لا يريد أن يفهم، وأن علينا أن نخاطب إرادته»[2]. ومن هنا كان عدم جدوى المنطق، فإن أحدًا لم يستطع أن يقنع شخصًا آخر بالمنطق، بل إن علماء المنطق لا يستخدمون المنطق إلا مصدرًا للدخل. ولكى تقنع رجلًا، يجب أن تخاطب فيه مصلحته الخاصة ورغباته وإرادته. ولنلاحظ إلى أى مدى يطول تذكرنا انتصاراتنا، والسرعة التى ننسى بها هزائمنا، فالذاكرة ليست إلا أداة طيعة فى يد الإرادة[3]. «ونحن نخطئ فى الحساب وغالبًا ما يكون الخطأ لصالحنا لا ضد مصلحتنا، ويكون هذا دون أدنى قصد سيئ»[4]. «ومن ناحية أخرى، ينقلب الفهم لدى أشد الناس غباء ليصبح حادًا فى حالة ما إذا كانت الموضوعات التى تحت البحث متصلة برغباته اتصالًا وثيقًا»[5]. وعلى العموم، فإن العقل يتطور طبقًا لطبيعة الخطر، كما يحدث للثعلب، أو طبقًا لطبيعة الحاجة، كما يحدث للمجرم. ولكنه يبدو دائمًا تابعًا بل أداة للرغبة، حتى إذا ما حاول أن يحل محل الإرادة، يقع الارتباك. فليس

(١) وهذا ما يقول به فرويد فيما بعد.

(٢) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثالث ـ ص٤٤٣.

(٣) الحواشى والبواقى، و«حكم وأمثال» ص ١٢٦.

(٤) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثانى ـ ص٤٣٣.

(٥) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثانى ـ ص٤٣٧.



هناك من هو أكثر تعرضًا للوقوع فى الأخطاء ممن يعمل وفقًا للتفكير والتأمل فحسب[1].

تأمل فى صراع البشر العنيف من أجل لقمة العيش، والزواج، والذرية، فهل يمكن أن يكون هذا نتيجة تفكير؟ طبعًا لا، لأن السبب هو الإرادة النصف شعورية فى الحياة، والحياة حياة كاملة. وقد «يبدو الناس مشدودين من الأمام فحسب، ولكنهم فى الحقيقة مدفوعون من الخلف[2]؛ وأن كانوا يظنون إنهم مقودون فى طريقهم إلى ما يرون، ولكنهم فى الحقيقة مسوقون بما يشعرون ـ بالغرائز التى لا يشعرون بعملها إلا نصف الوقت. والعقل ليس إلا وزير خارجية «جعلته الطبيعة فى خدمة إرادة الفرد. ولهذا فالمقدر له هو أن يعرف الأشياء بمقدار ما تتيح للإرادة من دوافع، لا ليتعمق وراء هذه الدوافع أو يفهم حقيقة كيانها»[3]. و«الإرادة هى العنصر الوحيد الدائم الذى لا يتغير فى العقل»... وهى التى عن طريق استمرار الغرض «تعطى الوحدة للشعور وتجمع بين جميع أرائه وأفكاره، وتؤلف بينها فى توافق مستمر»[4]. فهى النقطة العضوية فى الفكر.

والشخصية تشكلها الإرادة لا العقل، والشخصية أيضًا استمرار الغرض والاتجاه: وهذه هى الإرادة. واللغة الشعبية صحيحة فى تفضيلها «القلب» على «العقل» فهى تعرف «لأنها لم تفحص

(١) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثانى ـ ص ٢٥١.

(٢) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثالث ـ ص ١١٨.

(٣) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثانى ـ ص ٤٦٣، ٣٢٦، وهذا ما قال به برجسون فيما بعد.

(٤) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثانى ـ ص ٣٣٣.

الأسباب» أن «الإرادة الطيبة» أعمق من العقل المبين، ويمكن الاعتماد عليها أكثر منه، وعندما تصف إنسانًا بأنه «داهية» أو «عارف» أو «ماكر» فهى تضمن هذا الوصف شكوكها وكراهيتها، «فالصفات اللامعة للعقل تكسب الإعجاب، ولكنها لا تكسب العاطفة» و«كل الأديان تعد بالثواب.. لمن يتفوقون فى الإرادة أو القلب إلا لمن يتفوقون فى العقل أول الفهم»[1].

وحتى الجسد فهو نتاج الإرادة. فالدم الذى تدفعه تلك الإرادة التى تسميها ـ غموضًا ـ بالحياة بين أوعيته بشق القنوات فى جسم الجنين؛ ثم تتعمق القنوات وتلتئم وتصبح أوردة وشرايين[2]. وإرادة المعرفة تبنى المخ كما تشكل إرادة الاستحواذ اليد، أو كما أن إرادة الأكل تشجع الجهاز الهضمى[3]. وفى الحقيقة، ليست هذه الازدواجات ـ هذه الصور من الإرادة وهذه الصور الجسدية ـ سوى جانبين لعملية واحدة وحقيقة واحدة. ويمكن أن نتبين العلاقة بصورة أكمل فى العاطفة، حيث يشكل الإحساس والتغيرات الجسدية الداخلية كلا مركبا واحدًا[4]. «وليس عمل الإرادة وحركة الجسم بشيئين مختلفين معروفين معرفة موضوعية، توحد بينهما رابطة السببية، إذ ليست علاقة كليهما من الآخر علاقة العلة من المعلول، فكلاهما واحد بل

(١) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثانى ـ ص ٤٥٠، ٤٤٩.

(٢) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثانى ـ ص ٤٧٩.

(٣) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثانى ـ ص ٤٨٦. وهذا ما قال به لامارك Lamarck الفرنسى (١٧٤٤-١٨٢٩م) فى مذهبه عن التطور العضوى حيث يرى أن النمو والتطور إنما يترتب على الرغبات والأعمال ومن ثم يلزم التكوين ويولد الأعضاء.

(٤) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ١٣٢. وهذا ما قال به جيمس لانج James Lange نظريته عن العاطفة.

نفس الشيء، ولكنهما يحدثان بطريقتين مختلفتين تمامًا، مباشرة، ثم بالإدراك... وليس عمل الجسم سوى عمل الإرادة وقد تجسد. ويصدق هذا على كل حركة للجسد... وليس الجسم كله سوى إرادة مجسدة... ومن ثم يجب أن تستجيب أجزاء الجسم تمامًا للرغبات الرئيسية التى تعبر بها الإرادة عن نفسها، ويجب أن تكون التعبير المنظور لهذه الرغبات. فالأسنان والحلقوم والأمعاء هى الجوع المجسد؛ وأعضاء التناسل هى الرغبة الجنسية المجسدة.. والجهاز العصبى كله يشكل قرن الاستشعار لدى الإرادة، الذى تبعث به فى الداخل وإلى الخارج... وكما يستجيب جسم الإنسان كله للإرادة البشرية عامة، فإن البناء الجسدى للفرد يستجيب للإرادة المعدلة لدى الفرد، أى شخصية الفرد»[1].

والعقل يتعب؛ ولكن الإرادة لا تتعب أبدًا؛ ويحتاج العقل للنوم، ولكن الإرادة تعمل حتى فى أثناء النوم. ومقر التعب ـ كالألم ـ هو فى المخ، ولذا فإن العضلات التى لا تتصل بالمخ «كالقلب» لا تتعب قط[2]. وفى النوم يتغذى المخ؛ ولكن الإرادة ليست فى حاجة إلى غذاء. ومن هنا كانت الحاجة إلى النوم عند المفكرين أقوى منها عند غيرهم. ولكن هذه الحقيقة «يجب إلا تضللنا فتؤدى بنا إلى النوم أكثر مما يجب؛ فعندنا يضيع أثر الإفراط.. ويصبح مجرد إضاعة

(١) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ١٣٠ـ ١٤١، والمجلد الثانى ـ ص ٤٨٢ ـ وكان قد قال بذلك سبينوزا أيضًا.

(٢) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثانى ـ ص ٤٢٤. ولكن ألا يوجد إشباع الإرادة أو استنفادها؟! والأساس إنه حتى فى حالات التعب أو المرض تذبل إرادة الحياة.

للوقـت»[1]. وفـى النـوم تهبـط حياة الإنسـان حتى تصـل إلى مسـتوى النبات، ومـن ثـم «تعمـل الإرادة وفـق طبيعتهـا الأصليـة والضروريـة، دون إزعـاج من الخـارج، وبـدون إنقـاص مـن قوتهـا عـن طريـق النشـاط الذهنـى والإجهـاد الـذى تسـببه المعرفـة، وهـى أثقـل عمـل عضـوى ولذا تكـون كل قـوة الإرادة فـى النـوم موجهـة نحـو المحافظـة علـى الجسـم وتحسـينه. ومـن هنـا نجـد فـى النـوم العـلاج لـكل الأزمـات التـى نعـرض لهـا»[2].

ولقـد أصـاب بـورداخ Bordach عندمـا أعلـن أن النـوم هـو الحالـة الأصليـة؛ فالجنيـن ينـام نومًـا يـكاد يكـون متصـلًا، والطفـل ينـام معظـم الوقـت. والحيـاة «كفـاح ضـد النـوم: فننتصـر عليـه فـى أول الأمـر، إلا إنـه يعـود فينتصـر علينـا. والنـوم قطعـة مـن المـوت نسـتعيرها لنحفـظ ونجـدد بهـا ذلـك الجـزء مـن الحيـاة الـذى اسـتنفدناه طـول النهـار»[3]. وهـو عدونـا الخالـد، إذ يهيمـن علينـا حتـى فـى يقظتنـا هيمنـة جزئيـة. وعلـى كل حـال، مـاذا ينتظـر مـن العقـل وهـو الـذى «يكـون كل ليلـة ـ حتـى فـى أكثرهـا حكمـة ـ مسـرحًا لأغـرب الأحـلام وأكثرهـا بعـدًا عـن المعنـى، والتـى لا بـد لـه أن يتابـع التأمـل فيهـا مـرة أخـرى عنـد الاسـتيقاظ مـن هـذه الإحـلام؟[4].. وعلـى ذلـك فـالإرادة جوهـر الإنسـان.

والآن، مـاذا يكـون الأمـر لـو إنها كانـت جوهر الحيـاة فى جميع أشـكالها، بمـا فـى ذلك تلـك الأشـياء الخاملة؟

(١) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثانى ـ ص ٤٦٨.

(٢) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثانى ـ ص ٤٦٣.

(٣) حكم وأمثال ـ موضوعه «عن علاقاتنا بأنفسنا».

(٤) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثانى ـ ص ٣٣٣.



مـاذا يكـون الأمـر لـو أن الإرادة كانـت الحقيقـة الجوانيـة المطلقـة، والجوهـر الخفـى فـى كل الأشـياء: تلـك الحقيقـة التـى طـال البحـث عنهـا وطـال اليـأس مـن العثـور عليهـا، وهـى «الشـيء فـى ذاتـه»؟

فلنحـاول إذن أن نفسـر مظاهـر العالـم الخارجـى علـى ضـوء الإرادة. ولنذهـب رأسًـا إلـى القـاع، حيـث قـال الآخـرون إن الإرادة شـكل مـن القـوة ـ ولنقـل أن القـوة شـكل مـن أشـكال الإرادة[1]. وسـوف نـرد علـى سـؤال هيـوم: ـ «مـا هـى السـببية؟» ـ بأنهـا الإرادة. وطالمـا أن الإرادة هـى السـبب العـام فـى أنفسـنا، فإنهـا بالمثـل فـى الأشـياء، ومـا لـم نفهـم السـبب علـى إنـه الإرادة، تظـل السـببية مجـرد وصفـة سـرية غامضـة لا معنـى لهـا فـى الحقيقـة. وبـدون هـذا السـر، فإننـا نسـاق إلـى صفـات مجـردة غامضـة مثـل «القـوة» أو «الثقـل» أو «التجـاذب»؛ ولا نعـرف كنـه هـذه القـوى، ولكننـا نعـرف ـ علـى الأقـل بوضـوح أكثر قليـلًا ـ ماهيـة الإرادة. لنقـل إذن، أن الطرد والجـذب، والاتحـاد والتحلـل، والمغنطيسـية والكهربيـة، والثقـل والتبلـور: كل هـذا هـو الإرادة[2]. ولقـد عبـر جيتـه عـن هـذه الفكـرة فـى عنـوان إحـدى قصصـه الطويلـة، عندمـا أسـمى انجـذاب العاشـقين، ذلـك الانجـذاب الـذى لا يقـاوم، بأنـه «التجـاذب الاختيـارى» Die Wahlver andschaften فالقـوة التـى تجـذب العاشـق، والقـوة التـى تجـذب الكوكـب ـ واحـدة.

وهـذا هـو شـأن الحيـاة فـى النبـات. فكلمـا هبطنـا فـى أشـكال الحيـاة كلمـا وجدنـا دور العقـل أقـل، ولكـن ليـس هـذا هـو شـأن الإرادة.

---

(١) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ١٤٤.

(٢) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ١٤٢.

«إن ذلـك الـذى يسـير فينـا علـى ضـوء المعرفـة وراء أهدافـه، ولكنـه هنـا.. يمضـى فحسـب أعمـى أصـم بطريقـة رتيبـة لا تتغيـر، ومـع ذلـك ففـى كلتـا الحالتيـن يجـب أن يـدرج تحـت اسـم الإرادة... وأن اللاشـعور هـو الحالـة الأوليـة والطبيعيـة للأشـياء جميعًـا، ومـن ثـم يكـون كذلـك الأسـاس الـذى يقـوم عليـه الشـعور ـ فـى بعـض أنـواع الكائنـات ـ علـى إنـه أقصـى ازدهـار لهـا، بينمـا يسـتمر اللاشـعور دومًـا هـو العنصـر السـائد فيهـا. وتبعًـا لهـذا، تكـون أغلـب الموجـودات بـلا شـعور؛ ولكنهـا مـع ذلـك تعمـل طبقًـا لقوانيـن طبيعتهـا، أى وفـق إرادتهـا. وليـس فـى النباتات إلا نـوع ضعيف جدًّا مـن الشـعور علـى الأكثـر، وفـى أحـط أنـواع الحيوانـات نجـد طلائع الشـعور فحسـب. ولكـن حتـى بعـد أن ارتقـى الشـعور طـوال كل السلسـلة الحيوانيـة حتـى وصـل إلـى الإنسـان وعقلـه، فلا يـزال الأسـاس هو اللاشـعور فـى النبات الـذى بـدأت منـه السلسـلة ويمكـن تعقـب ذلـك فـى ضـرورة النـوم»[١].

ولقـد كان أرسـطو علـى حـق: فهنـاك قـوة كامنـة تشـكل كل شـكل فـى النباتـات وفـى الكواكـب وفـى الحيـوان وفـى الإنسـان. «وفـى الغريـزة لـدى الحيوانـات بصفـة عامـة أحسـن تصويـر لمـا يبقـى مـن فلسـفة البحـث مـن غايـات الطبيعـة فيهـا. فكمـا أن الغريـزة عمـل مماثـل لذلـك الـذى يوجهـه إدراك غايـة، ومـع ذلـك يكـون بدونهـا تمامًـا؛ كذلـك يكـون كل كيـان فـى الطبيعـة يشـبه ذلـك الـذى يوجهـه إدراك غايـة، ومـع ذلـك يكـون بدونهـا»[٢]. هـذا وتبيـن لنـا البراعـة الآليـة العجيبـة لـدى الحيوانـات مـدى

(١) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ١٥٣، والمجلد الثانى ـ ص ٤١٨، ٣٣٧.

(٢) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ٢١٠.

أسبقية الإرادة على العقل. فالفيل الذى اقتيد عبر أوروبا، واجتاز مئات من الجسور يرفض أن يسير فوق كوبرى ضعيف، وذلك على الرغم من إنه رأى كثيرًا من الجياد والرجال يعبرونه. والكلب الصغير يخاف القفز فوق المنضدة، فهو يتنبأ بتأثير السقطة لا بالعقل (لأنه لا خبرة له بمثل هذه السقطة) بل بالغريزة. وإنسان الغاب Orang ـ Utan تستدفئ بالنار التى تجدها، ولكنها لا تأكلها. فمن البداهة إذن أن مثل هذه الأعمال هى أعمال غريزية، وليست ثمرة العقل وهى تعبير عن الإرادة لا العقل[1].

والإرادة طبعًا هى إرادة الحياة وإرادة أقصى الحياة. وكم هى عزيزة تلك الحياة على الكائنات الحية جميعًا! وياله من صبر ـ فى صمت ـ ذلك الذى يبدو منها فى انتظار وقتها! «لقد ظلت الكهربائية كامنة آلاف الأعوام فى النحاس والزنك، وهما راقدان إلى جانب الفضة فى هدوء، ولكن سرعان ما تتحول لهبًا إذا اجتمع الثلاثة فى ظروف خاصة. وحتى فى المملكة العضوية، فإننا نرى البذرة الجافة تحتفظ بقوة الحياة الكامنة ثلاثة آلاف سنة، وحالما تجد الظروف الملائمة، فإنها تنمو لتصبح نباتًا» كذلك أدى وجود الضفادع البرية حية فى الأحجار الجيرية إلى الاستنتاج: حتى الحياة الحيوانية تكون قادرة على التوقف آلاف السنين[2]؛ فالإرادة هى إرادة الحياة، وعدوها الخالد هو الموت.

ولكن.. ألا تستطيع أن تهزم الموت أيضًا؟

---

(١) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ٢٩.

(٢) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ١٧٨.

٢ - إرادة التناسل

بلى، يمكن أن تهزم الموت بالتناسل والتضحية من أجله.

فكل كائن طبيعى عند بلوغه مبلغ النضج يسارع فى التضحية بنفسه من أجل التناسل: وذلك ابتداء من ذكر العنكبوت الذى تأكله أنثاه عقب لقاحها، والزنبور الذى يكرس نفسه لجمع الغذاء لنتاجه الذى لن يقدر له أن يراه، حتى الإنسان الذى يجهد نفسه حتى الفناء فى سبيل إطعام وكساء وتعليم أبنائه. والتناسل هو الهدف الأقصى لكل كائن، وغريزته الأقوى، لأنه بذلك فحسب يستطيع أن يهزم الموت. وحتى يكفل الانتصار على الموت، توضع إرادة التناسل كلها تقريبًا موضعًا بعيدًا عن سيطرة المعرفة أو التفكير: وحتى الفيلسوف يكون له أبناء أحيانًا.

«وتظهر الإرادة هنا مستقلة عن المعرفة، وتعمل عملًا أعمى، كما يحدث فى الطبيعة اللاشعورية.. وتبعًا لذلك، تكون أعضاء التناسل هى بؤرة الإرادة تمامًا، وتشكل القطب المقابل للمخ، الذى يمثل المعرفة... فالأولى أساس المحافظة على الحياة ـ وهى تكفل الحياة التى لا تنتهى؛ «ولهذا السبب عبدها الأغريق فى Phallus والهندوس فى Lingam.. ولقد قال هزيود Hesiod وبارمينيدس Parmenides بكل ما فى قولهما من دلالة أن أيروس Eros هو الأول وهو الخالق، وهو الأصل الذى تنشأ عنه كل الأشياء. والعلاقة بين الجنسين... هى فى الحقيقة النقطة المركزية لكل الأعمال والسلوك، وتطل فى كل مكان بالرغم من كل الأقنعة المغلفة لها. وهى سبب الحرب ونهاية السلام؛ وأساس كل ما هو جاد، والغاية من المزاج، والمعين

الـذى لا ينضـب من المعرفـة، ومفتاح التخيـلات جميعًا، ومعنى كل الإشـارات الغامضـة[١]... ونراهـا فـى كل لحظـة تتخـذ مجلسـها، سـيدة للعالـم باعتبارها الوريـث الصحيـح للعالـم، ممتلئـة كل الامتـلاء بقوتهـا الخاصـة، فـوق عـرش الأسـلاف، وتطـل مـن هـذا المـكان بنظـرة ملؤهـا السـخرية، وتضحـك مـن الترتيبـات التـى تتخـذ لتقييدهـا، أو سـجنها، أو تحديدها على الأقـل، وإبقائها مخبـأة، كلمـا أمكـن ذلـك، أو حتـى للسـيطرة عليهـا بحيـث تبدو مجـرد عامل ثانـوى، تابع فـى الحيـاة»[٢].

وتـدور «ميتافيزيقـات الحـب» حـول هـذه التابعيـة التـى يتبـع فيهـا الأب الأم، وتابعيـة الوالديـن للطفـل، وتابعيـة الفـرد للنـوع. وقانـون الجاذبيـة الجنسـية يقتضـى أولًا أن يكـون اختيـار الرفيـق ـ إلى حـد كبير ـ مقـررًا، مهما كان ذلـك بطريقـة لاشـعورية، باللياقـة المشـتركة للإنجـاب.

«كل يبحـث عـن الرفيـق الـذى يكمـل نقائصه، خشـية أن تـورث.. فالرجل الضعيـف البنيـة يبحـث عـن امـرأة قويـة.. وسـيعتبر كل فـرد مـن الجمـال بصفـة خاصـة كل مـا يجـده فـى الطـرف الآخر مـن أوجـه الكمال التـى تعوزه هـو نفسـه، بـل حتـى تلـك النقائـص التـى تناقـض نقائصـه[٣]. «ويمكـن أن تكـون الصفـات الجسـدية لفرديـن بحيـث تكفـل اسـتمرار النـوع بأطـول قـدر ممكـن، ومـن ثـم تكـون الواحـدة منهـا عنـد أحدهمـا

(١) وهذا ما قال به فرويد فيما بعد فى نظريته عن «الإدراك واللاشعور».

(٢) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ٤٢٦، ٥٢٥، والمجلد الثالث ص ٣١٤. وليس شوبنهاور فى هذا الا كغيره ممن عانوا من المسائل الجنسية، ولذا يهول فى تصوير دور الحياة الجنسية، ولعل علاقة الأبوة فى عقول الأفراد الطبيعيين ترجح كفتها عن العلاقة الجنسية.

(٣) وهذا ما قال به فيما بعد فاينينجر Weininger.

المكملة والمتممة لتلك التى عند الآخر بصفة خاصة، ومن ثم تجعله يرغب فيها كلية.

«... والشعور العميق الذى نتأمل به ونفكر فى كل جزء من الجسم... والشك الحرج الذى نتطلع به إلى المرأة التى تبدأ فى إسعادنا... يتصرف المرء هنا، دون علم منه، بأمر صادر عن شىء أرقى منه... ويفقد كل فرد جاذبيته للجنس الآخر بنسبة ابتعاده أو ابتعادها عن أنسب الفترات للتناسل والحمل... ويظل الشباب دومًا ذا جاذبية بغض النظر عن الجمال، أما الجمال بلا شباب فلا جاذبية له... وفى كل حالة يقع فيها الحب... فإن كل ما يتجه إليه البحث فحسب هو إنتاج فرد ذى طبيعة محددة، وتؤيد ذلك حقيقة أولية وهى أن الأمر الجوهرى ليس فى تبادل الحب بل فى الاستحواذ»[1].

ومع ذلك، فليست هناك زيجات أبعد عن السعادة من تلك الزيجات القائمة على الحب ـ ويرجع سبب ذلك بصفة خاصة إلى أن هدفها هو استمرار النوع لا متعة الفرد[2]. «فذلك الذى يتزوج على حب، لا بد أن يعيش حزينًا» ـ هذا ما يقول به المثل الأسبانى السائد. وتبدو أغلب القصص التى كتبت عن مشكلة الزواج سخيفة لأنها تفكر فى الزواج على أنه ألفة ومحبة، بدلًا من التفكير فيه على أنه ترتيب يهدف إلى حفظ النوع. ويبدو أن الطبيعة لا يعنيها أن كان الأبوان «سعيدان أبد الدهر»، أم أن سعادتهما ليوم

(١) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثالث ـ ص ٣٤٢، ٣٥٧، ٣٤٧، ٣٦٠، ٣٥٩، ٣٥٢، ٣٤١.

(٢) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثالث ـ ص ٣٧٢.

واحد، طالما يتم التناسل. والزواج الملائم هو ذلك الذى يرتبه آباء المحبين، فهو غالبًا ما يكون أسعد من الزواج القائم على الحب. ومع ذلك فالمرأة التى تتزوج على حب مخالفة فى ذلك مشورة أبويها، لا بد من الإعجاب بها، إذ «إنها فضلت ما هو أكثر أهمية، وتصرفت بروح الطبيعة (والأدق أن يقال بوحى من الجنس أو النوع)، بينما ينصح الأبوان بروح الأنانية الفردية»[1].. والحب أحسن علوم التناسل.

وما دام الحب خدعة تدبرها الطبيعة، فإن الزواج هو ذوبان الحب، إذ عليه أن يزيل كل الخيالات والأوهام. ولا يمكن إلا للفيلسوف وحده أن يكون سعيدًا فى الحب؛ ولكن الفلاسفة لا يتزوجون.

«لأن العاطفة تعتمد على وهم يمثل ما ليست له قيمة سوى حفظ النوع الذى يعتبر ذا قيمة للفرد، ولكن الوهم يتبدد بعد تحقق غرض النوع. ويتبين للفرد أنه كان مخلب القط بالنسبة للنوع. ولو أشبعت عاطفة بترارك، لكف عن أغنيته»[2].

وتبعية الفرد للنوع كأداة لاستمرار، تبدو مرة أخرى فى الاعتماد الجلى من قبل حيوية الفرد على حالة الخلايا التناسلية.

«ويعتبر الدافع الجنسى كالحياة الداخلية للشجرة (النوع) التى تنمو عليها حياة الفرد، كما تتغذى الورقة من الشجرة وتساعد فى تغذية الشجرة، وهذا هو السبب فى أن ذلك الدافع يكون بكل هذه القوة، وينبثق من أعماق طبيعتنا. فليس معنى خصى أحد الأفراد إلا أنه

(١) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثالث ـ ص ٣٧١.

(٢) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثالث ـ ص ٢٧٠.



قطع من شجرة النوع التى ينمو عليها، ومن ثم فإنه يذبل ويذوى، ومن هنا يكون انحطاط قواه العقلية والجثمانية. ويدل ما يعقب خدمة النوع ـ أى القيام بالتلقيح ـ من إنهاك وانحطاط مؤقت فى كل القوى، وفى الحقيقة أن هذه الخدمة تنتهى بالموت السريع فى أغلب الحشرات. وفى ذلك يقول كيلسوس Celsus إن انقضاء قدرة الإنسان على التوالد تبين اقتراب موته[1]؛ وأن الإفراط فى استخدام هذه القدرة فى كل سن يقصر الحياة، بينما الاعتدال فى هذه الناحية يزيد كل القوى وخاصة تلك العضلية، وقد وضع هذا الأمر فى الحسبان عند تدريب الرياضيين الإغريق. ويطيل مثل هذا الاعتدال حياة الحشرة حتى الربيع التالى، وكل هذا يشير إلى أن حياة الفرد هى فى أعماقها مستعارة فحسب من حياة النوع.. فالتناسل هو الذروة العليا وبعد تحققه تنتهى حياة الفرد الأول بسرعة أو ببطء، بينما تكفل حياة جديدة للطبيعة بقاء النوع، وتكرر نفس الظاهرة... وهكذا يكون تبادل الموت والتوالد بمثابة نبضات القلب بالنسبة للنوع... والموت بالنسبة للنوع كالنوم للفرد... وهذا هو قانون الطبيعة الأعظم عن الخلود... لأن العالم كله، بكل ظواهره، هو الجانب المحسوس للإرادة التى لا تتجزأ، وهى الفكرة التى ترتبط بكل الأفكار الأخرى كما يرتبط التوافق النغمى بالصوت الواحد.. وفى محادثات أيكرمان مع جيته (جـ١ ص ١٦١).. يقول جيته: «أن روحنا كائن له طبيعة تستعصى على الفناء، ويستمر نشاطها من الأزلية إلى الأبدية. فهى كالشمس التى تبدو تغرب أمام ناظرينا

(١) Seminis emission est parties Jactura.

فحسب؛ ولكنها فى الحقيقة لا تغرب أبدًا، بل تظل مستمرة الإشراق. وهذا التشبيه أخذه جيته عنى ولم آخذه ـ أنا ـ عنه»[1].

ونحن لا نبدو كائنات منفصلة إلا فى الزمان والمكان فحسب، فمنهما يتكون «مبدأ الانفصال الفردى» الذى يقسم الحياة إلى كائنات منفصلة تبدو فى فترات وأماكن مختلفة، والزمان والمكان قناع مايا Maya الذى يخفى وحدة الأشياء. وليس فى الحقيقة من شىء سوى النوع وسوى الحياة وسوى الإرادة. «ولكى نفهم بوضوح أن الفرد ليس سوى الظاهرة، لا الشىء فى ذاته» وأن نرى فى «التغير الدائم للمادة ثبات دائم للشكل» ـ فهذا هو جوهر الفلسفة[2].

«ويستمر شعار التاريخ: الأشياء ذاتها، وإنما فى أشكال متغيرة: Fadem,sed aliter وكلما تغيرت الأشكال كلما بقيت كما هى»[3].

«فذلك الذى لم يبد له الناس وكل الأشياء فى أى من الأوقات إلا مجرد أشباح وخيالات، وليست له ملكة الفلسفة. فالفلسفة الحقيقية للتاريخ تقوم على إدراك أنه فى جميع التغييرات التى لا تنتهى والتعقدات الشديدة فى الأحداث، لا يكون أمامنا إلا الكائن الذى لا يستطيع أن يغير نفسه بنفسه، والذى يسير اليوم نحو نفس الأهداف التى سار عليها بالأمس والتى سيظل يسير عليها إلى الأبد... وتبعًا لذلك، كان على فيلسوف التاريخ أن يعترف بالطابع المميز فى جميع الأحداث... وبالرغم من كل تنوع فى الظروف الخاصة

---

(١) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثالث ـ ص ٣١٠، المجلد الأول ـ ص ٢١٤ ـ المجلد الثالث ـ ص ٣١٢، ٢٧٠، ٢٦٧، المجلد الأول ـ ص ٢٠٦، ٣٦٢.

(٢) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ٣٥٧- ٣٥٨.

(٣) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثالث ـ ص٢٢٧. «نفس الأشياء، ولكن بأشكال مختلفة».

أو العـادات والتقاليـد والسـلوك، فعليـه أن يـرى فـى كل مـكان نفس البشـر... فقـراءة مـا كتبـه هيـرودوت Herodotus هـى، مـن وجهـة النظـر الفلسـفية، دراسـة كافيـة مـن التاريـخ... والرمـز الحقيقـى للطبيعـة فـى كل زمـان ومكان إنمـا هـو الدائـرة، لأنهـا منهج التكـرار وبيانـه»[١].

ونـود أن نعتقـد أن التاريـخ كلـه ليـس إلا إعـداد ناقـص وموقـف للعصـر الرائـع الـذى نحـن منـه المصلـح والقمـة؛ ولكـن هـذه الملاحظـة عـن التقدم ليسـت إلا مجـرد خدعـة وحماقـة. «فالحكمـاء بصفـة عامـة كانـوا يقولون فى جميـع العصـور نفـس الأشـياء، والحمقـى ـ الذيـن يؤلفـون الأغلبيـة العظمـى فـى جميـع الأزمـان ـ كانـوا يتصرفـون فـى طريقتهـم بصـورة متماثلـة أيضًـا، إذ فعلـوا عكـس مـا فعلـه الحكمـاء، وهكـذا سـوف يسـتمر الأمـر.

لأننـا ـ كمـا قـال فولتيـر ـ سـنترك العالـم فـى الحماقـة والشـقاء اللذيـن وجدنـاه عليهمـا[٢].

وعلـى ضـوء كل هـذا نحصـل علـى معنـى جديـد أكثـر كآبة عـن الحقيقة التـى لا مهـرب منهـا عـن الحتميـة. «يقـول اسـبينوزا أنـه لـو كان ثمـة شـعور لـدى الحجـر الـذى يلقـى فـى الهـواء لاعتقـد أنـه يتحـرك بمحـض إرادتـه الحـرة. ولا أضيـف إلـى هـذا إلا أن الحجـر فـى هـذا يكـون علـى حـق، فالدافـع الـذى أعطـى للحجـر ـ هـو بالنسـبة للحجـر ـ كالدافـع بالنسـبة لـى، وليـس مـا يبـدو فـى الحجـر تماسـكًا وجاذبيـة وصلابـة.. ليـس فـى

(١) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثالث ـ ص٢٢٧، ٢٦٧. وهذا ما تحدث عنه نيتشه فيما بعد.

(٢) مقدمة «حكمة الحياة».

جوهـره إلا مـا اعتـرف بـه كذلـك فـى نفسـى، بـل لـو كان للحجـر معرفـة لاعتـرف بأنهـا الإرادة»[1]. ولكـن الإرادة ليسـت «حـرة» فـى الحجـر ولا فـى الفيلسـوف. فـالإرادة حـرة ككل.. لأنـه ليسـت هنـاك إرادة أخـرى بجانبهـا تحـد مـن قوتهـا، ولكـن كل جـزء مـن الإرادة العامـة ـ كل نـوع وكل كائـن وكل عضـو ـ يتحـدد بمـا يقـرره الـكل تحديـدًا لا ينقضـى ولا ينسـخ.

«ويعتقـد كل واحـد فـى نفسـه قبـل كل شـىء إنـه حـر كل الحريـة، حتى فـى أعمالـه الفرديـة، ويظـن إنـه يسـتطيع فـى كل لحظـة أن يبـدأ طريقـة جديـدة فـى الحيـاة، وهـذا لا يعنـى إلا أنـه يسـتطيع أن يصبـح شـخصًا آخـر. ولكنـه يجـد بعـد ذلـك مـن خـلال التجربـة أمـرًا يدهشـه، وهـو أنـه ليـس حـرًا، بـل يخضـع للضـرورة، وإنـه لا يغيـر سـلوكه بالرغـم مـن كل مـا يتخـذه مـن قـرارات وتأمـلات، وإنـه مـن بدايـة حياته حتـى نهايتهـا، يجـب أن يحمل نفـس الطابـع الـذى ينتقـده هـو نفسـه، ويسـتمر كمـا كان الحـال مـن قبـل، يلعـب الـدور الـذى سـبق أن لعبـه، حتـى النهايـة»[2].

* * *

(١) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثانى ـ ص ١٦٤.

(٢) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ١٤٧.

العـــَــالم شـــر

ولكــن إذا كان العالــم إرادة، فلابــد أن يكــون عالــم عنــاء وآلام. وذلــك أولًا لأن الإرادة ذاتهـا تـدل علـى الحاجـة، وإشـباع هـذه الحاجـة أكبـر دائمًـا ممـا تصـل إليـه؛ إذ أنـه بعـد إشـباع كل رغبـة تبقـى عشـر رغبـات لـم تشـبع. والرغبـة لا تنتهـى، والإشـباع محـدودة، ومـن ثـم «فهـى كالإحسـان الـذى يعطـى إلـى الشـحاذ ليبقـى عليـه حياتـه ليومـه حتـى يمكـن أن يمتـد شـقاؤه إلـى الغـد... وطالمـا امتـلأ وعينـا بإرادتنـا، ظللنـا أسـرى إلحـاح رغباتنـا بآمالهـا ومخاوفهـا المسـتمرة، وطالمـا خضعنـا لـلإرادة، فـلا نسـتطيع الاسـتمتاع بـدوام السـعادة أو السـلام»[1]، وتحقيـق الرغبـة لا يسـتتبع الاكتفـاء والرضـى، إذ ليـس هنـاك مـا هـو أكثـر خطـورة علـى المثـل مـن تحققـه. «وغالبًـا مـا يـؤدى إشـباع الرغبـة إلـى الشـقاء لا إلـى السـعادة، لأن مطالبهـا غالبًـا مـا تتصـارع فـى عنـف مـع المصالـح الشـخصية لذلـك الـذى أشـبعت رغبتـه حتـى تـودى بهـا»[2]. ويحمـل كل فـرد فـى نفسـه تناقضًـا مخربًـا، فالرغبـة التـى تتحقـق تخلـق رغبـة جديـدة، وهكـذا إلـى

(١) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ٢٥٣.

(٢) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثالث ـ ص ٣٦٨.

ما لا نهاية له. «وعلة هذا إن الإرادة يجب أن تعيش على نفسها، لأنه لا وجود لشىء بجانبها، وهى إرادة جائعة»[1].

وفى كل فرد، نجد أن طاقة الألم الضرورى له تقررها طبيعته مرة واحدة، وهى أشبه بكيل لا يمكن أن يبقى خاليًا، أو أن يمتلأ أكثر مما يجب... ولو انزاحت عن صدورنا هموم مرهقة عاجلة، لحلت محلها على الفور هموم أخرى، كانت مادتها كلها موجودة من قبل، ولكنها لم تخرج همومًا إلى دائرة الوعى إذ لم تكن ثمت طاقة قد تركت لها.. أما الآن وقد وجد لها المكان فهى تتقدم وتحتل العرش[2].

والحياة شر مرة أخرى لأن الألم هدفها ودافعها الأساسى وحقيقتها، وليست اللذة إلا مجرد وقف سلبى للألم. وقد كان أرسطو محقًا عندما قال: أن الحكيم لا يبحث عن اللذة، بل التخلص من الهم والألم.

«فكل إشباع، أو ما يسمى عامة بالسعادة، لا يكون فى الحقيقة وفى الجوهر إلا سلبيًا.. ولا ندرك إدراكًا حقيقيًا النعماء والمزايا التى تكون فى حوزتنا فعلًا، ولا نقدرها حق قدرها، بل نراها مجرد أمر واقع، لأنها لا تشبعنا إلا سلبيًا، وذلك بوقفها للشقاء والألم. ولا نشعر بقيمتها إلا عندما نفقدها، لأن الحاجة والحرمان والحزن ليست إلا للشىء الإيجابى الذى يصل نفسه بنا مباشرة... فما ذلك الذى أدى بالكلبيين إلى إنكار اللذة فى أى شكل من أشكالها، إن لم يكن ذلك أن الألم مرتبط دائمًا باللذة بدرجة كبرت أو صفوت؟... ويعبر عن

(١) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ٢٠١.

(٢) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ٤٠٩.



هـذه الحقيقـة ذاتهـا المثـل الفرنسـى الـذى يقـول: الأفضـل عـدو الفاضـل Le mieux est l'ennemi bien فـدع الأفضـل وشـأنه[1].

والحيـاة شـر لأنـه «حالمـا تسـمح الحاجـة والعنـاء للمـرء بالراحـة، اقترب منـه الضجـر علـى الفـور بحيـث يصيـر بالضـرورة فـى حاجـة إلـى التسـلية[2] ـ أى المزيـد مـن العنـاء. حتـى لـو تحققـت المدينـة الفاضلـة الاشـتراكية، لبقيـت شـرور عديـدة، لأن بعضهـا ـ مثـل الكفـاح ـ ضـرورى للحيـاة، ولو أزيح كل شـر، وانتهـى كل كفـاح، لأصبـح الملـل كالألـم لا يحتمل. وهكـذا «تتأرجح الحيـاة كبنـدول السـاعة إلـى الخلـف وإلى الأمـام بين الألـم والضجـر... وبعد أن حـول الإنسـان كل الآلام والعـذاب إلـى مفهـوم الجحيـم، لـم يبـق للجنـة سـوى الضجـر[3]. وكلمـا ازددنـا نجاحًـا ازددنـا مللاً. «وكمـا أن الحاجـة هـى السـوط الـذى يلهـب النـاس دائمًـا، فـإن الضجـر هـو السـوط الـذى يلهـب العالـم النموذجـى. ويتمثـل الضجـر عنـد الطبقـة الوسـطى فـى أيـام الأحـاد. وتتمثـل الحاجـة فـى بقيـة أيـام الأسـبوع»[4].

والحيـاة شـر لأنـه كلمـا ارتقـى النظـام زاد الشـقاء. ونمـو المعرفـة ليـس حـلًا.. «لأنـه عندمـا تصبـح ظاهـرة الإرادة أكثـر كمـالًا، يصبـح الشـقاء أكثـر وأكثـر ظهـورًا».

«وليـس فـى النبـات حتـى الآن حساسـية، ولـذا فليـس مـن ألـم لديـه. أما

(١) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ٤١١، حكم وأمثال ـ ص ٥.

(٢) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ٤٠٤.

(٣) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ٤٠٢.

(٤) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ٤٠٤.

أحط أنواع الحياة الحيوانية ـ مثل الهدبية والمشعة[1] ـ فتعانى درجة ضئيلة جدًّا من الألم، وكذلك فى الحشرات تكون طاقة الإحساس والشقاء لديها لا تزال محددة. ويبدو الإحساس أول ما يبدأ بدرجة كبيرة بظهور الجهاز العصبى الكامل فى الحيوانات الفقارية، وتزداد درجة الإحساس مع زيادة نمو الذكاء. وكلما زادت المعرفة وارتقى الوعى زاد الألم أيضًا بتناسب طردى حتى يصل إلى أعلى درجاته فى الإنسان. ومرة أخرى، نجد إنه كلما تميز الإنسان فى المعرفة ـ وكلما زاد ذكاؤه ـ كلما زاد ألمه، وأشد الناس شقاء ذلك الموهوب بالعبقرية.»[2].

ومن ثم كان ذلك الذى يزداد معرفة، يزداد حزنًا. وحتى الذاكرة وبعد النظر تضيفان للبشرية شقاء، لأن أغلب ما نعانيه هو فى التأمل فى الماضى وفى توقع المستقبل، أما الألم ذاته فقصير الأمد. ولكم يزداد الشقاء بالتفكير فى الموت عما يعانيه المرء من الموت نفسه.

وأخيرًا، وقبل كل شىء، الحياة شر لأن الحياة حرب؛ فإننا نرى فى كل مكان فى الطبيعة الصراع والتنافس والنزاع، وتعاقب النصر والهزيمة تعاقبًا انتحاريًا. فكل نوع «يكافح فى سبيل المادة والمكان والزمان الذى يكون هو للآخرين».

«فالأفعوان (الهيدرا) الصغير الذى ينمو كأنه برعم خارج من الأفعوان الكبير، ويفصل نفسه عن الكبير، يكافح ـ وهو لا يزال مرتبطًا بالأفعوان الكبير ـ فى سبيل الحصول على الفريسة التى

---

(١) Infusoria, Radiata.

(٢) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ٤٠٠.



تقـدم نفسـها، إلـى حـد أن الواحـد مـن هـذه الأفاعـى ينتـزع الفريسـة مـن فـم الآخـر. ولكـن النمـل الأسـترالى الكبيـر يقـدم لنـا أغـرب مثـل لهـذا النوع، لأنـه إذا انقسـم إلـى شـطرين، تقـوم معركـة بيـن الـرأس والذنـب. ويمسـك الـرأس الذنـب بأسـنانه، ويدافـع الذنـب عـن نفسـه بشـجاعة بلسـع الـرأس. وقـد تسـتمر المعركـة نصـف سـاعة حتـى يموتـا أو يجرهمـا النمـل الآخـر. ويحـدث هـذا الصـراع كلما وقعـت هـذه التجربـة... ويذكر يونجهـان Yung-hahn أنـه رأى فـى جـاوه سـهلًا فسـيحًا علـى مرمـى البصـر، وهـو مغطـى كلـه بهيـاكل عظميـة، وظـن أنـه ميـدان قتـال، إلا أن هـذه الهيـاكل لـم تكـن سـوى هيـاكل سـلاحف ضخمـة... كانـت قـد خرجـت مـن البحـر فـى ذلـك الطريـق لتضـع بيضهـا، فهاجمتهـا الـكلاب المتوحشـة التـى اسـتجمعت قوتها فأرقدتهـا علـى ظهورهـا، وانتزعـت القوقعـة الصغيـرة مـن المعـدة، والتهمتها حيـة... ولكـن غالبًـا مـا يقفـز نمـر علـى الـكلاب... ومـن ثـم ولـدت هـذه السـلاحف... وهكـذا تعيـش إرادة الحيـاة فـى كل مـكان علـى نفسـها.. وهـى غـذاء نفسـها فـى أشـكال مختلفـة، حتـى نصـل أخيـرًا إلـى الجنـس البشـرى الـذى يخضـع جميـع الأنـواع الأخـرى، ويعتبـر الطبيعـة مصنعًـا لاسـتخدامه الخـاص. ومـع ذلـك فحتـى الجنـس البشـرى... يكشـف بنفسـه فـى وضـوح عـن هـذا الصـراع الرهيـب الـذى يقـع نتيجـة اختـلاف الإرادة مـع نفسـها! وسـوف نجـد أن الرجـل للرجـل ذئـب «home homini lupus»[1].

والصـورة الإجماليـة للحيـاة غالبًـا مـا تكـون شـديدة الإيـلام بدرجـة لا يتصورهـا العقـل، وتعتمـد الحيـاة علـى عـدم معرفتنـا إياهـا حـق المعرفـة.

(١) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص١٩٢، المجلد الثالث ـ ص ١١٢، المجلد الأول ـ ص ١٩١.

«وإذا كان علينا أن نستحضر أمام بصر الإنسان ذينك الشقاء والبؤس الرهيبين اللذين تتعرض لهما حياته باستمرار، لاستبد به الفزع، ولو أنه كان علينا أن نقود المتفائل الراسخ فى تفاؤله إلى المستشفيات، وملاجئ العجزة، وغرف العمليات الجراحية، وأدخلناه السجون، وغرف التعذيب، وأوجار العبيد، ومررنا به فوق ميادين القتال، وساحات الإعدام، ولو فتحنا له المآوى المظلمة التى يختفى فيها الشقاء من نظرات الفضول الباردة، وأخيرًا لو سمحنا له بأن يطل على كهوف الجائعين فى أوجولينو golino لفهم أخيرًا طبيعة «هذا العالم الذى هو خير العوالم» إذ: من أين استقى دانتى Dante مادة ملحمته عن الجحيم؛ اللهم ألا من عالمنا الواقعى؟ ومع ذلك فقد صاغ منها جحيما كاملًا جدًّا. ولكنه عندما جاء ـ فى الناحية الأخرى ـ لوصف الجنة ومباهجها واجهته صعوبة لا يمكن التغلب عليها، لأن عالمنا لا يتيح أية مادة لهذا... ولا تستطيع ملحمة أو رواية شعرية أن تمثل سوى الصراع والجهد ـ والكفاح فى سبيل السعادة؛ لا السعادة الدائمة الكاملة الدائمة ذاتها. وتمضى الرواية أو الملحمة بأبطالها خلال آلاف الأخطار والمصاعب فى الطريق إلى الهدف؛ وحالما يبلغون الهدف تسرع الستارة بالانسدال؛ لأنه لم يعد هناك شىء لتظهره إلا أن تبين أن الهدف البراق الذى توقع البطل أن يجد فيه السعادة لم يجد عنده إلا خيبة الأمل فحسب، إذ أنه بعد أن بلغ الهدف لم يصبح أسعد حالًا عما كان عليه قبل ذلك»[1].

ونحن أشقياء إذا تزوجنا، وإذا لم نتزوج فنحن أشقياء. ونحن

(١) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص٤١٩، ٤١٣.

أشـقياء عندمـا نكـون وحدنـا، وأشـقياء عندمـا نكـون فـى مجتمـع: ونحـن كالقناقـد تتجمـع للـدفء، إلا أنهـا لا تشـعر بالراحـة عندمـا يتـم التفافهـا للغايـة، ومـع ذلـك فهـى تعسـة لـو بقيـت متباعـدة بعضهـا عـن البعـض الآخـر. والأمـر كلـه مضحـك جدًّا؛ «وحيـاة كل فـرد ـ إذ بحثناها فـى مجملها... وقصرنـا اهتمامنـا فحسـب علـى أهـم ملامحهـا ـ فهـى فـى الحقيقـة مأسـاة دائمًـا، أمـا إذا بحثناهـا تفصيـلًا لوجدناهـا تحمـل طابـع الملهـاة»[١]. فلتفكـر فـى هـذا:

«عندمـا يدخـل طفـل فـى الخامسـة مـن عمـره مغـزلًا أو أى مصنـع آخر، ومـن ذلـك الوقـت فصاعـدًا يبقـى فـى المصنـع يوميًـا عشـر سـاعات فـى البدايـة ثـم اثنتـى عشـرة سـاعة، وأخيـرًا أربع عشـرة سـاعة، وهو يـؤدى نفس العمـل الآلـى يالـه مـن ثمـن غـال لإشـباع الحاجـة إلـى التنفـس. ولكـن ذلـك مصيـر الملاييـن، وهنـاك ملاييـن أخـرى تشـبه هـذه الملاييـن... ومـرة أخـرى تكمـن تحـت القشـرة المحكمـة لهـذا الكوكـب قـوى شـديدة للطبيعـة؛ التى، حالمـا تجـد فـى حـادث مـا مجـالًا للانطـلاق، تحطـم بالضـرورة هذه القشـرة بـكل مـا يعيـش فوقهـا، كمـا حـدث مـن قبـل ثـلاث مـرات علـى الأقـل فـوق كوكبنـا، وقـد يحـدث بعـد الآن أكثـر مـن هـذه المـرات. وليـس زلزال لشـبونة Lisbon، وزلـزال هاييتـى Habti وخـراب بومبـى، سـوى إشـارات طفيفـة لمـا هو محتمـل»[٢].

وإزاء كل هـذا، يعـد «التفـاؤل سـخرية مريـرة مـن أحـزان الإنسـان»[٣]؛ ولا نسـتطيع أن نصـف ربوبيـة لايبنتـس بأنهـا كشـف منهجـى واسـع عـن

(١) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ٤١٥.

(٢) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثالث ـ ص ٣٨٩ ـ ٣٩٥.

(٣) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ٤٢٠.

التفـاؤل. وأى فضـل أكثـر مـن أنـه أتـاح الفرصـة حتـى تظهـر بعـد ذلـك قصة «كانديـدا» للكاتـب العظيـم فولتيـر، حيث تلقـت المعاذير المتكـررة العرجاء التـى التمسـها للشـر فـى العالـم ـ مـن أن الخبيـث قـد يأتـى بالطيـب أحيانًا ـ تأييـدًا لـم يكـن لايبنتس نفسـه يتوقعـه»[1]. وموجز القـول «إن طبيعـة الحياة فـى الصـور التـى تقـدم بهـا نفسـها لنـا كأنمـا هـى مقصـودة ومدبـرة، بحيث توقـظ فينـا الاعتقـاد بأنـه ليـس فيهـا شـىء يسـتحق كفاحنـا أو جهودنـا أو صراعنـا فـى سـبيله، وأن مـا هـو منهـا إنمـا هـو عبـث، والعالـم فاشـل فى كل مـا يرمـى إليـه، بـل أن الحياة ليسـت إلا صفقة خاسـرة لا تغطـى تكاليفها»[2].

ولكـى يكـون المـرء سـعيدًا يجـب أن يكـون فـى جهالـة الشـباب الـذى يـرى إن الإرادة والكفـاح مباهـج، لأنـه لـم يتبيـن بعـد التعـب الـذى يعانيـه المـرء مـن عـدم إشـباع الرغبـة، وأن تحقيـق الرغبـة لا يأتـى بثمـرة، بـل إنـه لـم يـر بعـد أن الهزيمـة حتميـة لا مفـر منهـا.

«ويرجـع بعـض مـرح الشـباب وحيويتـه إلـى أننـا عندمـا نصعـد تـل الحيـاة، لا يكـون المـوت مرئيًـا، إذ يكـون قائمًـا فـى الجانـب الآخـر مـن سـفح التـل... حتـى إذا قاربـت الحيـاة مـن نهايتهـا، كان كل يـوم نعيشـه يثير فينـا نفـس الإحسـاس الـذى يشـعر بـه المجـرم مـع كل خطـوة يخطوهـا نحو المشـنقة.. وإذا مـا أراد المـرء أن يـرى كـم فـى الحيـاة قصيـرة، فيجـب أن يكـون قـد عـاش طويـلًا... وحتـى السادسـة والثلاثيـن مـن أعمارنـا يمكـن مقارنتنـا، مـن ناحيـة الطريقـة التـى تسـتخدم بهـا نشـاطنا الحيـوى، بأولئـك

(١) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثالث ـ ص ٣٩٤.

(٢) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثالث ـ ص ٣٨٣.

الذيـن يعيشـون علـى فائـدة أموالهـم، فمـا يبذلونـه اليـوم يحصلـون عليـه ثانيـة فـى غدهـم. أمـا بعـد السادسـة والثلاثيـن مـن العمـر، فيكـون موقفنـا كموقـف ذلـك المسـتثمر الـذى يبـدأ فـى الإنفـاق مـن رأس المـال... وهـذا الخـوف مـن الكارثـة هـو الـذى يزيـد حـب الملكيـة مـع تقـدم السـن... فليـس الشـباب هـو أسـعد فتـرات الحيـاة، بـل هنـاك حقيقـة أكثـر صدقًـا مـن هـذا فـى الملاحظـة التـى ذكرهـا أفلاطـون فـى بدايـة «الجمهوريـة»، وهـى أن الجائـزة يجـب أن تكـون مـن نصيـب الشـيخوخة، لأن الإنسـان فـى هـذا الوقـت يكـون قـد تحـرر أخيـرًا مـن العاطفـة الحيوانيـة التـى لـم تكـن قـد كفـت عـن إزعاجـه حتـى ذلـك الوقـت... ومـع هـذا يجـب ألا ننسـى أنـه عندمـا تنطفـئ هـذه العاطفـة، يكـون الجوهـر الحقيقـى للحيـاة قـد ذهـب، ولـم يعـد يبقـى منهـا سـوى الصدفـة الخاليـة؛ أو حسـب وجهـة نظـر أخـرى، تصبـح الحيـاة عندئـذ أشـبه بكوميديـا بـدأت بممثليـن حقيقييـن، ثم تسـتمر حتـى إذا مـا بلغـت النهايـة ألفينـا دمـى ترتـدى ثيـاب الممثليـن»[١].

وفـى النهايـة، نواجـه المـوت. وفـى الوقـت الـذى تبـدأ فيـه الخبـرة فـى تنسـيق نفسـها مـع الحكمـة، يأخـذ الذهـن والجسـد فـى الضعـف والهـزال. ويبطـئ كل شـىء للحظـة فحسـب، ثـم يسـرع فـى طريقـه إلـى المـوت[٢]. فـإذا تأجـل وقـت المـوت، فإنمـا يكـون ذلـك لكـى يعبـث بنـا كمـا يعبـث القـط بفـأر لا حـول لـه ولا قـوة. «وإنـه لمـن الواضـح أنـه: كمـا أن المشـى معتـرف بـه علـى أنـه ليـس إلا منـع دائـم للوقـوع، فكـذا حيـاة أجسـامنا ليسـت سـوى منـع مسـتمر للمـوت، مـوت مؤجـل دائمًـا»[٣]. «ومـن بيـن

(١) حكم وأمثال ـ ص ١٢٤ ـ ١٣٩.

(٢) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثانى ـ ص ٤٥٤، المجلد الثالث ـ ص ٢٦٩.

(٣) حكم وأمثال ـ ص ٢٨، ملاحظة.

الزخـارف والزينـات الرائعـة التـى كانـت لطغـاة الشـرق، فثمـت قـارورة مـن السـم غاليـة الثمـن دائمًـا»[1]. فالفلسـفة الشـرقية تفهـم أن المـوت حاضـر دائمًـا. وتقـدم لطالبـى هـذه الفلسـفة تلـك الناحيـة الهادئـة والبـطء الكريـم فـى السـلوك ممـا ينجـم عـن إدراكهم لقصـر الوجـود الشـخصى. والخوف من المـوت هـو بدايـة الفلسـفة، والسـبب الأصلـى للديـن. ولا يسـتطيع الرجـل العـادى أن يتقبـل المـوت فـى استسـلام، ومـن ثـم راح يصنع فلسـفات وعلوم دينيـة لا حصـر لهـا، بـل إن الاعتقـاد الـذى يسـود عـن الخلـود مـا هـو إلا برهـان علـى الخـوف الرهيـب مـن المـوت.

وكمـا أن اللاهـوت ملجـأ مـن المـوت، فكذلـك الجنـون ملجـأ مـن الألـم، إذ «يأتـى الجنـون كطريقـة لتخليـص الذاكـرة مـن الشـقاء»[2]؛ وهـو ليـس إلا قطعًـا يحـدث فـى خيـط الشـعور؛ فنحـن لا نسـتطيع التغلـب علـى بعـض التجـارب أو المخـاوف إلا بتجاهلهـا.

«لكـم نفكـر علـى غيـر رغبـة فـى أشـياء تضـر بمصالحنـا ضـررًا شـديدًا، وتجـرح كبرياءنـا أو تتعـارض مـع رغباتنـا، فمـا أصعـب أن نصـر علـى وضـع هـذه الأشـياء أمـام عقولنـا لبحثهـا بحثًـا جديًـا دقيقًـا.. ففـى تلـك المقاومـة لـلإرادة ـ لكـى تسـمح ـ لمـا يناقضهـا.. بـأن يوضـع تحـت بحـث العقـل، يجـد الجنـون منفـذًا إلـى العقـل.. فـإذا بلغـت مقاومـة الإرادة لإدراك بعـض المعـارف، إذا مـا بلغـت درجـة لا تتـم معهـا عمليـة الإدراك بصـورة كاملـة، عندئـذ تصبـح بعـض العناصـر أو الظـروف مكبوتـة تمامًـا فـى العقـل لأن الإرادة لا تسـتطيع تحمـل رؤيتهـا. وعندئـذ تنجـم فجـوات

(١) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ١١٩.

(٢) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ٢٥٠.

يتحتـم ملؤهـا كمـا تهـوى الإرادة، ومـن ثـم يبـدو الجنـون. لأن العقـل يكـون قـد تخلـى عـن طبيعتـه إرضـاء لـلإرادة، فيتخيـل الإنسـان الآن مـالا وجـود لـه. ومـع ذلـك فالجنـون الـذى ينشـأ هكـذا يكـون أحـد روافـد شـقاء غيـر محتمـل إذ يكـون آخـر عـلاج للطبيعـة المنهكـة أى لـلإرادة[1].

والملجـأ الأخيـر هـو الانتحـار. ومـن الغريـب أن نقـول هنـا إن الفكـر والخيـال ينتصـران أخيـرًا علـى الغريـزة، وقـد يقـال أن ديوجنيـس Diogenes وضـع لهـا نهايـة لحياتـه بـأن رفـض التنفـس؛ فيالـه مـن انتصـار علـى إرادة الحيـاة! ولكـن هـذا النصـر ليـس إلا مجـرد انتصـار فـردى، إذ تسـتمر الإرادة فـى حيـاة النـوع. وتضحـك الحيـاة مـن الانتحـار، وتبتسـم للمـوت؛ ففـى مقابـل كل وفـاة تحـدث عـن عمـد فثمـت آلاف مـن المواليـد تـرد إلـى الحيـاة مـن غيـر عمـد. «فالانتحـار، هـو التحطيـم المقصـود لظاهـرة الوجـود المفـردة، عمـل تافـه أحمـق، إذ أن الشـىء فـى ذاتـه ـ أى النـوع والحيـاة والإرادة عامـة ـ تبقـى كلهـا دون أن تتأثـر بـه، وتظـل كقـوس قزح الـذى يبقى حتـى اللحظـة التـى يتحيـن فيهـا الفرصـة للسـقوط مهمـا كانـت سـرعة نقط الميـاه التـى يقـوم عليهـا القـوس فـى تكوينـه»[2]. ويسـتمر الشـقاء والصـراع بعـد وفـاة الفـرد، بـل يجب أن يسـتمرا طالمـا سـيطرت الإرادة على الإنسـان. ولا يمكـن أن يكـون هنـاك انتصـار علـى شـرور الحيـاة حتـى تخضـع الإرادة خضوعًـا تامًـا للمعرفـة والعقـل.

---

(١) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثالث ـ ص ١٦٧- ١٦٩. وهذا ما قال به فرويد فيما بعد.

(٢) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ٥١٥.

حكمة الحيـاة

١- الفلسفة

نأمـل أولًا وقبـل كل شـىء فـى سـخف الرغبـة حيـن ترنـو إلـى الأشـياء المادية، فقـد يظـن الحمقـى إنهـم إذا هـم حققوا لأنفسـهم الثراء لاسـتطاعوا بذلـك إشـباع إرادتهـم إشـباعًا تامًـا؛ إذ إنهـم يفترضـون أن الرجـل الثـرى رجل لـه مـن الوسـائل مـا يكفـل لـه تحقيـق كل رغبـة مـن رغباتـه. «وغالبًا مـا يلام النـاس لرغبتهـم فـى المـال قبـل كل مـا عـداه مـن أشـياء، ولحبهـم إيـاه الذى يفـوق حبهـم لأى شـىء آخـر، ولكنـه مـن الطبيعى بل وممـا لا بد منـه للناس أن يحبـوا ذلـك الـذى يكـون علـى اسـتعداد دائـم لتحويـل نفسـه ـ شـأنه فـى ذلـك شـأن برويتـوس Proteus الـذى لا يتعـب قـط ـ إلـى أى شـىء تتجه إليه رغباتهـم الضالـة، أو رغباتهـم المتعـددة الحنايـا. أمـا ماعـدا ذلـك، فـلا يشـبع سـوى رغبـة واحـدة، والمـال وحـده هـو الصالح لكل شـىء صلاحيـة مطلقة... لأنــه الإشــباع المعنــوى لــكل رغبــة»[١]. ومـع ذلـك، فإننـا نوقـن أن الحيـاة التـى تكـرس لجمـع الثـروة تكـون عديمـة النفـع مـا لـم نعـرف كيـف نحولها إلـى متعـة، وهـذا فـن يتطلـب ثقافـة وحكمـة. وتـكاد الرغبـات الحسـية ألا

(١) الحواشى والبواقى «حكمة الحياة» ـ ص ٤٧.



تشبع أبدًا، مما يوجب على المرء أن يفهم أهداف الحياة كما يفهم فن الحصول على المال».

«ويهتم الناس بأن يصبحوا أثرياء أكثر من اهتمامهم بالثقافة ألف مرة، وأن كان من المؤكد تمامًا أن ما يكون عليه المرء يساهم فى إسعاده أكثر مما قد يكون لديه»[١]، «فالرجل الذى ليست له حاجيات عقلية لا يعرف ماذا يفعل بوقت فراغه، فالفراغ التام ممل[٢] وهو يبحث فى شراهة من مكان إلى مكان عن مثيرات جديدة، ثم يغلب عليه أخيرًا الضجر الذى هو انتقام الآلهة من الأغنياء المتعطلين[٣].

فالطريق إلى السعادة ليس بالثروة بل باتباع الحكمة.«فالإنسان هو الجهد العنيف الذى تبذله الإرادة (التى يعد الجهاز التناسلى بؤرتها)، والموضوع الخالد الحر السامى الذى يخضع للمعرفة الخاصة (وبؤرتها الذهن)[٤]. ومن العجيب أن نقول إن المعرفة ـ وأن كانت وليدة الإرادة، فقد تسيطر على الإرادة. ويبدو إمكانية استقلال المعرفة أولًا فى الطريقة الحيادية التى يستجيب بها العقل أحيانًا لما تمليه الرغبة». «وأحيانًا يرفض العقل إطاعة الإرادة؛ ومثال ذلك عند ما نحاول عبثًا أن نركز عقولنا على شىء، أو عندما نسترجع عبثا ذكرى شىء قد أودعناه إياها. ويتجلى من غضب الإرادة على العقل فى مثل هذه المناسبات وضوح صلتها به والفرق بين كل منهما، فالعقل إذ يرتبك ويقع فى حيرة نتيجة للغضب، يأتى بما كان

(١) الحواشى والبواقى «حكمة الحياة» ـ ص ١١.

(٢) Difticilis in otio quies. الحواشى والبواقى ـ «حكمة الحياة» ـ ص ٣٩.

(٣) الحواشى والبواقى ـ «حكمة الحياة» ـ ص ٢٢.

(٤) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ٢٦٢.

قد طلب منه قبل ساعات، بل قد يحدث ذلك فى الصباح التالى على غير انتظار ودون موعد»[1]. ومن هذه الفائدة غير الكاملة قد ينتقل العقل إلى حالة السيطرة الكاملة. «وطبقًا لتأمل سابق أو ضرورة معترف بها ـ يعانى المرء، أو يحقق ببرود، ما يكون ذا أهمية كبرى وما تكون له غالبًا أهمية رهيبة: مثل الانتحار، والإعدام، والمبارزة، وكل عملية محفوفة بالخطر على الحياة من أى نوع وأشياء أخرى تثور عليها كل طبيعته الحيوانية. وفى مثل هذه الظروف نرى إلى أى مدى يكون العقل قد سيطر على الطبيعة الحيوانية»[2].

وهذه القوة التى للعقل على الإرادة تسمح بالنمو المتبصر، ويمكن بالمعرفة جعل الرغبة معتدلة أو هادئة، كما يمكن الوصول إلى ذلك أيضًا بالفلسفة الحتمية التى تعترف بأن كل شىء ليس إلا نتيجة حتمية لما سبقه.

«ومن بين كل عشرة أشياء تثير مضايقتنا، لن تستطيع تسعة منها أن تفعل ذلك إذا ما فهمناها فهمًا تامًا بأسبابها، وعرفنا بهذا ضرورتها وطبيعتها الحقة.. لأنه كما يكون اللجام للجواد الشرس يكون العقل بالنسبة للإرادة فى الإنسان»[3]. «ولن ينجح شىء فى التوفيق تمامًا، بين الضرورة الداخلية والخارجية كما تفعل المعرفة الواضحة»[4]. «وكلما زادت معرفتنا بعواطفنا، قلت سيطرتها علينا»؛ ولا شىء

(١) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثانى ـ ص ٤٣٩.

(٢) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ١١٢.

(٣) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثانى ـ ص ٤٢٦.

(٤) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ٣٩٦.

يحمينا من الاضطرار الخارجى مثل سيطرتنا على أنفسنا»[1] فإذا استطعت أن تخضع كل الأشياء لنفسك، فاخضع نفسك للعقل»[2] (سينيكا) ـ وليس أعظم العجائب هو من ينتصر على العالم كله، بل ذلك الذى يخضع نفسه.

وهكذا تطهر الفلسفة الإرادة. ولكن يجب أن تفهم الفلسفة على إنها خبرة وفكر ـ لا مجرد اطلاع أو دراسة سلبية.

«إن استمرار انسياب أفكار الآخرين يجب أن يحبس ويكبت أفكارنا نحن، بل يشل مع الزمن قدرتنا على التفكير... ويميل أغلب العلماء إلى أن يكونوا مجرد نوع من آلات الامتصاص Fugav acui نتيجة لفقر عقولهم التى تجتذب إليها أفكار الآخرين عنوة... ومن الخطر أن نقرأ عن موضوع قبل أن نكون قد فكرنا فيه نحن بأنفسنا.. فإننا حينما نقرأ، نجعل شخصًا آخر يفكر لنا، ونكتفى نحن بأن نردد عمليته العقلية.. وهكذا نأتى إلى نتيجة هى أنه إذا ما صرف فرد طول يومه فى القراءة، فإنه يفقد تدريجيًا قدرته على التفكير... ويمكن اعتبار خبرة العالم كلها على أنها نوع من النصوص، لا يكون التأمل والمعرفة إلا تعليقًا عليها. وكلما كان هناك الكثير من التأمل والمعرفة العقلية، وقليل جدًا من الخبرة، تكون النتيجة أشبه بتلك الكتب التى يكون فى كل صفحة من صفحاتها سطران من النص وأربعون سطرًا تعليقًا»[3].

(١) حكم وأمثال ـ ص ٥١.

(٢) Si vis omnia subjioere, sujice te rationi.

(٣) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثانى ـ ٥٢٤، الحواشى والبواقى «عن الكتب والقراءة»، حكم وأمثال ـ ص ٢١.

والنصيحة الأولى إذن هى الحياة قبل الكتب، والنصيحة التالية هى النص قبل التعليق. وعليك أن تقرأ آثار المبدعين، لا العارضين والنقاد. «فإننا لا نستطيع أن نتلقى الأفكار الفلسفية إلا عن المؤلفين أنفسهم. ومن ثم، كان على من يشعر فى نفسه انجذابًا نحو الفلسفة أن يبحث عن معلميها الخالدين فى معبد أعمالهم الهادئ»[1] ـ فإن ما ينتجه العبقرى من عمل يساوى ألف تعليق.

وفى نطاق هذه الحدود، تكون متابعة الثقافة ذات قيمة، حتى لو جاءت عن طريق الكتب، لأن سعادتنا تتوقف على ما يكون فى رؤوسنا لا على ما فى جيوبنا، أما الشهرة فليست إلا حماقة «إذ أن رؤوس الآخرين ليست إلا أسوأ مكان يختاره المرء مقامًا لسعادته الحقة»[2].

وأن ما يمكن أن يكونه إنسان لامرئ آخر لن يكون كثيرًا، إذ إن كل واحد سيقف وحده فى نهاية الأمر، والأمر المهم هو من يكون ذلك الذى يقف وحده.. وأن السعادة التى نتلقاها من أنفسنا تكون أعظم من تلك التى نحصل عليها مما يحيط بنا.. فالعالم الذى يعيش فيه المرء يشكل نفسه ـ أساسًا ـ بالطريقة التى ينظر بها ذلك الفرد إلى العالم. وطالما أن كل شىء يوجد أو يحدث لإنسان إنما يوجد فى شعوره فحسب، ويحدث له وحده، فيكون أهم شىء للإنسان هو تكوين شعوره.. ولذا يعد صحيحًا جدًّا قول أرسطو أن «معنى أن تكون سعيدًا هو أن تكون مكتفيًا اكتفاءً ذاتيًا»[3].

---

(١) حكمة الحياة ـ ص ١١٧.

(٢) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ المقدمة.

(٣) حكمة الحياة ـ ص ٢٧، ٤ - ٩

ولا مخرج من شر الإرادة الذى لا ينتهى إلا بالتأملات الذكية للحياة، والبحث فى انتصارات العظماء فى جميع العصور وجميع البلاد؛ فلمثل هذه العقول المحبة عاش أولئك العظماء.«ولا يسمو إلا ذلك الفكر الذى يتجلى بالبعد عن الأنانية فيكون كالعطر فوق أخطاء وحماقات عالم الإرادة»[1]. وأغلب الناس لا يستطيعون الارتفاع بأنفسهم عن مجرد رؤية الأشياء على إنها أهداف للرغبة ـ ومن هنا كانت تعاستهم؛ أما رؤية الأشياء كمجرد هدف للفهم، فأنما يعد صعودًا إلى الحرية.

«وعندما يجتذبنا فجأة من سيل الإرادة الذى لا نهاية له سبب خارجى أو ميل داخلى، فيخلص المعرفة من عبودية الإرادة، لا يصير الانتباه موجهًا بعد ذلك إلى دوافع الإرادة، بل إلى فهم الأشياء وقد خلصت من علاقتها بالإرادة، ومن ثم يرقب هذه الأشياء دون أدنى مصلحة شخصية ودونما ذاتية[2] بل بموضوعية خالصة ـ ويعطى نفسه كلها لها طالما هى أفكار، وما دامت ليست دوافع. وعلى أثر ذلك يحل السلام والهدوء اللذين تنشدهما دائمًا فإذا كانا يهربان دومًا منا إلى الطريق السابق: طريق الرغبة، فسيأتيان إلينا طواعية، وهذا أمر طيب لنا. وهذه ذاتها الحياة التى تخلو من الألم والتى امتدحها ابيقور واعتبر أنها الخير الأسمى وإنها حالة الآلهة، لأننا نكون فى تلك اللحظة قد تخلصنا من كفاح الإرادة التعس، ونكون قد تحررنا من عبودية الإرادة، فتستقر عندئذ عجلة أكسبون[3].

(١) حكمة الحياة ـ ص ٣٤، ١٠٨.

(٢) نسبة إلى مذهب نسبية المعرفة عند كانت.

(٣) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ٢٥٤. تقول الأساطير القديمة أن أكسيون

٢ ـ العبقرية

العبقريـة هـى أرقـى أشـكال المعرفـة اللاإراديـة، وأحـط صـور الحيـاة هـو كليـة الإرادة دون معرفـة، والإنسـان بصفـة عامـة أغلبـه إرادة وأقلـه معرفـة، أمـا العبقريـة فأغلبهـا معرفـة وأقلهـا إرادة. «وتتكـون العبقريـة مـن أن طاقـة المعرفـة تكـون قـد نالـت نصيبًـا مـن النمـو أكبـر بكثيـر ممـا تطلبـه الإرادة»[١] وينطـوى هـذا علـى انتقـال بعـض القـوة إلـى النشـاط العقلـى عـن طريـق النشـاط التناسـلى. «والشـرط الأساسـى للعبقريـة يكـون بالسـيطرة السـابقة غيـر الطبيعيـة علـى العقـل والضجـر مـن القـوة التناسـلية»[٢]. ومـن هنـا نشـأت العـداوة بيـن العبقريـة والمـرأة التـى تمثـل التناسـل وتمثـل خضـوع العقـل لإرادة الحيـاة والعيـش: «وقـد يكـون للنسـاء موهبـة عظيمـة، ولكـن ليسـت فيهـن عبقريـة، لأنهـن دائمًـا يظللـن ذاتيـات»[٣]. وكل شـىء عندهـن شـخصى ويرونـه علـى أنـه وسـيلة للغايـات الشـخصية. ومـن ناحيـة أخـرى «فـإن العبقريـة ببسـاطة هـى أكمـل صـور الموضوعيـة ـ أى نظـر العقـل إلـى الأمـور مـن الناحيـة الموضوعيـة الخالصـة... والعبقريـة هـى القـدرة علـى أن يبعـد المـرء تمامًـا عـن نظـره مصالحـه ورغباتـه وأهدافـه، ويتخلـى الشـخص تمامًـا عـن شـخصيته بأكملهـا لفتـرة مـن الوقـت حتـى يبقـى مجـرد ذات عارفـة خالصـة. ومـن ثـم يـرى العالـم رؤيـة واضحـة.. ولـذا جـاء مدلـول لفظـة العبقريـة مشـيرًا

حاول أن يكسب جونو Junoمن جوبيتر Jupiter، فعوقب عقابًا شديدًا إذ ربط إلى عجلة تدور إلى الأبد.

(١) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثالث ـ ص ١٣٩.

(٢) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثالث ـ ص ١٥٩.

(٣) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثالث ـ ص ١٥٩.

إلى سيطرة المعرفة على الإرادة سيطرة ثابتة مقررة فى الملامح العادية فثمة تعبير غالب للإرادة، ونحن نرى أن المعرفة لا تأتى إلى دائرة العمل إلا وهى تحت دافع الإرادة، وهى لا توجه إلا بدوافع من المزايا والمصالح الشخصية فحسب»[1].

وإذا تخلى العقل عن الإرادة أمكنه أن يرى الموضوع كما هو؛ «فالعبقرية تمسك لنا المرآة السحرية التى يظهر عليها كل ما هو ضرورى ومهم وقد جمع ووضع فى أسطع ضوء، أما كل ما هو عرضى غريب فيرى وقد أبعد عنها»[2]. وينفذ الفكر من العاطفة كما يخترق شعاع الشمس السحب، فيكشف قلب الأشياء، ويذهب إلى ما وراء الفرد وخاصة إلى مثال «أفلاطون»، أو روحه العامة التى هى شكل ـ تمامًا كما يرى الرسام فى الشخص الذى يرسمه، لا مجرد شخصية الفرد وملامحه فحسب، بل صفة عامة وحقيقة دائمة، لا يكون الفرد فى كشفها إلا مجرد رمز أو وسيلة. ومن ثم، فإن سر العبقرية هو الوصول إلى الحقيقة الموضوعية والجوهرية العامة دونما تحيز، بل فى وضوح تام.

وعندما يعمد العبقرى إلى أن يمحو شخصيته وينكر ذاته، يجد نفسه فى وضع سيئ فى عالم مليء بالإرادة والنشاط الشخصى والعملى فهو لبعد نظره لا يرى الأشياء القريبة، وهو عديم الفطنة وعجيب «إذ قد يرنو ببصره إلى أحد النجوم فيقع فى بئر. ومن هنا جاء عدم ميل العبقرى إلى الاجتماع بالناس، فهو يفكر فيما هو جوهرى

(١) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ٢٤٠، ٢٤٣.

(٢) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ٣٢١.

وأساسـى وعـام وخالـد، بينمـا يفكـر الآخـرون فيمـا هـو مؤقـت وخـاص ومباشـر. ومـن ثـم لـم يـك ثمة أسـاس مشـترك بيـن عقلـه وعقولهـم وبالتالى فإنهمـا لا يلتقيـان أبـدًا. «والقاعـدة أن الإنسـان بصفـة عامـة اجتماعـى بنفس الدرجـة التـى يكـون عليهـا عقلـه مـن الضعـف فضـلًا عـن إنـه يكـون عاميًـا بصفـة عامـة»[1]. أمـا العبقـرى فلـه مـا يسـتعيض بـه عـن هـذا، وليسـت بـه حاجـة إلـى مصاحبـة النـاس كثيـرًا ـ كمـا يفعـل أولئـك الذيـن يعيشـون دائمًا فـى حالـة اعتمـاد علـى ما هـو خارجـى عنهـم. «فاللذة التـى يستشـعرها من الجمـال كلـه، والسـلوى التـى يقدمهـا لـه الفـن، وحمـاس الفنـان... تسـاعده علـى نسـيان شـواغل الحيـاة»، و«تعوضـه عـن العنـاء الـذى يزيـد نسـبيًا مـع جـلاء وعيـه، وعـن وحدتـه بيـن جنـس مـن البشـر يخالفـه»[2].

وعلـى أيـة حـال، فـلا منـاص مـن أن يكـره العبقـرى علـى العزلـة وقـد يصـل بـه الأمـر أحيانًـا إلـى الجنـون، إذ أن الحساسـية المرهفـة التـى تجلـب عليـه الألـم إذا مـا وضعـت جنبًـا إلـى جنـب مـع الخيـال والبصيـرة، فضـلًا عـن العزلـة التـى اضطـر لهـا وسـوء الوضـع الـذى يشـعر بـه... كل ذلـك يفـكك الروابـط التـى تربـط العقـل بالواقـع. ومـرة أخـرى يصيـب أرسـطو إذ يقـول: «أن الرجـال البارزيـن فـى الفلسـفة أو فـى السياسـة أو فـى الشـعر أو فـى الفـن يبـدون جميعًـا ذوى مـزاج حزيـن»[3]. وتؤيـد سـير العظمـاء الارتبـاط المباشـر بيـن الجنـون والعبقريـة، ومـن مثـال هـؤلاء العباقـرة

(١) حكمة الحياة ـ ص ٢٤ ـ An apologia pro vita sua.

(٢) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ٣٤٥.

(٣) فى «حكمة الحياة» - ص ١٩.

الذيـن انتهـوا إلـى الجنـون روسـو وبايـرون والفيـرى Alfieri وغيرهـم»[١].
«ولقـد وجـدت بعـد مـا قامـت بـه مـن بحـث دؤوب فـى مستشـفيات المجانيـن عـدة حـالات فردية لمرضـى موهوبيـن بمواهـب عظيمـة علـى نحـو لا يقبـل الجـدل، وتظهـر عبقريتهـم بوضـوح مـن خـلال جنونهـم»[٢].

ومـع ذلـك ففـى هـؤلاء العباقـرة، أنصـاف المجانيـن، ارسـتقراطية حقـة للجنـس البشـرى. «وبالنظـر إلـى العقـل، فالطبيعـة غايـة فـى الارسـتقراطية. والفـوارق التـى فرضتهـا تفـوق تلـك التـى تصطنـع فـى كل بلـد بالميـلاد والمرتبـة والثـروة والطبقـة»[٣]. والطبيعـة لا تهـب العبقريـة إلا للقليليـن لأن مثـل هـذا المـزاج يعـوق السـير الطبيعـى للحيـاة التـى تتطلـب تركيـزًا علـى الجزئـى المباشـر. «ولقـد قصـدت الطبيعـة فـى الحقيقـة أن يكـون حتـى العلمـاء فلاحيـن لـلأرض، ويجـب أن يقـاس أسـاتذة الفلسـفة حقًّـا بهـذا المعيـار؛ وعندئـذ تظهـر أعمالهـم إنمـا هـى أمانـى خالصـة»[٤].

٣- الفن

إنمـا هـذا التحريـر للمعرفـة مـن عبوديـة الإرادة، وتجاهـل المـرء لذاتـه الفرديـة ومصالحـه الماديـة، وهـذا التسـامى بالفعـل إلـى التأمـلات اللاإراديـة فـى الحقيقـة ـ إنمـا كل هـذا هـو وظيفـة الفـن. وإذا كان موضـوع العلـم هـو الكلـى الـذى يشـمل عـدة جزئيـات، فموضـوع الفـن

(١) هذا ما قال به لومبروزو Lombroso فيما بعد، ثم أضاف أيضًا شوبنهاور إلى القائمة.

(٢) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ٢٤٧.

(٣) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثانى ٣٤٢.

(٤) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثالث ـ ص ٢٠. ولا شك إن أستاذ الفلسفة يستطيع أن ينتقم لنفسه ويثأر لشخصه بأن يذكر أن الطبيعة تجعل منا صيادين لا فلاحين، هذا إلى أن الزراعة كشف إنسانى وليست غريزة طبيعية.

هـو الخـاص الـذى يشـمل الكلـى. «وحتـى الصـورة يجـب أن تكـون ـ كمـا قـال فينكلمـان ـ المثـل الأعلـى للفـرد»[1]. «وفـى رسـم الحيـوان يعـد أكثـر الرسـوم إيضاحًـا للطابـع المميـز فـى الحيـوان أكثرهـا جمـالًا لأن الأفضـل يكـون أحسـنها فـى الكشـف عـن النـوع. ومـن ثـم يكـون العمـل الفنـى ناجحًـا بنسـبة مـا يوحـى بـه مـن مثـال أفلاطونـى أو عالمـى عـن المجموعـة التـى ينتمـى إليهـا موضـوع الرسـم. وعلـى ذلـك، فـلا يتحتـم علـى الإنسـان أن يسـتهدف سـعيه إلـى دقـة التصويـر الفوتوغرافـى بـل عليـه أن يعـرض ـ مـا أمكنـه ذلـك ـ فـى ذلـك الشـىء المفـرد الـذى يرسـمه بعـض الصفـات الجوهريـة أو العامـة للإنسـان». والفـن أعظـم مـن العلـم لأن العلـم يتأتـى نتيجـة للجمـع المجهـد المضنـى والإتيـان بالأدلـة فـى حـذر، بينمـا يصـل الفـن إلـى هدفـه فـورًا بالبصيـرة والإبـراز، ويسـتطيع العلـم أن يمضـى قدمًـا بالموهبـة، ولكـن الفـن يتطلـب العبقريـة.

وإننا نسـتقى متعتنا بالطبيعة ـ كما فى الشـعر والرسـم من تأمل الشـىء دون أن نخلطه بالإرادة الشـخصية؛ فنهر الراين عند المصور مجموعة مختلفة مـن المناظـر السـاحرة تثيـر الحـواس والخيـال بمـا توحـى بـه مـن جمـال، أما المسافر العادى الذى لا يهتم إلا بشئونه الشخصية «فيرى نهر الراين وشاطئيه مجـرد خـط، والكبارى مجرد خطوط أخرى تقطع ذلـك الخط الأول»[2]. وهكذا يخلـص الفنـان نفسـه مـن المشـاغل الشـخصية بحيـث يكـون «وفقًا لـلإدراك الفنى سـواء لدينا أن نرى منظر الغروب من سـجن أم من قصر»[3]. «إنها اللذة

(١) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ٢٩٠.

(٢) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثالث ـ ص ١٤٥.

(٣) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ٢٦٥.

التـى تنجـم عـن الإدراك الـلاإرادى تلـك التـى تضفـى جـلالًا سـاحرًا علـى الماضـى وعلـى البعيـد، وتعرضهمـا لنـا فـى غايـة فـى الجمـال»[1]، وحتـى الأشـياء المعاديـة عندمـا نتأملهـا دونمـا انفعـال أو إثـارة مـن الإرادة وبـدون مبـالاة لمـا قـد ينجـم عنهـا مـن خطـر مباشـر تبـدو عظيمـة. وبالمثـل قـد تكـون للمأسـاة قيمـة جماليـة إذ هـى تخلصنـا مـن الصـراع مـع الإرادة الفرديـة، وتعيننـا علـى أن نـرى متاعبنـا علـى نطـاق أوسـع. والفـن يخفـف شـرور الحيـاة إذ يرينـا الصـور الخالـدة والعامة خلـف العابرة والفرديـة. ولقد كان سـبينوزا علـى صـواب حيـن قـال «يسـاهم المـرء فـى الخلـود بقـدر مـا يـرى العقـل الأشـياء فـى مظهرهـا الخالـد»[2].

وفـى الموسـيقى ـ قبـل كل شـىء ـ تتجلـى قـدرة الفنـون هـذه فـى السـمو بنـا فـوق صراع الإرادة[3] إذ ليسـت الموسـيقى ـ بحـال مـن الأحـوال ـ كالفنـون الأخـرى نسـخة مـن المثـل أو روح الأشـياء، بـل هـى «نسـخة مـن الإرادة ذاتهـا».

فهـى تبيـن لنـا الإرادة المتحركـة والمتصارعـة والمتنقلـة دومًـا، والتـى مـا تعـود إلـى نفسـها لتبـدأ صراعهـا مـن جديـد. «وهـذا هـو السـبب فـى أن تأثيـر الموسـيقى أقـوى وأكثـر نفـاذًا مـن تأثيـر الفنـون الأخـرى، لأن

(١) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ٢٥٦.

(٢) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ٢٣٠.

ويقول جيته فى الأنساب المختارة إنه «ليس ثمة خلاص من عالم النضال «أفضل مما بالفن».

(٣) كان شوبنهاور أول من اعترف وعين بوضوح فلسفى وضع الفلسفة بين الفنون الجميلة الأخرى، هذا ما قاله فاجنر Wagner فى صفحة ٢٣ من كتابه عن بتهوفن الذى نشره فى سنة ١٨٧٢ فى بوسطون.



هـذه الفنـون تتكلـم عـن الظـلال فحسـب، بينمـا تتكلـم الموسـيقى عـن الأشـياء نفسـها»[١].

وهـى تختلـف أيضًـا عـن الفنـون الأخـرى فـى إنهـا تؤثـر فـى مشـاعرنا مباشـرة[٢] لا عـن طريـق الأفـكار، وهـى تتحـدث إلـى شـىء أكثـر مرونـة مـن العقـل. ويقابـل الإيقـاع فـى الموسـيقى التناسـق (السـيميترية) فـى الفنـون التشـكيلية. ومـن هنـا كانـت الموسـيقى والهندسـة المعماريـة متضاديـن، فالهندسـة المعماريـة ـ كمـا يقـول جيتـه ـ موسـيقى متجمـدة، والتناسـق إيقـاع صامـت.

٤- الدين

وبـدا لشـوبنهاور فـى نضجـه أن هـذه النظريـة التـى قـال بهـا فـى الفـن ـ وتقـوم علـى سـحب الإرادة، مـع تأمـل الخلـود والعـام ـ تصلـح أيضًـا لتكـون نظريـة للديـن. وكان شـوبنهاور فـى شـبابه قـد تلقـى القليـل جـدًّا مـن الثقافـة الدينيـة إذ لـم تطاوعـه ميولـه العقليـة علـى احتـرام النظـم الدينيـة السـائدة فـى عصـره، بـل احتقـر رجـال اللاهـوت واعتبـر أن «الاسـتنتاج النهائـى الـذى وصـل إليـه عـن رجـال اللاهـوت، هـو إننـا نجـد هـذا الخـازوق بيـن عـدة شـعوب أخـرى»[٣]؛ ووصـف الديـن علـى أنـه ميتافيزيقـا العامـة.»[٤]. علـى أنـه مـع مـرور السـنين بـدأ يتبيـن دلالـة عميقـة

(١) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ٣٣٣.

(٢)يعارض هانسليك Hanslick فى هذا الرأى فى كتابه «الجميل فى الموسيقى» The Beautiful in Music نشر لندن سنة ١٨٩١، ويقول إن الموسيقى تؤثر فحسب فى التخيل مباشرة، ولا شك فى إنها تؤثر مباشرة فى المشاعر وحدها.

(٣) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثانى ص ٣٦٥.

(٤) الحواشى والبواقى - «الدين» - ص ٢.

فـى بعـض الطقـوس والمذاهـب الدينيـة، «فـإن الجـدال الـذى يثابـر علـى الاسـتمرار فيـه ـ فـى عصرنـا هـذا ـ علمـاء الخـوارق الطبيعيـة والمفكـرون يقـوم علـى أسـاس فشـلهم فـى معرفـة طبيعـة الرمزيـة فـى الأديـان كلهـا»[١]. فالمسـيحية ـ مثـلًا ـ فلسـفة عميقـة للتشـاؤم؛ «فمذهـب الخطيئـة الأصليـة (تأكيـد الإرادة) والخـلاص (إنـكار الإرادة) همـا الحقيقـة الكبـرى التـى يتكـون منهـا جوهـر المسـيحية»[٢]. والصيـام وسـيلة رائعـة لإضعـاف تلـك الرغبـات التـى لا تـؤدى أبـدًا إلـى السـعادة وإنمـا تـؤدى إلـى القضـاء علـى الخلايـا أو إلـى رغبـة أخـرى. «فالقوة التى اسـتطاعت المسـيحية فى أول الأمـر أن تنتصر بفضلهـا علـى اليهوديـة، ثـم علـى وثنيـة الإغريـق والرومـان، إنمـا تقـوم علـى مـا فيهـا مـن تشـاؤم فحسـب، وفـى الاعتـراف بـأن حالتنـا غايـة فـى الشـقاء والخطايـا، بينمـا كانـت كل مـن اليهوديـة والوثنيـة متفائلتيـن»[٣]؛ وكانتا تريان أن الديـن رشـوة تقـدم للقـوى السـماوية لتلقـى مسـاعدتها علـى النجـاح فـى الدنيـا أمـا المسـيحية فتـرى فـى الديـن رادعًـا عـن البحـث غيـر المجـدى فى السـعادة الدنيويـة. وفـى وسـط السـلطان والمتـاع الدنيـوى أقامت المسـيحية مثاليـة القديـس الهائـم بالمسـيح، الـذى يرفـض القتـال، ولكنـه ينتصـر تمامًـا علـى الإرادة الفرديـة[٤].

أمـا البوذيـة فهـى أكثـر عمقًـا مـن المسـيحية لأنهـا تجعـل فـى تحطيـم الإرادة تمـام الديـن، وتبشـر بالنيرفانـا علـى أنهـا هـدف الكمـال الشـخصى. وكان الهنـدوس أكثـر عمقًــا مــن المفكريــن الأوروبييــن لأن تفسـيرهم

(١) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثانى ص ٣٦٩.

(٢) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ٥٢٤.

(٣) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثانى ص ٣٧٢.

(٤) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ٤٩٣.

للعالـم تفسـير حدسـى جوانـى لا عقلـى برانـى؛ فالعقـل يقسـم كل شـىء، أمـا الحـدس والبصيـرة فتوحـد كل شـىء. كذلـك رأى الهنـدوس أن الـ«أنـا» وهـم وضـلال، وأن الفـرد ليـس إلا مجـرد ظاهـرى، وإن الحقيقـة الوحيـدة هـى السـرمد الأوحـد ـ «ذاك هـو أنـت». «ذلـك الـذى يسـتطيع أن تقـول هـذه العبـارة لنفسـه، بالنسـبة إلـى كل كائـن يتصـل بـه»، ذلـك الـذى يكـون لـه بصـر حـاد وبصيـرة صافيـة، يرانـا جميعًـا أعضـاء فـى نظـام واحـد، وإننـا جميعًـا تيـارات صغيـرة فـى محيـط الإرادة ـ وفـى «ثقـة مـن كل فضيلـة ونعمـة، ويكـون فـى الطريـق المسـتقيم نحـو الخـلاص»[١]. ويـرى شـوبنهاور أن المسـيحية لـن تحـل محـل البوذيـة فـى الشـرق أبـدًا «فـإن ذلـك أشـبه بإطـلاق رصاصـة علـى صخـرة»[٢]. بـل يعتقـد أن الفلسـفة الهنديـة تنسـاب إلـى أوروبـا. وسـتغير معرفتنـا وفكرنـا تغييـرًا جذريًـا. «وسـينفذ تأثيـر الأدب السنسـكريتى علـى نحـو لا يقـل عمقًـا عـن أثـر الأدب اليونانـى عندمـا بعـث فـى القـرن الخامـس عشـر»[٣].

وعلـى ذلـك فالنيرفانـا هـى الحكمـة النهائيـة: وهـى تسـعى إلـى تخفيض ذات المـرء إلـى أقـل حيـز مـن الرغبـة والإرادة. وإرادة العالـم أقـوى مـن إرادتنـا، فلنستسـلم علـى الفـور. «وكلمـا قـل انفعـال الإرادة، قـل عناؤنـا»[٤]. ودائمًـا أظهـرت الروائـع الكبـرى مـن الرسـم الملامـح التـى «نـرى فيهـا تعبيـر المعرفـة الكاملـة التـى لا توجـه نحـو أشـياء معينـة،

(١) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ٤٨٣.

(٢) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ٤٦٠

(٣) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ المقدمة. ربما كان فى ما نراه من انتشار الفلسفة الإلهية باتخاذ الباطنية طريقًا إلى الفلسفة وما نراه من عقائد مشابهة ربما كان فى ذلك تحقيق لنبوءة شوبنهاور هذه.

(٤) حكم وأمثال ـ ص ١٩.



بـل... أصبحـت أكثـر هـدوءًا مـن الإرادة»[1]. «وذلـك الهـدوء الـذى يسـمو علـى العقـل، وذلـك الهـدوء الكامـل الـذى تتصـف بـه الـروح، وتلـك الراحـة العميقة،وذلـك الصفـاء المقـدس والثقـة الدائمـة... التـى عبـر عنهـا رافاييـل Raphael وكوريجيـو Correggio بـن كامـل متيـن تبقى فيـه المعرفة وحدها أمـا الإرادة فتفنـى»[2].

(١) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ٣٠٠.

(٢) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الأول ـ ص ٥٣١.

حــكمة الموت

ومــع ذلــك، فثمــة شــىء آخــر مطلــوب طلبًــا أشــد. فالفــرد يحقــق ـ بالنيرفانــا ـ الســلام عــن طريــق انعــدام الإرادة ويجــد بذلــك الخــلاص؛ ولكــن مــاذا بعــد الفــرد؟ تضحــك الحيــاة مــن مــوت الفــرد، إذ أنهــا تبقى بعــد رحيله، وتنبعــث فــى أخلافــه، أو فــى أخــلاف الآخريــن، وحتــى بعــد أن يخــف غديــر حياتــه الصغيــر، تظهــر آلاف الغــدران الأخــرى التــى تــزداد اتســاعًا وعمقًــا مــع كل جيــل. فكيــف يمكــن إنقــاذ الإنســان؟ هــل هنــاك نيرفانــا للجنــس كمــا أن هنــاك نيرفانــا للفــرد؟

واضــح إنــه يجــب أن يكــون الانتصــار الجوهــرى والنهائــى الوحيــد علــى الإرادة فى وقف مصدر الحياة ـ إرادة التناســل. «وإن إشــباع الدافع التناســلى مفهــوم تمامًــا لأنــه أقــوى تأكيــد للرغبــة فــى الحيــاة»[1] فأيــة جريمــة اقترفهــا هــؤلاء الأطفــال حتــى يجــازوا عنهــا بــأن يولــدوا؟

«وإذا تأملنــا اضطــراب الحيــاة لرأينــا النــاس كلهــم مشــغولين بحاجتهــم وشــقائهم، ويســتنفدون كل قواهــم لإشــباع حاجــات الدنيــا التــى لا حــد لهــا وفــى أبعــاد أحزانهــا المتعــددة. ومــع ذلــك، لا يجــرؤ النــاس علــى أن يأملــوا فــى شــىء آخــر أكثــر مــن المحافظــة علــى وجودهــم المؤلــم لفتــرة

(١) عن والاس Wallace - ص ٢٩.

قصيـرة مـن الزمـان. وفـى أثنـاء ذلـك، وفـى وسـط هـذه الثـورة، نـرى لمحـة مـن عاشـقين يلتقيـان فـى شـوق، ولكـن فـى خفـاء، وفـى خـوف، وفـى خلسـة..فلماذا؟ لأن هذيـن العاشـقين خائنـان يريـدان اسـتمرار الحاجـة والعبوديـة اللتيـن لـولا ذلـك لـكان مصيرهمـا الانتهـاء.. وهـذا هـو السـبب العميـق لمـا يـلازم عمليـة التناسـل مـن الخـزى»[1].

والمـرأة هنـا هـى المجرمـة، لأنهـا عندمـا تصـل المعرفـة إلـى الإقـلال مـن الإرادة فهـى تغـرى الرجـل بمفاتنهـا التـى لا تفكـر، فتوقـع بـه مـرة أخـرى ليتناسـل. وليـس لـدى الشـباب الـذكاء الكافـى ليـرى مـدى قصـر هذه المفاتـن؛ وعندمـا يدركـه الـذكاء، يكـون الأوان قـد فـات.

«ويبـدو أن الطبيعـة تـرى مـع الفتيـات مـا يوصـف فـى فـن الدرامـا بأنـه التأثيـر الملفـت للنظـر، فهـى تضفـى عليهـن لبضع سـنوات ثروة مـن الجمال تكـون سـخية فـى إضفـاء الفتنـة عليهـن ـ علـى حسـاب البقيـة الباقيـة مـن حياتهـن ـ حتـى يمكـن أن يأسـرن خيـال رجـل مـا إلـى درجـة يسـرع معهـا بالقيـام بالعنايـة بهـن عنايـة شـريفة.. طالمـا عشـن ـ وهـى خطـوة ليـس لهـا مـا يبررهـا لـو كان العقـل وحـده هـو الـذى يوجـه أفـكار الرجـل... وتمضـى الطبيعـة هنـا ـ كمـا تمضـى فـى مكان آخـر ـ بنفـس التدبير الاقتصـادى، فكما أن أنثـى النمـل بعـد الإخصـاب تفقـد جناحيها اللذيـن يصبحان وقتئـذ زائدين بـل خطـرًا علـى عمليـة التربيـة، كذلـك نجـد أنهـا بعـد أن تلـد المـرأة طفـلًا أو طفليـن غالبًـا مـا تفقـد فتنتهـا وجمالهـا، وربمـا كانـت الأسـباب الداعيـة لذلـك هـى نفـس الأسـباب (فـى حالـة أنثـى النمـل)»[2].

---

(١) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثالث ـ ص ٣٧٤، المجلد الأول ـ ص ٤٢٣.

(٢) رسالة «عن المرأة» ـ ص ٧٣.

ويجب أن يتأمل الشباب فى إنه «إذا كان الشىء الذى يلهمهم اليوم بكتابة قصائد الغزل والشعر العاطفى قد ولد قبل ثمانية عشر عامًا، لما استرعى انتباههم قط، ولما حانت منهم لمحة إليه»[1]. وعلاوة على كل ذلك، فالرجل أكثر جمالًا من النساء من ناحية الجسد.

«إنه ذلك الرجل وحده الذى تشوب عقله سحب الدافع الجنسى هو الذى يضفى اسم الجنس اللطيف على ذلك الجنس الضئيل الحجم، الضيق الكتفين، العريض الفخذين، القصير الساقين، لأن كل جمال الجنس مرتبط بهذا الدافع. وبدلًا من وصفهن بالجمال» هناك ما يبرر وصف النساء بأنهن الجنس غير الجميل، إذ ليس لديهن أى استعداد حقيقى للتأثر بالموسيقى ولا بالشعر ولا بالفنون الجميلة. إنها مجرد السخرية وحدها تبدو منهن عندما يتظاهرن بهذا التأثر لمساعدة سعيهن إلى اللذة... وليس لديهن قدرة على الاهتمام بشىء من هذا اهتمامًا موضوعيًا مجردًا... ولم تتمكن امرأة واحدة بين جميع أفراد هذا الجنس ممن تميزن بفكر راق أن تنتج عملًا واحدًا فى حقل الفنون الجميلة مما يمكن أن يعتبر أصيلًا وحقيقيًا، أو أن تقدم للعالم أى عمل ذا قيمة دائمة فى أى مجال»[2].

ولقد جاء هذا الاحترام للمرأة نتيجة من نتائج الديانة المسيحية والعاطفية الألمانية، وأصبحت بدورها سببًا للحركة الرومانسية التى تمجد الشعور والغريزة والإرادة قبل العقل[3]. أما الآسيويون، فقد فاقوهم فى المعرفة، ويعترفون صراحة بنقص المرأة «عندما

(١) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثالث ـ ص ٣٣٩.

(٢) رسالة «عن المرأة» ـ ص ٧٩.

(٣) رسالة «عن المرأة» ـ ص ٨٤.

تعطى القوانين المرأة حق المساواة بالرجل يجب أن تضفى عليها أيضًا عقل الرجل»[1]. وتبدى شعوب آسيا مرة أخرى حكمة أكبر مما لدى الغرب فى نظم الزواج، فهى تقبل تعدد الزوجات على أنه طبيعى وشرعى وهو أمر يمارس على نطاق واسع فى العالم الغربى، ولكنه يغطى بورق التين بعبارة «وأين أولئك الذين يتزوجون من زوجة واحدة؟»[2] وإنه لمن الغباء إعطاء المرأة حقوق الملكية، فإن كل النساء ـ فيما عدا القلة النادرة ـ يملن إلى الإسراف لأنهن يعشن فى الحاضر فحسب؛ وأحب رياضة لهن خارج بيوتهن هى التسوق «فالنساء يرين أن مهمة الرجال هى كسب المال، وأن مهمتهن هى صرف المال»[3]. هذا هو مفهومهن لتقسيم العمل. «ولذا فإنى مع الرأى القائل بألا يسمح للنساء بتاتًا بتدبير شئونهن الخاصة، بل يجب أن يكن دائمًا تحت إشراف الرجال ـ سواء كان الرجل الأب أو الزوج أو الابن أو الدولة ـ كما هى الحال فى بلاد الهند. وتبعًا لذلك، فيجب ألا تعطى لهن سلطة كاملة للتخلص من أية ممتلكات لم يحصلن عليها بأنفسهن»[4]. وربما كان الترف والتبذير من النساء فى بلاط لويس الثالث عشر هما اللذين أديا إلى الفساد العام فى الحكومة مما انتهى بالأمر إلى الثورة الفرنسية[5].

وكلما قلت صلتنا بالنساء كان هذا خيرًا وأفضل. فهن لسن حتى

(١) العالم إرادة وتخيل ـ المجلد الثالث ـ ٢٠٩ ـ ٢١٤.

(٢) رسالته «عن المرأة» ـ ص ٨٦.

(٣) رسالته «عن المرأة» ـ ص ٧٥.

(٤) فى ص ٨٠ من والاس. هـ١ صدى لعدم رضى شوبنهاور عن مسلك أمه الشاذ.

(٥) رسالته «عن المرأة» ـ ص ٨٩.

«بالشـر الـذى لابـد منـه»[1]. ذلـك أن الحيـاة تكـون أكثـر أمنًـا وسـلامة وراحة بدونهـن. ولـو عـرف الرجـال الفـخ الكامـن فـى جمال النسـاء لانتهـت المهزلة التـى لا معنـى لهـا: مهزلـة التناسـل. ويـؤدى نمـو الـذكاء إلـى ضعـف إرادة التناسـل أو يوقفهـا ممـا يصـل فـى نهايـة الأمـر إلـى القضـاء علـى النـوع. وليـس هنـاك شـىء يمكـن أن يشـكل حـلًا أجمـل للمأسـاة المجنونـة: مأسـاة الإرادة القلقـة.

لمـاذا ترفـع ثانيًـا السـتار التـى أسـدلت لتوهـا علـى الهزيمـة والمـوت عـن حيـاة جديـدة، وصـراع جديـد، وهزيمـة جديـدة؟

وإلـى متـى نخـدع بهـذا العمـل الـذى لا جـدوى منـه، وهـذا الآلـم الـذى لا ينتهـى، والـذى لا يـؤدى إلا إلـى النهايـة المؤلمـة؟

متـى تكـون لدينـا الشـجاعة لنتحـدى الإرادة ـ ولنقـول لهـا إن جمـال الحيـاة أكذوبـة وأن أعظـم شـىء فيهـا هـو المـوت؟

---

(١) كلمات كارليل.

المجلد الثالث

نحن وشوبنهاور

إنسانية شوبنهاور

قبـل أن أتحـدث عـن شـوبنهاور الفيلسـوف أو أتـرك لـه الحديـث عـن نفسـه، أريـد أن أقـف لحظـات عنـد وصيتـه التـى تركهـا. فهـذه الوصية تشـير إلـى ثمانيـة مـن الصفـات الإنسـانية التـى كانـت لديـه:

أولًا: حبه للخير الذى يتمثل فى اختيار مؤسسة خيرية لترثه.

ثانيًـا: حبـه للنظـام والجنديـة الـذى يتمثـل فـى تحديـد هـذه المؤسسـة بأنهـا تلـك التـى أسسـت لرعايـة ضحايـا القتـال فـى سـبيل المحافظـة وإعادة النظـام إلـى ألمانيا.

ثالثًـا: صلتـه الرحـم ممـا يتمثـل فـى منـح جـزء مـن تركتـه لأقاربـه الذين نـص علـى أسـمائهم فـى وصيتـه. هـذا فضـلًا عـن محاولة التقـرب إلى أسـرته فـى سـنة ١٨٣١ ـ رغـم أنهـا محاولـة انتهـت إلى الفشـل.

رابعًـا: رده الجميـل ممـا يتمثـل فـى المنحة التـى قررها لخادمتـه الخاصة إذا كانـت لا تـزال تعمـل لديه عنـد وفاته.

خامسًــا: اهتمامــه بالمخلفــات العلميــة ممــا يتمثــل فــى تركــه بعــض المصــورات للبلديــة، وتــرك مخطوطاتــه ومخلفاتــه العلميــة للدكتــور فــراو نشــتيت.



سادسًا: عطفه على الحيوان الذى يتمثل فى اهتمامه بكلبته «أتما» ومصيرها بعد وفاته.

سابعًا: خوفه من الناس ويتمثل فى الفقرة اللاتينية التى سجل فيها المعلومات المهمة عن مخلفاته، فضلًا عن تسجيله المعلومات عن المزرعة ومكانها على سجل الدخل والمنصرف.

ثامنًا: دقته فى الحسابات مما يتمثل فى مسكه لدفتر حساباته اليومية، فضلًا عن الطريقة التى قسم بها تركته عامة، وتلك التى اتبعها لصالح خادمته بصفة خاصة.

كل هذه الصفات التى تميز بها شوبنهاور جعلتنى أصر على إثبات الوصية فى ترجمة نصية لها. راجيًا أن يجد فيها القراء ما يثبت إنسانية هذا الفيلسوف وما يشير إلى اتجاهاته فى الحياة.

شوبنهاور يتحدث عن نفسه

أستطيع أن أقول إنه لا يكاد يوجد منهج فلسفى بمثل هذه البساطة أو مؤلف من عدد يسير جدًّا من العناصر على النحو القائم فى فلسفتى ومن ثم، فمن السهل تأملها والنظر إليها ككل. ويقوم هذا ـ على الأقل ـ على أساس الوحدة التامة وارتباط أفكارها الأساسية، وهذا فى الحقيقة دلالة طيبة على صدقها وهو أمر يتناسب كل التناسب مع البساطة: فالبساطة طابع الحقيقة.

ويستطيع المرء أن يتصور منهجى كمذهب جوانى لأن نظرياته لا تزال مذهبية، ولكنها لا تقدم للعالم بصورة تجريبية بل تشرح فحسب ماهية هذا العالم، وتحلله إلى مقوماته النهائية. والمذهبية القديمة وخاصة تلك التى قوض «كانت» أركانها ـ مذهبية متعالية تجريدية، تتعالى على العالم لتصوغه فى صورة مختلفة، فهو يجعلها نتيجة لمقدمة أقام عليها حكمه. وفلسفتى ـ على العكس من ذلك ـ تبدأ بنظرية تقول إنه ليس فى العالم سوى مقدمات ونتائج، إلا وهى نظرية العقل فى صوره الأربعة؛ إذ إنه الشكل العام للفكر. ولكن العالم الموضوعى يقف فى هذا وحده على إنه الدعامة الحقيقية للعالم.



وفـى المذاهـب الفلسـفية الأخـرى تسـتخرج النتيجـة بطريقة تسـتخلص فيهـا النظريـة مـن النظريـة. ولـذا فلابـد مـن أن تكـون المقومـات للمذهـب قائمـة بالضـرورة فـى النظريـة الأولـى، بينمـا تكـون المقومـات الأخـرى التـى تسـتنتج منهـا لا تتميـز بأيـة صعوبـة إلا فـى كونهـا رتيبـة هزيلـة فارغـة وتبعـث علـى الضيـق لأنهـا فـى الواقـع ليسـت سـوى تطويـر وتكـرار لمـا سـبق أن أشـير إليـه فعـلًا فـى النظريـة الأوليـة. وتبـدو هـذه النتيجـة المحزنـة للاسـتنتاج التوضيحـى جليـة فـى فلسـفة فولـف Chr. Wolf بـل إننـا نجـد أن سـبينوزا ـ الـذى كان يلتـزم هـذا المنهـج بشـدة ـ لم يسـتطع أن يتلافـى مضـاره، وأن كان قـد عـرف بموهبتـه كيـف يعـوض ذلـك. ونظريتـى علـى العكـس مـن ذلـك ـ لا تقـوم فـى الغالـب علـى الحلقـات النهائيـة، بـل إلـى ذات العالـم المنظـور مباشـرة، وليسـت النتائـج القائمـة فـى مذهبـى تشـبه فحسـب كثيـرًا مـن مثيلاتهـا فـى أيـة مذهـب متشـدد قائـم علـى الطريقـة المنطقيـة وحدهـا، فعـلاوة علـى ذلـك، فـإن تطابـق النظريـات البديهـى الـذى لابـد أن يصـل إلـى ذلـك حتمًـا ينقصـه الإدراك الحدسـى ـ وأعنـى بذلـك الحسـى الـذى يقـوم عليـه ـ لجميـع جوانـب الموضـوع مـن البحـث فـى العالـم الحقيقـى بجميـع ظواهرهـا كما يراهـا الوجـدان. وهكذا اسـتطعت التخلـص مـن كل قلـق علـى تطابـق نظرياتـى. وحتـى إذا حـدث هـذا القلـق، كمـا حـدث بالفعـل لفتـرة مـا بـدا لـى أنـه يصعـب التغلـب عليـه لأن التطابـق جـاء لوحـده فيمـا بعـد بصـورة صحيحـة ـ إذ ليـس ثمـة شـىء آخـر سـوى تطابـق الواقـع مـع نفسـه، فكيـف اتفقـت النظريـات مـع بعضهـا اتفاقًـا تامًـا؟ لقـد اتفقـت لأنـه ليـس بينهـا شـىء مخالـف، شـأنها فـى ذلـك شـأن الحقيقـة التـى لا يمكـن أن تضيـع.

ويشبه هذا رؤيتنا لبناء لأول مرة، ومن جانب واحد فحسب.. فنحن حينئذ لا نستطيع أن نفهم الترابط القائم بين أجزائه، ولكنا واثقون من إنه لا ينقصه شىء، وإنه سيثبت ذلك إذا ما درنا حوله دورة كاملة. وإذا كان هذا النوع من التطابق مؤكد ويقينى لأصالته ولأنه خاضع دائمًا للتجارب، فعلى نقيض ذلك يسهل الكشف عن بطلان تلك الاستنتاجات التى يأتينا بها القياس حالما تظهر أن أية حلقة فى السلسلة الطويلة غير أصيلة أو غير متينة البنيان أو يعتريها النقصان وطبقًا لذلك، كان لفلسفتى مجال فسيح يقف عليها كل شىء مباشرة وبالتالى فى أمان، بينما تشبه المذاهب الأخرى الأبراج العالية؛ فإذا سقط أحد أعمدتها انهارت كلها.

وكل ما قيل هنا، يمكن تلخيصه فى عبارة واحدة، وهى أن فلسفتى لا تقوم على أساس تحليلى ولا تركيبى ولا وصفى.

وعلى غرار الطابع الغريب لفلسفتى، يمكننى أن أقرر أنى أحاول دائمًا أن أصل إلى أسس الأشياء دون الكف عن متابعتها حتى النهاية وهذا ناجم عن الميل الطبيعى لدى الذى يجعلنى لا أقنع بالمعرفة العامة أو المجردة .. أو أرضى بالملاحظة وحدها.. ويظل هذا الميل الطبعى يدفعنى حتى أجد الأساس الأخير لكل الآراء، والنظريات عاريًا أمامى... وقد أبقى بعض هذه النظريات والآراء كظواهر أصيلة، وقد أحللها إلى عناصرها الأصلية. ولكنى على كل حال، أتتبع طابع الموضوع إلى أقصاه.

ولسوف يعرف الناس فيما بعد ـ وطبعى أن ذلك لن يكون طوال حياتى ـ إننى إذا كنت قد عالجت بنفسى موضوعًا عالجه من قبل



فيلسوف سابق، فذلك لأن معالجة ذلك الفيلسوف للموضوع إنما تبدو سطحية إذا ما قورنت بمعالجتى للموضوع ذاته. ومن ثم فقد استفادت الإنسانية منى الكثير، مما لن تنساه، بل إن أعمالى ذاتها لن تفنى قط.

النقـــد

إذا مـا أردنـا أن نتفهـم فلسـفة شـوبنهاور، فعلينـا أن نقـوم بعمليـة تحليـل للرجـل ولعصـره. ولنرجـع إلـى الـوراء ـ إلـى أيـام الإسـكندر وقيصـر الـروم، فعلـى أيامهمـا بـدت ظاهـرة قريبـة: هـى تلـك الظاهـرة التـى أتـت ـ إلـى اليونـان بعـد فتوحـات الإسـكندر وإلـى رومـا بعـد القيصـر ـ بفيـض مـن العقائـد والميـول الغريبـة علـى البـلاد وأهمهـا أن الإرادة الخارجيـة فـى الطبيعـة أقـوى كثيـرًا منهـا فى الإنسـان، بحيـث تنتهى إلـى القول بالاستسـلام واليـأس. فعندمـا أضمحـل الإغريـق، شـحب بذلـك مذهـب الرواقيـة وتـوردت الأبيقوريـة علـى خـدود اليونانييـن. كذلـك أسـفرت فوضـى حـروب نابليـون عـن حالـة رهيبـة مـن القلـق علـى أوروبا فـى سـنة ١٨١٥ وأدت إلى الشـعور بالضجـر والملـل والشـكوى فـى النفـوس بين كل أهالـى أوروبا.. وهـذا الوضع جعـل مـن شـوبنهاور الناطـق الفلسـفى بلسـانها.

هـذا عـن طبيعـة العصـر، أمـا تحليلنـا الشـخصى فلنبـدأ مـن اعتـراف شـوبنهاور بـأن سـعادة الإنسـان تعتمـد علـى مـا يكـون عليـه الإنسـان أكثـر ممـا توقـف علـى الظـروف الخارجيـة. والتشـاؤم هـو وثيقـة اتهـام المتشـائم. ويـرى ويـل ديورانـت أن طبيعـة فلسـفة شـوبنهاور يبرزهـا

العلـة المرضيـة والعقـل المتوتـر وحيـاة الفـراغ الكامـل والقلـق الكئيـب الـذى تميـزت بـه حيـاة شـوبنهاور، فالتشـاؤم يتطلـب أن يكـون لـدى المـرء وقـت فـراغ، إذ أن الحيـاة الحافلـة بالحركـة تجعـل صاحبهـا دائمًـا ذا روح طيبـة ـ فـى الجسـم وفـى العقـل. وشـوبنهاور يبـدى إعجابـه بالسـمو الـذى يتولـد عـن الأهـداف المتواضعـة والحيـاة الرتيبـة ولكنـه لا يـكاد يسـتطيع الـكلام عـن هذيـن الأمريـن مـن واقـع التجربـة الشـخصية إذ كان لديـه حقًـا مـن المـال مـا يكفـل لـه الفـراغ المسـتمر، كذلـك وجـد أن الفـراغ المسـتمر يحتـاج إلـى قـدرة أكبـر لاحتماله تفـوق احتمال العمـل المسـتمر. ولربما كان مرجـع ميـل الفلاسـفة إلـى الحـزن هـو عـدم طبيعـة الأعمـال التـى تسـتلزم الجلـوس والاسـترخاء، ومـن الأرجـح أن يكـون هجومهـم علـى الحيـاة مجـرد عـرض ناجـم عـن فقدانهـم للنشـاط والحركـة.

نشـأ شـوبنهاور ـ كمـا مـر بنـا ـ وسـط التجـارة والمـال، ودفعـه أبـوه دفعًا إلـى الانخـراط فـى السـلك التجـارى، إلا أنـه مـا كاد يجـد فـى نفسـه الجـرأة علـى التحـرر مـن وعـده لأبيـه حتـى انصـرف عـن الدراسـات التجاريـة وهجر الأعمـال التجاريـة كلية.

ولكننـا إذا تتبعنـا حياتـه لتبيـن لنـا فـى وضـوح ذلـك الأثـر الـذى تركتـه هـذه الفتـرة فيـه وفـى شـخصيته. فقـد خلفـت هـذه السـنين الأولـى فـى نفسـه نوعًـا فريـدًا مـن الصراحـة فـى السـلوك، واتجهـت بعقلـه اتجاهًـا واقعيًـا، وهيـأت لـه معرفـة كاملـة بالعالـم والنـاس، وجعلت منه رجـلًا يناقض ذلـك الطـراز «الأكاديمـى» مـن الفلاسـفة، فـراح يمعـن فـى احتقـار شـأن هـذا الصنـف مـن الفلاسـفة، وينظـر إليهـم علـى أنهـم يتاجـرون بالفلسـفة، ويبيعـون نفسـهم للجامعـة ومـن ورائهـا الدولـة. وواضـح أن هـذه النظـرة ترجـع إلـى حـد مـا ـ لكراهيتـه للتجـارة مـن ناحيـة، ومـن ناحيـة أخـرى إلـى

ميلـه للتأمـل الفلسـفى ورغبتـه فـى تجريـد الفلسـفة والنظريات التـى يخرج بهـا الفيلسـوف عـن كل غـرض. وهـو نفسـه يضـرب لنـا المثـل علـى ذلـك عندمـا يضحـى بـكل مكسـب مـادى كان مـن الممكـن أن يعـود عليـه مـن نشـر كتبـه، ويكتفـى ببضـع نسـخ منهـا بعـد الطبـع.

وقـد يقـول قائـل إن كتابـة الأول بيـع بالأقـة ولـم يعـد علـى ناشـره إلا بالخسـران، ولكـن يجـب ألا ينظـر إلـى الأمـر مـن هـذه الزاويـة، بـل ننظـر إليهـا مـن خـلال شـوبنهاور ذاتـه. فمـن الواضـح أنـه كان يعتقـد كل الاعتقـاد أن كتابـه قطعـة نـادرة وإنـه فتـح جديـد فـى عالـم الفكـر، بـل لقـد كتـب ذلـك كلـه فـى رسـالته التـى بعـث بهـا إلـى الناشـر ومـن ثـم فقـد كان مـن الطبيعـى أن يطلـب لنفسـه حقوقًـا كتلـك التـى كان يكتسـبها المؤلفـون الآخـرون علـى أيامـه. أمـا إنـه يتنـازل عـن هـذه الحقـوق ويكتفـى بالنسـخ فهـذا مـا يثبـت إرادتـه فـى عـدم جعـل الناحيـة الماديـة تتحكـم فـى نشـر مذهبـه الفكـرى إلا مـا كان منهـا لصالـح هـذه الفلسـفة ـ أى بالتنـازل عـن حقوقـه وتخفيـف العـبء المـادى علـى الناشـر لترغيبـه فـى نشـر آرائـه.

وأود أن أنبـه هنـا إلـى خطـأ القـول بـأن شـوبنهاور إنمـا حمـل علـى الأسـاتذة الجامعييـن الذيـن يعيشـون علـى الفلسـفة، وأن حملتـه هـذه إنمـا جـاءت بعـد الصدمـة التـى لقيهـا فـى برليـن عندمـا انصـرف الطلبـة عنـه وراحـوا يقبلـون علـى محاضـرات هيجـل وحـده.. فهـذا أمـر بعيـد عـن الواقـع إلـى حـد كبيـر؛ إذ أنـه مـن الثابـت أنـه هاجـم أسـاتذته وقـت أن كان تلميـذًا فـى المدرسـة الثانويـة، وأنـه قـد ناقـش نيشـته مناقشـة حامية وقـت أن كان طالبًـا فـى الجامعـة.

فما الدافع الحقيقى لهذا الهجوم؟

لقد كان آرتور شوبنهاور مثال الرجل الجزرى المقيم على أصغر جزيرة، فهو آخذ حذره دومًا من النار ومن البكتيريا. وراح يمعن فى العزلة ويبالغ فى الابتعاد عن الناس إذ كان يعتقد أن«بداية الحكمة ـ الخوف من الناس».

وقد قال البعض أن ذلك من طبيعة شوبنهاور، إلا أن هذا الرأى خاطئ، إذ كانت روحه تفيض بالفكاهة، وكانت تبشر بأن يكون فكهًا مرحًا، حتى إنه قال حكايات مسلية للغاية.. ففى حديثه عن مدينة Bath مدينة الحمامات الإنجليزية يقول: «يعرض السادة على السيدات أسلوبهم الراقى فى الحياة فلا يظهرون أمامهن قط فى الصباح مرتدين ثياب الصباح، كما لو كانوا يريدون إلا يظهروا أمامهن أغبياء البتة. أما العجائز والأطفال فهم قانعون بالصفوف الثانية من الأرائك فى الملاهى، فزمانهم أما فات وأما لما يجىء. وتبدأ المراقص فى السابعة مساء وتنتهى مع الدقة الحادية عشر ـ ولو كان ذلك فى أثناء الرقص..».

هذه صورة من الصبى الساخر الفكه كما عاش فى هذا العالم الحافل بالغناء والرقص؛ ولكن الأيام بما حملته له مع مرورها هى التى جعلته يتحول إلى الجانب القائم من الحياة. فقد شاهد فى طولون مثلًا سجنها الذى حشر فيه ستة آلاف سجين، وأحس بصدمة هائلة عند ذاك جعلت الحزن على الحياة والأسى لما فيها يسيطران عليه وإن كانت جذور الملل من الحياة فقد بدأت تتأصل فى نفسه منذ كان فى الخامسة عشرة من عمره، إذ كتب عبارات تنم عن ذلك ومن أمثلتها قوله «لم أجد ما يحقق آمالى» وتتضح هذه الحقيقة أيضًا فى وصفه مسرح بوردو Bordeau بأنه «حظيرة للخنازير»، ووصفه



لشـلالات دوديتـس Duodez فـى النمسـا بأنهـا «صغيـرة كلعـب الأطفـال»، ووصفـه للجبـال القريبـة مـن فيينـا بأنهـا «كتـل مـن الصخـور».

كذلـك بـدأ ضيقـه مـن أسـاتذته واضحًـا؛ إذ وصـف محاضراتهـم وهـو تلميـذ فـى المدرسـة ـ بأنهـا ثرثـرة. وبعـد ذلـك بقليـل سـخر مـن فيشـته وقـال إنـه «مهـرج» ووصـف فلسـفة هيجـل بأنهـا «مجـون فلسـفى».

ولكنــه بعــد أن رأى النــاس والمــدن، قــرأ أفلاطــون وكانــت، وأعجــب بفلسـفتهما وخاصـة تقسـيمهما الوجـود إلـى محسـوس ومعقـول، أو علـم الظواهـر وعالـم الشـىء فـى ذاتـه، حيـث اعتبـر ذلـك ازدواجًـا للتأمـل والشــهوة والفكـر والإرادة.

وأعجـب شـوبنهاور كذلـك بمـا جـاء فـى الكتـب البوذيـة عـن الشـر الطبيعــى والخلقــى.

واجتمعـت هـذه العناصـر بمـا ذهـب إليـه تفكيـره فـى مسـائل الحيـاة والتصرفـات المحيطـة بـه، ومـن مجموعهـا كان مذهبـه.

شوبنهاور وكانت

نظر إلى كانت وما خلفه من آثار، وراح يدرسها بدقة؛ وانتهى إلى أن كانت إنما هو الحلقة الثانية من السلسلة الثلاثية التى كان أولها أفلاطون وثانيها كانت ومكملها هو شوبنهاور نفسه!

نعم، كان يعتقد أنه المكمل لكانت، ولذلك كان كانت الفيلسوف الوحيد الذى استثناه من الفلاسفة المعاصرين، ليكيل أجمل الكلمات وأرق العبارات فى وصف فلسفته. وكثيرًا ما كان شوبنهاور يتلطف فى حديثه عن كانت، بل يعده أستاذه الأول، فى الوقت الذى يكيل الهجمات إلى الفلاسفة الآخرين وفى مقدمتهم هيجل وفيشته.

ولكن ليس معنى هذا إنه لم ينتقد كانت، بل على العكس من ذلك وجدناه أفرد قسمًا كبيرًا من عمله الخالد ـ العالم إرادة وتخيل ـ لنقد الفلسفة الكانتية. ولم يخل نقده لكانت من الانتقادات اللاذعة الشديدة، ولكنها كانت على وجه العموم انتقادات لطيفة مؤدبة.

وكانت هذه الانتقادات تنسحب ـ على السواء ـ على الجانب النظرى من آراء كانت، كما كانت تنصب على الجانب العملى من نتاج فيلسوف المثالية الألمانية.

ولعلنا إذ عدنا إلى مؤلف شوبنهاور الأول عن «الأصل الرباعى

لمبـدأ العلـة الكافيـة». لتبينـا إلـى أى حـد اتفـق شـوبنهاور مـع كانـت فـى آرائـه النظريـة، بـل كان مـن الواضـح أن شـوبنهاور يعتقـد أنـه لا داعـى لتعديـل آراء كانـت عـن طبيعـة المـكان والزمـان، إذ ليـس المـكان والزمـان فـى الحقيقـة إلا تخيـلات إنسـانية أو كيفيات ذهنية، لا يكون الإدراك البشـرى للأشـياء إلا عـن طريقهـا.

وكان شـوبنهاور يعتقـد أن كانـت قـد صـاغ هـذه الفكـرة القيمـة بحيـث صـارت فـى مصـاف أعظـم أفـكار الفلسـفة البوذيـة، وأنـه اسـتطاع أن يقـدم البراهيـن والعلـل التـى لا مجـال لمناقشـتها ولذلـك قـرر ألا يدخـل تعديـلات عليهـا، بـل راح يؤكـد هـذه الأقـوال الثابتـة مـع التأكيـد علـى أنـه لا يمكن أن يسـتمر الوعـى البشـرى فـى البقـاء دون تخيـل الزمـان والمـكان. وكان كانـت يوجـب شـروطًا لظهـور الفهـم يتحتـم علـى تخيلاتنـا أن تخضـع لهـا. ولكـن شـوبنهاور لـم ينظـر نفـس النظـرة، ولـم يهتـم بهـذه الشـروط؛ بـل قـرر أنـه ليـس فـى إمـكان الفهـم أن يتخيـل شـيئًا مـن الأشـياء دون أن يكـون هـذا الشـىء مرتبطًـا بمـا يدركـه الفهـم. ومـن هنا جـاءت تأكيـدات شـوبنهاور فى نظريتـه «عـن الأصـل الرباعـى لمبـدأ العلـة الكافيـة» التـى تحـدد:

أولًا: العلاقة بين المبدأ والنتيجة.

ثانيًا: العلاقة بين العلة والمعلول.

ثالثًا: العلاقة بين الزمان والمكان.

رابعًا: العلاقة بين الداعى والفعل.

وتجديـد هـذه العلاقـات لا يمكـن لأيـة ظاهـرة أن تنطبـع فـى الفهـم ـ أى أن تكـون ظاهـرة مـن الظواهـر ـ إلا إذا تلاءمـت مـع العقـل. وهـذا مـا

احتفظ به شوبنهاور من فلسفة كانت النظرية. أما باقى نظريات كانت فلا قيمة لها ـ فى نظر شوبنهاور، بل كان يعتبرها ـ أيضًا ـ غير صحيحة البتة. فإن شوبنهاور يرفض تفرقة كانت بين الإحساس والفهم والعقل. وهو يصدر حكمًا قاسيًا على المقولات[1] ومنافذها الوهمية؛ كما أنه انتقد بشدة كانت فى «النظرية الصورية Transcendental». وراح يشير بسخرية إلى ما قال به كانت من «مقولات العقل» التى جعلها وفق ما توجبه مقتضيات كل مبحث من المباحث.

ويشتد شوبنهاور فى نقده العنيف، ويزداد حدة حتى لأننا بشوبنهاور ينفجر تمامًا عندما يتطرق إلى فلسفة كانت الأخلاقية. فينتقد التفرقة بين الناحية التشريعية والناحية الأخلاقية، ويسفه «المشاعر النبيلة» التى تنطوى عليها أخلاقيات كانت. كذلك ينتقد ما سمى بالقانون الأخلاقى وطرق تطبيق صيغته القانونية.

كذلك ينتقد جميع ما ينجم عنها من الواجبات. ثم يرى فى النهاية أن يصدر حكمه القاسى على كانت فى هذه الناحية، ولكنه يعود فيبرر الانحدار الذى انزلق إليه كانت فى نظر شوبنهاور بأن ذلك ليس إلا نتيجة حتمية لتقدم السن بكانت.

وفى الواقع أن شوبنهاور كان يرى أنه يمكن الاحتفاظ بجانب من فلسفة كانت، بينما ينبغى التجاوز عن الأشياء الكثيرة الأخرى وخاصة فى «نظرية الفضيلة» وما أشبه.

---

(١) هى القوانين العقلية الأولية (أو الفطرية) التى يدرك العقل بها العالم. وكان أرسطو هو أول من نادى بالمقولات العشر.

مذهب شوبنهاور

وضع شـوبنهاور أسـاس مذهبـه، أى نظريـة المعرفـة، وذلـك فـى رسـالته «عـن الأصـل الرباعـى لمبـدأ العلـة الكافيـة»؛ ثـم عكـف على تفصيـل مذهبه فــى عملــه الرائــع «العالــم إرادة وتخيــل» الــذى ضمنــه نظريــة المعرفــة ونظريــة العالــم. ثــم أكمــل عملــه بمجلــد ثــان ضمنــه مباحثــه فــى الفــن وفـى الأخـلاق، وأتـم بـه مذهبـه بأصولـه وفروعـه.. وأن كانـت كتاباتـه التالية تتضمـن تفصيـلات فلسـفته وآرائـه.

وامتــاز شــوبنهاور بحريــة الفكــر والتحــرر فــى القــول، إذ كان يطلــق لكلماتـه العنـان، فينقـل إلـى النـاس مـا يطـرأ علـى ذهنـه مـن أفـكار دونمـا حيـاء أو تـردد. كذلـك امتـاز بأنـه لـم يهتـم بمـا جـرت عـادة الفلاسـفة أن يهتمــوا بــه وأقصــد بذلــك إيــراد البراهيــن والأدلــة علــى مــا يذكــرون مــن آراء؛ بـل كان يبـدى أحيانًـا ـ الملاحظـات ثـم يواصـل كلامـه، وكأنـه لـم يذكـر عنهـا شـيئًا البتـة.

وعرضتــه هــذه الظاهــرة للخطــأ، وأخرجتــه عمــا يتميــز بــه الفيلســوف المنهجــى المتــزن إلــى مجــرد رســام يعتمــد علــى الخيــال فحســب. وكأنــى بــه يتصــور العالــم فــى مخيلتــه بصــورة خاصــة، ثــم يلقــى بحكمــه علــى



العالـم مـن واقـع هـذه الصـورة الخياليـة التـى رسـمها لـه.. وقـد تكـون هـذه الصـورة بعيـدة كل البعـد عـن الواقـع أو تكـون ممثلـة لـه حقًّـا!

والنيرفانـا هـى المثـل الأعلـى للرجـل فاتـر الهمـة.. رجـل يبـدأ حياتـه برغبـة فـى تملـك الكثيـر ويكـرس كل قـواه لتحقيـق رغبتـه وإرضـاء عاطفتـه ولكنـه يفقـد مـا يريـد، ومـن ثـم يقضـى حياتـه فـى ضجـر وملـل دون أن يشـعر بأدنـى عاطفـة.

ولـو أصبـح الفكـر خادمًـا لـلإرادة، لـكان مـن المحتمـل أن تكـون تلـك الثمـرة الفكريـة ـ التـى نعرفهـا علـى أنهـا فلسـفة شـوبنهاور ـ تغطيـة ودفاعًا عـن إرادة مريضـة عليلـة. ولا شـك فـى أن خبراتـه السـابقة بالنسـاء وبالرجال قـد أدت بـه إلـى أن أصبـح غايـة فـى الشـك والحساسـية بدرجـة شـاذة ـ كما حـدث لسـتاندال وفلوبيـر ونيتشـه. لقـد أصبـح شـوبنهاور متشـككًا ومعتـزلًا، حتـى أنـه كتـب أن: «الصديـق عندمـا يكـون محتاجًـا لا يكـون الصديـق الحق بـل مجـرد إنسـان يطلـب قرضًـا» ويقـول: «لا تخبـر صديقًـا بشـىء ينبغـى أن تخفيـه عـن عـدوك». وهكـذا نجـده ينصـح بحيـاة العزلـة المملة السـاكنة؛ إذ يخـاف المجتمـع بـل يمكننـا أن نقـول إنـه انعـدم لديـه كل إحسـاس بالقيـم الاجتماعيـة أو متعتهـا. ولكـن السـعادة تموت عندما لا يشـترك فيهـا الآخرون.

وتتضمـن العناصـر المؤديـة إلـى التشـاؤم.. الإعجـاب بالـذات والغـرور؛ فالعالـم لا نـراه كافيًـا لنـا، ونحـن نوجـه نحـوه أنوفنـا الفلسـفية. ولكـن ذلـك ليـس فـى الواقـع إلا تجاهـلًا لتعاليـم اسـبينوزا مـن أن اصطلاحاتنـا الخاصـة بالرقابـة الخلقيـة والاستحسـان هـى مجـرد أحـكام إنسـانية غيـر مترابطـة غالبًـا حينمـا نريـد تطبيقهـا علـى النظـام الكونـى كلـه.

ولربمـا كان اشـمئزازنا الشـديد مـن الوجـود مجـرد غطـاء لاشـمئزازنا الحقيقى مـن أنفسـنا. فإننـا غالبًـا ما نفـرط فى تصريـف شـئون حياتنا فننحـى باللائمة علـى «المجتمـع» أو «الدنيـا» ممـا ليـس لـه لسـان يدافـع بـه عن نفسـه. ولا شـك أن الرجـل الناضـج يقبـل القيـود الطبيعيـة للحيـاة، ولا يتوقـع أن الزهـر دائمًـا فـى جانبـه إذا مـا أراد أن يلعـب بـه لعبـة الحيـاة. كذلـك يجـب أن يـدرك قـول كارليـل مـن إنـه لا معنـى لأن نعيـب الشـمس لكونهـا لا تشـعل لنـا السـيجارة، ولـو أننـا علـى جانـب مـن المهـارة لربمـا أمكننـا أن نجعـل الشـمس تفعـل ذلـك، بـل لاحلنـا كل هـذا النظـام الكونـى حتـى يصبـح مكانًا ملائمًـا وكافيًـا. نعـم، يمكننـا ذلـك فعـلًا لـو أننـا أشـععنا مـن ذات نفوسـنا بعـض الأشـعة التـى تسـاعد علـى ذلـك. فليـس العالـم فـى الحقيقـة ـ معنـا ـ ولا ضدنـا، بـل هـو مـادة خـام فـى أيدينـا، يمكننـا أن نشـكلها بحيـث تصبـح جنـة تجمعنـا أو جحيمًـا تصطلـى فيـه نفـوس الشـر ـ كل ذلـك راجـع لإرادتنا وتصرفاتنا.

كذلـك يرجـع بعـض التشـاؤم فـى شـوبنهاور ومعاصريـه إلـى آمالهـم ومعتقداتهـم الرومانتيكيـة. فلقـد أصبـح الشـاب منهـم يتوقـع أن يقـدم لـه العالـم كل شـىء، وسـرعان مـا يولـد التفـاؤل.. التشـاؤم الـذى نـراه. فالتشـاؤم هـو الصبـاح الـذى يعقـب التفـاؤل. وفـى فلسـفة شـوبنهاور ومعاصريـه نحـس فـى كلماتهـم كمـا لـو إنهـم كانـوا يريـدون مـن سـنة ١٨١٨ أن تدفـع ثمـن ١٧٨٩؛ فقـد أدى تحريـر الرومانتيكيـة للشـعور والغريـزة والإرادة، واحتقارهـا للعقـل والضبـط والربـط.. أدى كل هـذا إلـى العقـاب الطبيعـى الواجـب؛ فـإن «العالـم» كمـا قـال هـوارس والبـول «ملهـاة لأولئـك الذيـن يفكـرون، ومأسـاة لأولئـك الذيـن يشـعرون». وهكـذا كانـت الحركـة الرومانتيكيـة العاطفيـة غنيـة بالأحـزان والتأوهـات

بقدر لم يوجد فى أية حركة أخرى. فعندما يتبين الرومانتيكى أن مثله الأعلى للسعادة قد تحول فعلًا إلى ما يجلب عليه الشقاء. فإنه لا يلوم مثله الأعلى بل يدرك ببساطة أن العالم غير جدير بكائن مثله منظم كل التنظيم... وكيف يمكن للدنيا ذات النزوات أن ترضى نفسًا ذات نزوات؟

ولقد كان ارتفاع نابوليون إلى الإمبراطورية، وإنكار روسو ـ ونقد كانت ـ للفكر، ومزاجه العاطفى الخاص وتجاربه.. قد تآلفت كلها فى أن توحى لشوبنهاور أولية الإرادة وحتميتها. وربما ساعدت معركة واترلو وجزيرة سانت هيلانه أيضًا فى تنمية ما ورثه التاريخ، التى قادت القارات فى شدة؛ ومع ذلك، كان مصيرها محتومًا كمصير تلك الحشرة التى يتطلب يوم مولدها موتًا لا محيد عنه.

ولم يخطر شوبنهاور قط أن الأفضل للمرء أن يكافح وأن يخسر من أن لا يكافح قط؛ ولم يشعر ـ كما شعر هيجل الرجل القوى بالمجد والرغبة فى الصراع؛ بل أخذ يرنو إلى السلام وهو يعيش فى وسط الحرب. كان كل ما يراه صراعًا، ولم يستطع أن يرى ما وراء الصراع من: المعاونة الودية للجيران، وابتهاج الأطفال والشباب، والرقصات الحية التى ترقصها الفتيات المرحات، والتضحية التى يبذلها الآباء والمحبون طواعية، وخصوبة التربة، ومولد الربيع.

وكانت أمه تنبهه إلى ذلك كثيرًا بل لقد بعثت إليه وهو فى ويمبلدون برسالة تقول فيها «يجب أن تقترب قليلًا من الناس، عما هى عليه طريقتك الآن، أما أن تبقى شهرين فى غرفة دون أن ترى الناس، فليس هذا يا بنى بالأمر المستحب، بل إنه ليؤسفنى تمامًا.. إذ ينبغى للمرء ألا يعتزل الناس».

وبعد عشرة أعوام راحت الأم تردد نفس المعنى، إذ قالت له «ألا يزال يغلب عليك كدر المزاج؟! أم إنك صرت راضيًا عن ذلك العالم الأحمق، كما لو لم يكن هناك ما هو أفضل منه؟!».

ولكن النصائح ذهبت أدراج الرياح، وظل شوبنهاور على عادته، بل وجدناه هو نفسه ينصحها ـ بعد وفاة والده وحضوره إلى فايمار ـ بالاقتصار واعتزال الناس، بحجة أن فى ذلك توفير للمال.

وكانت هذه النصائح التى أبداها الابن من الأسباب التى أدت إلى نفور الأم منه، إذ كانت ـ كما مر بنا ـ قد وطنت منها النفس على أن تكون سيدة مجتمع ترنو إليها الأنظار وتجتمع فى بيتها الصفوة المختارة من أهل الفكر والأدب. ولما تناقل الناس الإشاعات عن مسلك أمه، أصر على ضرورة اعتزالها الناس؛ فدب بينهما الشجار والشقاق. وما هى إلا فترة قصيرة حتى حرم كل منهما على نفسه مكالمة الآخر، وغدا الاتصال بينهما ـ كلما دعت الضرورة ـ عن طريق ـ الكتابة فحسب.

وحاول شوبنهاور التقرب من أسرته عندما كان فى فرانكفورت فى سنة ١٨٣١، إلا أن محاولته باءت بالفشل. وانتهت بأنه هجر أمه هجرًا كاملًا، ولم يرها طوال الأربعة وعشرين سنة الأخيرة من حياتها.

وقد تلقف مؤرخو حياة شوبنهاور أخبار هذه الفرقة، وراحوا يعزون إليها نقمة شوبنهاور على المرأة.

ولكن البعض أضاف إلى أسباب نقمة شوبنهاور على المرأة، شيئًا جديدًا هو إنه فشل مرتين فى الحب. فما قصة ذلك الحب؟!

لقد وقع شوبنهاور فى الحب مرتين أولاهما حينما تعرف على كارولين ياجمن ـ صديقة الدوق كارل أوجوست دوق فايمار. وبلغ هذا الحب مبلغًا جعله يفكر فى الزواج بها، وكان يتساءل «لم لا آخذ هذه المرأة إلى منزلى، حتى لو كانت تكسر الأحجار فى الطريق!».

وكانت المرأة الثانية التى طرقت فيها المرأة باب قلبه واستجاب لندائها فى سنة ١٨١٨، وهو بالبندقية فى إيطاليا؛ فقد استهوته فتاة إيطالية تدعى تريزا، وبادلته الحب العنيف الذى وصل حد التفكير فى الزواج بها ـ رغم إنه كان يرى أن الزواج نقمة على العبقرية. ولكنه أفاق فى الوقت المناسب، وآثر البقاء أعزب.

واستمر سيل لعناته ينهال على المرأة، حتى إذا ما بلغ سن الكهولة ألفينا قلبه ينبض ـ وقد نيف على السبعين من عمره ـ للفنانة الفاتنة اليزابيث نيه التى كانت تعمل له تمثالًا نصفيًا؛ واستطاعت أن تأسره بجمالها وسحرها، وربما جعلته يشعر بالندم على ما صبه من قبل على المرأة من لعنات وما وصفها به من صفات حقيرة .. ولكنه على أية حال لم يكتب شيئًا ولم يؤثر عنه ما يدل على إنه غير من آرائه تجاه المرأة.

وما من شك فى إنه كان فى أعماق شقاء شوبنهاور رفضه للحياة الطبيعية ـ رفضه للنساء والزواج والأبناء.

أراؤه عن المرأة

لقد كان يرى فى الأبوة أعظم الشرور، وهى التى يجد فيها الرجل السليم رضى كل الرضى فى الحياة.

وهـو يـرى أن اختـلاس الحـب راجـع إلـى الخـزى مـن اسـتمرار النـوع ـ فهـل هنـاك مـا يفـوق ذلـك مجافـاة للعقـل؟

وهـو لا يـرى فـى الحـب إلا تضحيـة الفـرد فـى سـبيل الجنـس، ويتجاهـل المباهـج التـى تسـد بهـا الغريـزة ثمـن مـا يـدل مـن تضحيـة ـ مباهـج بلغت مـن العظمـة حـدًا أوحـت معـه بمعظـم الشـعر فـى العالم.

ولا يعـرف شـوبنهاور فـى المـرأة إلا أنهـا ناشـزًا وإلا أنها مخطئـة، ويتخيل إنـه ليسـت هنـاك طـرز أو نمـاذج أخرى.

ويـرى أن الرجـل الـذى يحمـل نفسـه مسـئولية إعالـة زوجـة إنمـا يكـون أحمـق، ولكـن مـن الواضـح أن هـؤلاء الرجـال لـن يكونـوا أكثـر شـقاء مـن صاحبنـا رسـول الشـقاء الفريـد. كذلـك لـن ننسـى مـا قالـه بلـزاك مـن «إن إعالـة الرذيلـة يتكلـف أكثـر مـن إعالـة الأسـرة».

وهـو يسـخر مـن جمـال المـرأة ـ كمـا لـو كنـا نسـتطيع أن نغفـل أنواعًـا مـن الجمـال، وإننـا يجـب ألا نرعـى إلا لـون الحيـاة وشـذاها. أيـة كراهيـة للنسـاء قـد ولدهـا حـادث سيئ مـا فـى هـذه النفـس التعسـة؟

وانتقـل أثـر هـذه الحملـة إلـى المفكـر الأسـبانى جـورج سـانتيانا الـذى أيـد شـوبنهاور فـى نظرتـه إلـى الحـب علـى أنـه خـداع الجنـس للفـرد. فقال أن «تسـعة أعشـار الدافـع إلـى الحـب تكمـن فـى المحـب ذاتـه».

وقـال سـانتيانا بـأن الحـب يذيـب نفـس المـرء ويجرفهـا فـى تيـار الجنـس، ولكـن سـانتيانا أكـد أن الأسـرة هـى السـبيل إلـى دوام الإنسـانية. وهـو بذلـك يذكرنـا بكلمـات لابـلاش التـى قالهـا علـى فـراش المـوت: «ليـس ثمـة حقيقـة سـوى الحـب؛ فليكـن فـى الحـب مـا فيـه مـن خيـالات،



ولكنـه ينتهـى عـادة إلـى إيجـاد صلـة مـن القربـى بيـن الوالـد والولـد، وهى صلـة ترضـى الغرائـز البشـرية بشـكل أكبـر ممـا يرضيها مـا فى حيـاة العزوبة مـن أمـن وهـدوء؛ فالأبنـاء هـم خلودنـا. وليـس أرضـى لنفوسـنا مـن أن نـرى «متـن» الحيـاة الخالـد قـد ظهـر فـى «نسـخة» أخرى أفضـل مـن الأولى».

الحياة سلسلة من الرغبات

قال شوبنهاور إن الحياة سلسلة من الرغبات.

ومـاذا يضيـر فـى ألا تـؤدى الرغبـة ـ بعـد إشـباعها ـ إلا إلـى رغبـة أخـرى فحسـب؟ ولربمـا كان خيـرًا لنـا ألا نقنـع أبـدًا، فالسـعادة ـ كمـا تقـول حكمـة قديمـة ـ تكـون فـى الأعمـال الفـذة لا فـى التملـك أو الإشـباع. والرجـل الصحيـح الجسـم لا ينشـد كثيـرًا مـن السـعادة يزيـد عمـا يتيـح لـه فرصـة ممارسـة قدراتـه؛ وإذا كان لابـد لـه مـن دفـع ثمـن الألم لهـذه الحريـة وهذه القـوة، فإنـه يدفعـه برضـى، إذ ليـس الثمـن غاليًـا جـدًّا. ونحـن فـى حاجـة إلـى المقاومـة لترفعنـا كمـا ترفـع الطائـر أو الطائـرة؛ ونحـن فـى حاجـة إلـى العوائـق التـى تدعونـا إلـى مضاعفـة قوتنـا وتسـتحث نمونـا ـ فالحيـاة بـلا مأسـاة غيـر جديـرة بالإنسـان.

الأحزان ناجمة عن المعرفة

وقال شوبنهاور إن زيادة المعرفة تتبعها زيادة الأحزان.

وصحيـح أن «ذلـك الـذى يزيـد مـن معارفـه يزيـد مـن أحزانـه» وإن الكائنـات التـى تفـوق غيرهـا تنظيمًـا هـى التـى تفـوق غيرهـا عنـاءً ونصبًـا. نعـم، ولكـن صحيـح أيضًـا أن نمـو المعرفـة يزيـد البهجـة كمـا يزيـد الحـزن،



وأن النفس الراقية تحتفظ بأرق المباهج كما تحتفظ بأشد الآلام وقعا.

ولقد فضل فولتير ـ وهو على حق ـ حكمة «شقاء» البراهمة على جهل المرأة الفلاحة التى تشعر بالنعيم.

ونحن نريد أن نمارس الحياة بشدة وبعمق، حتى ولو دفعنا الثمن من الآلام. نريد أن نتوغل إلى أعمق الأسرار، حتى ولو دفعنا ثمن ذلك من قضائنا على الأساطير والخيالات. فإن فرجيل ـ الذى تذوق كل المتع وعرف كل الترف الذى تكلفه الرعاية الإمبراطورية ـ «تعب» أخيرًا «من كل شىء إلا من مباهج الفهم».

وعندما تتبلد الحواس وتعجز عن الإشباع، فيكون بلوغ الشىء ذا قيمة مهما تجشمت النفس من الصعاب فى سبيل ذلك؛ ومن ذلك زمالة الفنانين والشعراء والفلاسفة ممن لا يمكن أن يفهمهم إلا العقل الناضج والحكمة متعة فى حلاوتها مرارة، ويزيد من هذه المرارة ذلك النشاز الذى يتداخل فى توافقها.

اللذة سلبية

ويقول شوبنهاور إن اللذة سلبية. وهذا يجعلنا نتساءل:

هل اللذة سلبية؟ أن النفس الجريحة جرحًا مؤلمًا هى التى تنطوى على ذاتها وتمتنع عن الاتصال بالعالم، وهى التى تستطيع وحدها أن تنطق مثل هذا الكفر بالحياة. وليست اللذة سوى عملية توافقية تقوم بها غرائزنا. فكيف يمكن أن تكون اللذة سلبية إلا إذا كانت الغريزة تعمد فى أثناء عملها إلى التقهقر بدلًا من التقدم؟ ولا شك أن الهرب والراحة والخضوع والأمن والعزلة والهدوء من اللذات السلبية، لأن

الغرائـز التـى تدفعنـا إليهـا هـى فـى جوهرهـا سـلبية فـى أشـكال الهـرب والخـوف. ولكـن هـل نقـول هـذا عـن اللـذة التـى تسـتمد مـن الغرائـز الإيجابيـة فـى أثنـاء سـيطرتها: غريـزة التملك والاسـتحواذ، وغريزة المشاكسـة والسـيطرة، وغريـزة العمـل واللعـب، وغريـزة الاجتمـاع والحـب؟ هـل لـذة الضحـك سـلبية؟ وهـل مـن السـلبية أيضًـا مـرح الطفـل، أو تغاريـد الطيـر، وهـو يشـدو لأليفـه، أو صيـاح الديـك، أو متعـة الخلـق فـى الفـن؟ أن الحيـاة فـى ذاتهـا قـوة إيجابيـة، وكل وظيفـة طبيعيـة مـن وظائفهـا فيهـا شـىء مـن اللـذة.

الموت رهيب

وهنـاك حقيقـة لا شـك فيهـا، وهـى أن المـوت رهيـب. ولكـن أغلـب مـا فيـه مـن رهبـة يختفـى إذا مـا عـاش الإنسـان عيشـة طبيعيـة؛ إذ لابـد أن يحيـا المـرء حيـاة طيبـة ليمـوت ميتـة حسـنة.

ولكـن هـل يبهجنـا انعـدام المـوت؟ طبعًـا لا، بـل مـن ذا الـذى يحسـد اهاسـورس الـذى عوقـب أشـد عقـاب بـأن بقـى حيًـا حيـاة دائمة لا يسـتطيع إنسـان أن يحتملهـا؟

ولمـاذا يـرى شـوبنهاور المـوت رهيبًـا مـا دام لا يـرى الحيـاة حلـوة؟ ولـن نكـرر مـا قالـه نابليـون مـن أن كل الذيـن يخافون الموت ليسـوا فـى الحقيقة إلا ملحديـن فـى أعماقهـم. ولكنـا نقـول بـكل تأكيـد أن الإنسـان الـذى يعيش زيـادة عـن سـبعين سـنة يكـون قـد جاوز فتـرة التشـاؤم.

ويقـول جيتـه إنـه لا يوجـد إنسـان متشـائم بعـد سـن الثلاثين؛ فالتشـاؤم قبـل سـن العشـرين تـرف يجـيء نتيجـة الشـعور بالـذات والإحسـاس

بأهميـة الشـباب.. الشـباب الـذى يخـرج بعيـدًا عـن صـدر أسـرته الدافـئ إلـى الجـو البـارد: جـو التنافـس الفـردى والجشـع، ثـم يحـن إلـى صـدر أمـه.. الشـباب الـذى يلقـى بنفسـه ـ فـى جنـون ـ علـى طواحيـن الهـواء وشـرور العالـم، ويفقـد مـع كل سـنة تمـر مـن حياتـه أحـلام المـدن الفاضلـة والمثـل العليـا. وينصـرف الشـباب قبـل العشـرين إلـى متعـة الجسـد، وبعـد الثلاثيـن إلـى متعـة العقـل؛ وقبـل العشـرين تكـون متعـة الحمايـة والأمـان، وبعـد الثلاثيـن متعـة الأبـوة والبيـت.

مسائل أخرى

كيف يمكن أن يتحاشى التشاؤم رجل عاش طول حياته فى فندق؟

وهنـاك مسـائل أخـرى أكثـر فنيـة وأقـل حيويـة، فـى هـذه الفلسـفة الرائعـة المثيـرة.

ـ كيـف يمكـن أن يقـع انتحـار فـى عالـم تعـد القـوة الحقيقيـة الوحيـدة فيـه هـى إرادة الحيـاة.

ـ كيـف يمكـن للفكـر الـذى هـو وليـد الإرادة وأسـيرها أن يسـتقل عـن الإرادة ويحقـق أهدافـه؟

ـ هـل توحيـد العبقريـة فـى المعرفـة المنفصلـة عـن الإرادة ، أم إنهـا تشـتمل علـى قـوة إرادة هائلـة كقـوة دافعـة لهـا، أو حتـى سـبيكة كبيـرة مـن الطمـوح الشـخصى والغـرور؟

ـ هـل الجنـون مرتبـط بالعبقريـة بصفـة عامـة، أم مرتبـط فحسـب بالطـراز «الرومانتيكـى» مـن العبقريـة «مثـل بايـرون وشـيلى وبـو وهاينـه وسـوينبرن وشـتريندبرج ودوستويفسـكى.. إلـخ» وأليـس الطـراز

«الكلاسيكى والأكثر عمقًا من العبقرية سليمًا بصورة تفوق العادة «مثل سقراط وأفلاطون وسبينوزا وبيكون ونيوتن وفولتير وجيته وداروين وهويتمان.. إلخ؟».

ـ ماذا لو لم يكن العمل الصحيح للفكر والفلسفة هو إنكار الإرادة بل كان تنسيق الرغبات فى إرادة متحدة متوافقة؟

ـ ماذا لو كانت «الإرادة» نفسها ـ إلا إذا جاءت كثمرة موحدة لمثل هذا التنسيق ـ تجريدًا أسطوريًا خياليًا «كقوة»؟

أوجه الجمال فى آراء شوبنهاور

وبالرغم من ذلك، ففى هذه الفلسفة صدق صريح تبدو إلى جانبه أغلب المذاهب التفاؤلية مجرد خداع ونفاق، ومن الخير أن نقول مع سبينوزا إن الطيب والخبيث اصطلاحان موضوعيان، من أحكام البشر التى لا مبرر لها. ومن ثم، فنحن مضطرون إلى أن نحكم على هذا العالم لا من وجهة نظر «محايدة» بل من وجهة النظر الواقعية للبشر فى عنائه وحاجاته. وكان جميلًا أن يكره شوبنهاور الفلسفة على مواجهة حقيقة الشر المجردة وأن يوجه أنف الفكر إلى أعماق البشر فى التخفيف عما بهم. وكان أكثر مشقة على الفلسفة منذ عصر شوبنهاور أن تعيش فى جو الميتافيزيقا غير المنطقية وغير الحقيقة، إذ بدأ المفكرون يتبينون أن الفكر إذا لم تصحبه الحركة فيكون أشبه بالمرض.

وعلى كل حال، فقد فتح شوبنهاور أعين علماء النفس على أعماق الغريزة وقوتها الدائمة. حتى أنه إذا كان المذهب الفكرى الذى يصور

الإنسان على أنه قبل كل شىء حيوان مفكر، يتخير وسائله ـ عن وعى التى تصل به إلى الأهداف التى حددها من قبل ـ إذا كان هذا المذهب قد أصابه المرض مع روسو، فقد لازم الفراش مع كانت، ومات مع شوبنهاور. ولقد وجدت الفلسفة ـ بعد قرنين من التحليل الداخلى الرغبة وراء الفكر، والغريزة وراء العقل ـ تمامًا كما حدث مع المادية؛ فبعد أن سيطرت قرنًا كاملًا؛ وجدت الطبيعة الطاقة وراء المادة. ومن ثم، فنحن مدينون لشوبنهاور بأنه كشف لنا الستار عن خفايا قلوبنا، وأرانا أن رغباتنا هى محور فلسفاتنا، وأوضح الطريق لفهم الفكر على أنه لم يعد مجرد جمع أحداث غير شخصية ـ بل إنه أداة طيعة للعمل والرغبة.

شوبنهاور والفن

وأخيرًا بالرغم من كل هذه المغالاة، فقد علمنا شوبنهاور مرة أخرى أهمية العبقرية وقيمة الفن، إذ رأى أن الخير المطلق هو الجمال، وأن المتعة الكبرى تكون فى خلق الجمال أو العناية به.

وتعد موسيقى ريشارد فاجنر تحقيقًا لنظرية شوبنهاور فى الفن، التى تقوم على أن الفن عامة ـ والموسيقى خاصة ـ هى الوسيلة الوحيدة للخلاص فى الحياة ومن الحياة. فالموسيقى تعبير دقيق لإرادة الحياة التى هى الوجود ذاته. هى فى هذا التعبير لا تصور ناحية معينة من الحياة، بل تعبر عن إرادة الحياة فى جوهرها الكلى؛ فإذا كانت تعبر عن الألم أو السرور فإنما تعبر عن الواحد منهما فى جوهره وطبيعته الأصلية. وكل من يستطيع إلى روائع موسيقى فاجنر وطبيعته الأصلية. وكل من يستمع إلى روائع موسيقى فاجنر يحس



بالنشـوة والسـلوى، بـل يجـد فيهـا الخـلاص الـذى كان شـوبنهاور ينشـده ويدعـو إلـى تحقيقـه عـن طريـق الفـن والموسـيقى.

شوبنهاور ونيتشه

ولـم يقـف تأثيـر شـوبنهاور عنـد فاجنـر، بـل إننـا نجـد سلسـلة مـن رجـال الفكـر يسـيرون مـن ورائـه علـى الطريـق. فقـد أحـس نيتشـه مثـلًا بأنـه واقـع تحـت تأثيـر شـوبنهاور لفتـرة طويلـة مـن الزمـن. فمنذ وقـع بصره علـى كتاب «العالـم إرادة وتخيـل» أعجب نيتشـه بـه، واعتنق مذهب شـوبنهاور بل أعتبره أبـاه الفكـرى، وعـده أحسـن من تغنى بالتشـاؤم، وأبـرع من وصـف آلام الحياة، وأعمـق مـن نفـذ إلـى جوهرهـا، ووضـع يـده علـى مفتاحهـا: إلا وهـو «إرادة الحيـاة» وصـار نيتشـه أشـبه «بالنائـم» إذ سـرى تشـاؤم شـوبنهاور فـى أوصالـه سـريان المخـدر، وأشـاع فـى أعصابـه الارتخـاء، كذلـك فعلـت موسـيقى فاجنـر فيـه فعلهـا، فكانـت تخفـف مـن آلامه.

ولكـن مـا إن دب المـرض فـى نيتشـه حتـى ثـار علـى شـوبنهاور وعلـى تشـاؤمه، واعتنـق مبـدأ «الحيـاة»؛ فـكان المـرض شـاحذًا لإرادتـه موحيًـا إليـه بالشـجاعة، دافعًـا بـه إلـى توكيـد حياتـه بالرغـم ممـا كان ينتابـه طـوال حياتـه مـن آلام فـى الـرأس والعينيـن والمعـدة «وكان يتقبـل الآلام كامتحـان أو رياضـة روحيـة، وينكـر علـى المـرض التشـاؤم. وتطـورت فلسـفته التـى هـى صـورة نفسـه القلقـة وثقافتـه الرومانتيكيـة وتجربتـه المؤلمـة، وصـارت تقـوم علـى تعليـم الإنسـان كيـف يكتشـف فـى نفسـه إرادة القـوة. وهـذا مـا دفعـه إلـى نقـد شـوبنهاور نقـدًا لاذعًـا، وإلـى فصـم كل صلـة كانـت لـه بفاجنـر حيـن تبيـن أنـه مختلـف معهمـا فـى معنـى الحيـاة والغايـة منهـا.

شوبنهاور وبرجسون

وإذا ما سرنا مع الزمان حتى برجسون وجدناه ينهج نهج شوبنهاور الذى كان أول من فطن إلى أن «الحياة» أساس الوجود. وتناول برجسون من بعده هذه الفكرة بالبحث والاستقصاء حتى جذب أنظار العالم كله إليها ـ على الرغم من طغيان روح اللاإرادية والشك طغيانًا هائلًا على هذه الحياة.

شوبنهاور والفكر الحديث

ولقد تأثر فى القرن الماضى بشوبنهاور ـ فضلًا عمن ذكرنا ـ كثير من المفكرين الآخرين أمثال هيبل وتولستوى وتوماس مان. وفى هذا القرن تأثر به البعض أمثال ويليام جيمس وفرويد.

ولن يقف تأثير شوبنهاور عند حد، بل لسوف تبقى فلسفته ذات أثر كبير، وسيظل هو المفكر المطلوب فى ساعات الشدة، والمفكر الذى يلجأ إليه الشباب عندما ينهار بتحطم أوهامه؛ والمفكر الذى يقف على أعتابه المسئولون الذين لا يستطيعون أن يوقفوا تدهورهم وتحليقهم مع الخيالات.

ولسوف يظل شوبنهاور فيلسوف كل أولئك الذين يعيشون عيشًا صارمًا جادًا خاليًا من الأحلام والآمال.

ولكن...

قبل أن أختتم هذا الحديث، أود أن أنقل هنا شيئًا طالعته أخيرًا فى عجب.. ذلك إنه عندما طلب إلى ويليام جيمس فى يوم ٢١ سبتمبر ١٩٦٠ أن يرأس اللجنة التى تقوم بإعداد تمثال شوبنهاور

فـى فرانكفـورت، ورفـض ويليـم جيمـس ذلـك رغـم أنـه مـن المفكريـن الأمريكييـن الذيـن تأثـروا بشـوبنهاور.

وقال ويليم جيمس:

«إننـى لا أسـتطيع أن أشـترك فـى تمجيـد رجـل بصـق علـى حياتـى وحيـاة أولئـك الذيـن أمجدهـم بقلبـى. إن صيحـة التشـاؤم كعـواء الذئـب؛ ولا يتفـق وعلـم الأخـلاق فـى شـىء تمجيـد رجـل تقضـى تعاليمـه بالقضـاء علـى كل عاطفـة».

ولكـن كلمـات ويليـام جيمـس لا تغمـط شـوبنهاور وفلسـفته وفضائـل حديثـه.. لا تغمطهـا حقهـا مـن التقديـر؛ ولسـوف نقيـس شـوبنهاور دائمًـا بكانـت، ونتفـق معـه إلـى حـد كبيـر فـى أنـه مكمـل كانـت فـى فلسـفته.

وليـس مـن تعليـل لمـا قالـه ويليـم جيمـس إلا إنـه يختلف مع شـوبنهاور فـى مسـألة جانبيـة: إلا وهـى نظرتـه إلـى اليهـود، فقـد كان شـوبنهاور إذا لـم يعجبـه حديثًـا وصفـه بأنـه سـخيف لا معنـى لـه، ككلام اليهـود؛ بـل أثـر عنـه تعليـق علـى مطامعهـم وهـو «أن أسـعار أسـهم اليهـود القدمـاء فـى انخفـاض»، وأن النيرفانـا سـوف تحـل محـل وطـن يهـوه!

وإنى لأرى فى ذلك سببًا كافيًا لتنكر ويليام جيمس لأستاذه شوبنهاور!

ولكنـى لا أقبـل قـط التقليـل مـن أهميـة فلسـفة شـوبنهاور، بـل إنـى لأشـترك اليـوم مـع شـوبنهاور عندمـا شـارك مـع كل مـن جيتـه وكارليـل فـى الاحتجـاج علـى محـاولات هيجـل وماركـس وبـاكل فـى الإقـلال مـن شـأن العبقريـة كعامـل أساسـى فـى التاريـخ البشـرى، بـل راح يدعـو مـرة



أخـرى إلـى تكريـم عبـادة الإبطـال، فـى عصـر بـدا فيـه أن جميـع العظمـاء قـد ماتـوا. وأقـول لويليـم جيمـس وأمثالـه إنـه رغـم كل الأخطـاء التـى يمكن أن تؤخـذ علـى شـوبنهاور، فقـد نجـح فـى إضافـة اسـم جديـد إلـى قائمـة الخالديـن، ألا وهـو:

آرتور شوبنهاور

هذا الكاتب

ـ الدكتور أحمد معوض من أبناء الإقليم الجنوبى للجمهورية العربية المتحدة.

ـ وهو عضو نقابتى الصحفيين بالقاهرة وفيينا.

ـ استهل حياته العملية والعالم يشهد ضياع الأرض المقدسة من أيدى العرب والتهام الصهيونية لجزء غال منها، فقام بجولات واسعة فى أوروبا وآسيا وأفريقيا للتعريف بالعالم العربى والإسلامى وقضاياه.

ـ أكمل دراساته العليا فى فرنسا والنمسا وألمانيا حيث حصل على دكتوراه الفلسفة.

ـ نشرت له الصحافة العربية والأجنبية مجموعة ضخمة من كتاباته وجولاته، وأخرجت له المطابع كثيرًا من الكتب والدراسات والأعمال التى وضعها باللغات العربية والألمانية والإنجليزية والفرنسية.

ـ جعل كل كتاباته، فى الفترة التى قضاها فى أوروبا، قاصرة على شرح حقيقة الأوضاع فى العالم العربى وبلدان الشرق، والدفاع عن قضايانا الحقة، ونقل صورة صادقة منها للعالم غير الناطق بالضاد. وواصل هذه الرسالة بعد عودته إلى الوطن.

ـ أرتاى أن العالم العربى فى نهضته الجديدة صار فى أمس الحاجة إلى الاطلاع على روائع الفكر العالمى، فعمل على أن ينقل صورًا منها إلى العالم العربى.

كتب الدكتور أحمد معوض

عن المشاكل العالمية

- لعب بالنار دراسة لمشكلة برلين (الطبعة الثانية)
- قضية برلين في وثائق (تحت الطبع)
- صراع حول ألمانيا (تحت الطبع)
- الحرية وإعادة توحيد ألمانيا (تحت الطبع)
- تركيا بين الشرق والغرب (الطبعة الأولى) نفد
- عن القضية الفلسطينية ـ باللغة العربية
- فلسطين تحتضر الطبعة الأولى (نفد)
- دولة إسرائيل الطبعة الأولى (نفد)
- اللاجئون العرب الطبعة الأولى (نفد)
- هل نترك إسرائيل تقوم وفلسطين تحتضر؟! (الطبعة الثانية) نفد
- صرخة إلى السماء (الطبعة الثالثة) نفد
- لن نكون لاجئين الطبعة الأولى
- عائدون (تحت الطبع)
- لمن الأمر؟! حقيقة التيارات السياسية فى إسرائيل (تحت الطبع)



باللغة الألمانية

ـ حرب أم سلام فى الأرض المقدسة

Krieg oder Frieden im heiligen Land

ـ السلام فى الشرق — Frieden im Orient

ـ عائدون — Sicher ist unsere Heimkehr

باللغة الإنجليزية

ـ صراع فى الأرض المقدسة (الطبعة الأولى)

Duel in the Holy Land

ـ إذا نسيتك يا فلسطين (تحت الطبع)

if I Forget thee, O Palestine

باللغة الفرنسية

ـ صرخة إلى السماء (تحت الطبع) Un Cri vers le Ciel

جولات ورحلات

ـ رحلات فى الشرق العربي

ـ بين الشرق والغرب

ـ رحلة إلى سوريا ولبنان

ـ إيران

ـ فى أرض الحرمين

ـ الأرض الطاهرة (باكستان)

ـ لبنان

ـ أفغانستان

ـ من النيل إلى الدانوب الأزرق (نفد)

ـ رقص بين الأطلال (تحت الطبع)

- الشرق
- هذا هو الشرق
- سوريا تنهض
- عظماء الشرق
- نحو الوحدة العربية
- مشاكل العالم العربى (كتاب مسابقة جامعة الدول العربية)
- ليبيا الجديدة
- العراق الحديث
- ثورة الشعب
- تاريخ اللغات السامية

أضواء على..

- شوبنهار (الطبعة الأولى)
- نيتشه
- عمر الخيام
- جيته
- بوشكين
- شيلر
- تولستوى
- هاينه
- تشيكوف

من مؤلفات جيته

- آلام فرتر الصغير ترجمة أمينة عن الألمانية لقصة فرتر الخالدة

أضواء على شوبنهاور

شوبنهاور فيلسوف شهد الناس ـ وفى مقدمتهم أعز الناس إليه ـ ينصرفون عنه، ثم شهد ـ فى أواخر حياته ـ الناس يقبلون عليه ويضعونه فى المكانة الالئقة به ويكرمونه ويقدرونه حق قدره. ولم يُغير هذا الإدبار أو ذلك الإقبال شيئا من نظرته إلى الحياة، ولم ينزع عن خياله ما عاناه منذ صباه من تصرفات كادت تودى به كمفكر وتنتقل به إلى عالم آخر بعيد عن عالم الفكر والتأمل. وراح الصراع الذى مر به فى حياته ـ وخاصة الحلقات األولى منها ـ يتحكم فيما يكتب ويشكل كتاباته، بل يضع أعماله فى القوالب األخيرة التى ظهرت فيها للناس. وال أريد أن أتعرض فى هذه الكلمة للعالم الذى عاش فيه شوبنهاور، واأليام التى مر بها، واألعمال التى خلفها لنا ـ حتى ال يفقد القارئ لذة متابعة األحداث، وتتبع أفكاره الفلسفية.





مكتبة الرافدين للكتب
الالكترونية
https://t.me/ahn1972